وزارة المعارف العمومية

معالم تاريخ العصور الوسطى

وفق مقرر السنة الثانية الثانوية

تأليف

محمد رفعت بك ، محمد أحمد حسونه

مساعد مراقب تعليم البنات — المفتش بوزارة المعارف

القاهرة

طبع بالمطبعة الأميرية ببولاق

١٩٣٨

مقدمة الطبعة الثالثة عشرة

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

انتهزنا فرصة نفاد الطبعة الثانية عشرة لتعديل هذا الكتاب تعديلا يجعله مطابقا للمنهج الأخير الذى استقرت عليه وزارة المعارف فى صيف سنة ١٩٣٧

ورجاؤنا أن يجد الطلاب العون الذى ألفوه من قبل ما

١٢ أغسطس سنة ١٩٣٧

محمد رفعت   محمد أحمد حسونه

الفهـــرس

فهرس الخرائط

الفصل الاول

تأسيس الدولة العربية ووصف الحضارة الإسلامية

حالة أوربا والشرق قبيل ظهور الإسلام :

فى القرن الثالث الميلادى كانت الامبراطورية الرومانية تمتد من المحيط الأطلسى غربا إلى نهر الفرات شرقا ، ومن الصحراء الكبرى جنوبا إلى الطونة والرين شمالا ، وفى داخل تلك الحدود الطبيعية كان يسكن أقوام يختلفون جنسا ولغة وعادة ودينا .

مبادئ التهذيب الرومانى :

فكانت روما — عاصمة الامبراطورية — ترسل إلى كل جهة من يغرس فيها حضارتها بمجرد استعداد البلاد المفتوحة لقبولها ، فمتى تم فتح إقليم بدأ صبغه بالصبغة الرومانية ، واذا أخلد أهله للسكينة منحوا حقوقا مدنية تشابه حقوق أهل روما أنفسهم ، حتى إنه على الرغم من الفروق التى كانت تفصل كل ولاية عن الأخرى شاعت بين الجميع مبادئ التهذيب الرومانى ، وانتشرت عوامل الحضارة الرومانيــة وجعلت الجهات المختلفة تسمو شيئا فشيئا الى المستوى الراقى الذى سبقت اليه روما .

دفاع الرومان عن دولتهم :

وبسبب ترامى أطراف الدولة وصعوبة الدفاع عن حدودها ، لم يستطع الأباطرة غزو القبائل المتبربرة التى كانت تتاخم حدود الدولة فى أوربا ، بل اقتصروا على بناء الاستحكامات والقلاع وتحصين الحدود ، وأنشأوا الطرق لتسهيل ارسال الجيوش الى حاميات الأطراف .

دخول المتبربرين فى الجيش :

ولما انصرفت رغبة الرومان عن الانتظام فى سلك الجيش ، لجأ القواد والأباطرة الى تجنيد أولئك الأقوام فى رتب الجيش المختلفة حتى فاق العنصر المتبربر فى الجيش لدرجة أن كلمة "بربروس Barbarus" أصبح معناها فى اللاتينية العامية "الجندى". وكذلك حدث فى الادارة ، وسيطر هؤلاء الدخلاء على الامبراطور والحكومة ، وعرفوا مواطن الضعف فى الدولة .

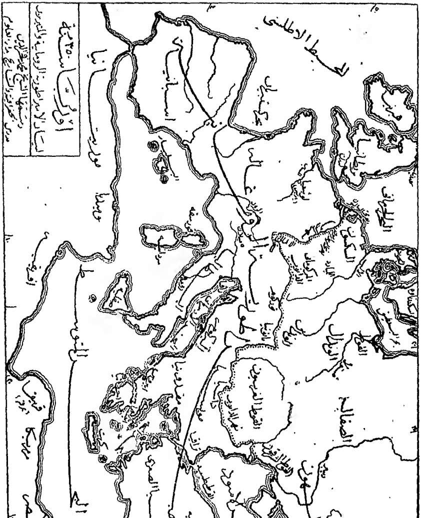
الشعوب المتبربرة :

وأهم الشعوب غير المتحضرة التى كانت تتاخم الدولة وتغير على حدودها الأوربية المترامية من حين الى حين قبائل الكلت والصقلب والجرمان .

وكان الكلت فى القرن الرابع يقطنون فرنسا الحالية والجزر البريطانية ، وكان الصقلب فيما يسمى الآن روسيا وكان الجرمان يقيمون خلف حدود الدولة على امتداد نهرى الرين والطونة .

انقسام الدولة الرومانية :

ويمكن القول بوجه عام أنه قبل سنة ٣٩٥ ميلادية كان وجود غير المتحضرين داخل الامبراطورية قاصرا على استخدامهم فى الجيش والادارة ، وأنهم بعد ذلك شرعوا يغيرون على الدولة ويستولون على بعض أقاليمها. وكان ذلك من أسباب انقسام الدولة الرومانية الى قسمين : شرقية وعاصمتها قسطنطينية التى أسسها الامبراطور قسطنطين سنة ٣٣٠م ، وغربية وعاصمتها روما وذلك كى يتفرغ امبراطور كل قسم للدفاع عنه .



سقوط الدولة الرومانية الغربية :

غير أن ذلك لم يأت بكل ما كان يرجى منه من فوائد ، اذ توغل المتبربرون فى الغرب تدريجا وعجز القياصرة عن دفع غاراتهم ، واستبد بالأمر دونهم قواد الجند وكلهم من أصل غير متحضر ، حتى اذا كانت سنة ٤٧٦ أعلن "ادوا كر Odoacer" صاحب الأمر اذ ذاك انتهاء الدولة فى الغرب ، والاكتفاء بالامبراطور الحاكم فى القسطنطينية . وبذلك انتهت فى سنة ٤٧٦م الامبراطورية فى الغرب الذى فيه نشأت ، والذى كان عماد قوتها ، وان بقى قياصرة الشرق يلقبون أنفسهم رومانا باشكال شتى نحو ألف سنة أخرى .

الدولة الرومانية الشرقية

الامبراطور "جستنيان Justinian"

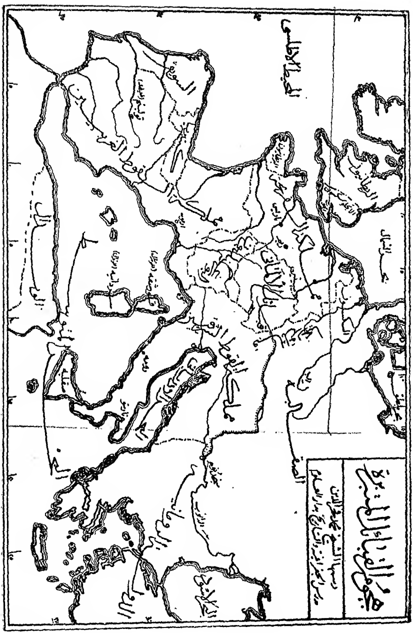
(٥٢٧ — ٥٦٥ م)

على الرغم مما أصاب الغرب بسبب غارات البرابرة ظلت الدولة الرومانية الشرقية قائمة محتفظة بقوتها ومدنيتها مدة ألف سنة بعد سقوط روما . وذلك بفضل مناعة قسطنطينية وخيرات آسيا التى كانت تتدفق اليها ، ولصغر مساحتها بعد فقد الغرب ، اذ أن ذلك سهل مهمة الدفاع عنها . الا أن الدولة لم تكن رومانية الا اسما فقط ، والحقيقة أن مدنيتها ولغتها وجنسيتها أصبحت اغريقية .

ومن أعظم الأباطرة الذين أصلحوا حال الدولة "جستنيان" وليس فى تاريخ القياصرة أشهر من اسمه . كان جستنيان ذا مقدرة عظيمة له ولع بأشياء كثيرة كالبناء والقانون والدين والتجارة والصناعة والحرب والسياسة والادارة ، وكان قوى الارادة يحسن اختيار الرجال ، ومن الأسماء الملازمة لاسمه ، اسم قائده "بلزاريوس Belisarius" الذى أحرز انتصارات عظيمة بجنود قليلة ورفع شهرة الجيوش الرومانية الى أعلى مستوى بلغته فى ماضيها .

استرجاع افريقية :

فلما أحس الامبراطور بقوة جيشه ومهارة قائده ، التفت الى الممالك التى كونتها العناصر الجرمانية من ولايات الدولة الرومانية الغربية والتى



لم يزل يعتبرها جزءا من ملكه ، وأول ما نزلت ضرباته على افريقيــة التى دخلها " بلزاريوس " عام ٥٣٣ ووجد " الوندال " فى حالة لا يستطيعون معها المقاومة ففتحها بسرعة مدهشة فى بحر سنة واحدة .

استرجاع ايطاليا :

وبعد فتح افريقية توجه " بلزاريوس " الى غنيمة أكبر ، فعبر ومعــه ٧٥٠٠ رجل الى صقلية فاحتلهــا بدون مشقة عام ٥٣٥ ، ونزل بجنــوب ايطاليا فى السنة التالية فاكتسح " بلزاريوس " كل شىء أمامه فسقطت نابلى وروما .

وعاد بلزاريوس منتصرا الى قسطنطينية فصار جستنيان أكبر قوة حربية ثم أضاف الى ملكه جنوب شرقى أسبانيا سنة ٥٥٠

اضمحلال قوة جستنيان :

إلا أنه بعد هذا أخذ نجم جستنيان وقائده يأفل حتى لم تحقق نهاية حكمه الآمال التى كانت تنتظر فى أوله ، وأهم ما حال دون نجاحه التــام حدوث أزمة مالية شديدة ناتجة عن كثرة المبانى العظيمة التى شيدها والتى تشهــد ببراعة المهندسين فى عصره، وأهمها كنيسة " أياصوفيا " .

ثم مقاومة الفرس والصقالبة . فأما دولة الفرس فبلغت منتهى قوتها فى عهد كسرى الأول (٥٣١ — ٥٧٩) فلم يستطع الامبراطور أن يخضد شوكتها ، بل اضطر بعد جهود كبيرة وحروب استمرت بضع عشرة سنة أن يتنازل لهم عن شىء من أملاكه .

وأما الصقالبة فشرعوا يخربون البلقان و يقيمون فيما يعـرف الآن باسم يوجوسلافيا و بلغاريا واليونان ثم اندمجوا بالسكان بدرجة عظيمة فى عهـد خلفاء جستنيان .

واشتهر جستنيان بشدة اضطهاده للوثنية، وكانت لا تزال باقية فى بعض جهات شبه جزيرة البلقان وأدى به عداؤه للوثنية الى اغلاق جامعة أثينا التى هى مركز للتعاليم الوثنية . وقد توالت المصائب على الدولة للأسباب التى ذكرناها ، و بسبب انتشار وباء فتاك قضى على عدد عظيم من سكان الدولة وجاء بعده زلزال شـديد أحدث تخريبا كبيرا فى كثير من مدنهـا وعادت الحال الى ما كانت عليه قبل جستنيان .

مجموعة القانون الرومانى :

وأهم ما يذكر به عصر " جستنيان " تأليفه لجنـة لجمع شتات القانون الرومانى ، وبهذا تم وضع المجموعة المعروفة باسمه ، خالية من المتناقضات ومن الأغلاط ، وظهرت أيضا مجموعة بأهم الأحكام التى أصـدرها كبار المشرعين والقضاة .

هرقل الأول :

وجاء بعـد جستنيان أباطرة ضعاف لم يزيدوا الدولة إلا خبالا الى أن اعتلى العرش " هرقل الأول Heraclius I " سـنة ٦١٠ — ٦٤١ فحاول أن ينهض بهـا ، ولكن النوائب ما فتئت تحل بالدولة من جراء المنازعات الدينية التى شغلت أذهان الناس حتى اضطر " هرقل " أن يقضى أكثر وقته فى محاولة حسمها ، و بسبب فداحة الضرائب النـاشئة من تبذير الأباطرة واعفاء كثير من الطبقات الشريفة منها ، وازدياد قوة الشعوب الصقلبية النازلة فى البلقان واللبارد فى إيطاليا .

دولة الفرس قبيل الإسلام

أسس "كورش" دولة الفرس القديمة وامتدت فتوحها حتى شملت بلاد فارس وأعالى دجلة والفرات وجزءا من آسيا الصغرى، ودخلت مصر ضمنها سنة ٥٢٥ قبل الميلاد .

وكان الفرس يتكلمون لغة آرية سميت فيما بعد "الفهلوية" ومعناها لغة الأبطال القدماء ، وبقيت الكتابة بها إلى ظهور الاسلام حين بدأ ظهور اللغة الفارسية الحديثة .

دين الفرس القديم :

وكان الفرس الأقدمون يعبدون مظاهر الطبيعة من سماء وهواء ومطر وضوء ويرمزون لها بالنار المقدسة يشعلونها فى معابدهم. ثم جاء "زَرْدُشْت" نبى الفرس فى القرن الثامن قبل الميلاد وعلمهم أن فى العالم إلهين : إله الخير واسمه "أهورا"، وإله الشر ويسمى "أَهْرِمَنْ" . وأن العمل الصالح يرضى "أهورا" الذى كتب له النصر النهائى على "أَهْرِمَنْ" .

الدولة الساسانية :

وبقيت الدولة الفارسية القديمة إلى أن قضى عليها اسكندر الأكبر سنة ٣٣١ قبل الميلاد . وضعفت ديانة "زَرْدُشْت" ولم تنتعش إلا بقيام نهضة قومية كان زعيمها "أردشير" الذى أسس سنة ٢٢٦ م الدولة الساسانية نسبة إلى جده ساسان . وكان أردشير يقول باتصال نسبه إلى ملوك الفرس الأقدمين أمثال "دارا" و "قمبيز" ومن ثم تقبل الفرس هذه الأسرة قبولا حسنا لاعتقادهم أنها تحكمهم بحق "التفويض الالهى".

وكان من مقاصد أردشير إرجاع الدولة الى مثل ما كانت عليه أيام "دارا الأكبر" فانتزع أرمينيا من الدولة الرومانية وجر ذلك إلى عداوة بين الفريقين بقيت إلى نهاية الدولة الساسانية .

النزاع بين الرومان والفرس :

وكان الروم أيام جستنيان يرابطون على حدود دجلة وانتصروا على الفرس سنة ٥٣٠ ثم تولى كسرى الأول المعروف بأنو شروان سنة ٥٣١ — ٥٧٩ فعقد الصلح معهم. إلا أنه هالته السرعة التى استولى بها جستنيان على شمال أفريقية و إيطاليا ، وخاف أن ينقلب عليه فسبقه إلى الهجوم وأخذ الروم على غرة وفتح كسرى "أنطاكية" عنوة سنة ٥٤٠ وغنم منها غنائم كثيرة . ثم قامت الحرب ثانية بين الفرس والروم سنة ٥٧١ واستمرت عشرين سنة دون نتيجة حاسمة إلا أنها جرت على الجانبين خرابا كبيرا .

مُلك أنو شروان :

وفى عهد أنو شروان كان ملك الفرس يمتد من نهر السند إلى شاطئ البحر الأبيض المتوسط ومن نهر سيحون إلى صعيد مصر. وكان أنوشروان فى كل أعماله حازما عادلا أدخل كثيرا من الاصلاحات المهمة فى بلاده ، منها أنه فرض على كل قطعة من الأرض مقدارا ثابتا من النقد والمحصول وبذلك حرر الفلاح من تحكم الجباة فنشط فى زراعة الأرض وزاده نشاطا عناية الملك بزيادة ماء الرى باقامة السدود ومضاعفة القنوات وتسليف الزراع البذور والماشية واقامة الأسرى فى المزارع وضمان معاملتهم معاملة حسنة .

ومن اصلاحاته بناء الجسور وتعبيد الطرق والقضاء على اللصوصية مما شجع التجارة وزاد فى رءوس الأموال .

ثم عمد إلى اقامة العدل بتدوين قوانين أردشير ونشرها فى أنحاء البلاد وتطبيقها على الجميع من غير تفريق .

ولم يقل عن هذا تشجيعه للعلوم فأنشأ جامعة فى " جنديسابور " حيث كانت الفلسفة والطب يدرسان دراسة وافية ، وبذل جهدا فى تعليم الطبقة الراقية ورحب بالعلماء الذين طردهم جستنيان حين أغلق جامعة أثينا ، فعلموا الفلسفة فى فارس وأثروا أثرا عميقا فى التصوّف الفارسى .

وكان الجيش فى عصر كسرى الأول قوة كبيرة أعظم فرقها فرسان يلبسون الدروع ويتسلحون بالسيوف والرماح والقسى من النوع الذى نقله عنهم الرومان وبلغ أشده فى أوربا حين كمل نظام الفروسية فى العصور الوسطى، أما الخيالة الخفيفة فكان كسرى يتخذها من العرب . وكان الرماة أكبر فرق المشاة وانتفع الفرس أيضا بالفيلة فى حروبهم وأتقنوا فنّ محاصرة المدن وتهديم الحصون المتينة وحفر الخنادق .

وكانت فارس ملتقى التجارة والعلوم معا ، وعنها نقلت الهند وأواسط آسيا كثيرا من أسباب المدنية . وقد سارت الأمثال بعظمة الأسرة الساسانية وترفها . ومما يشير إلى ذلك " إيوان كسرى " وكان به بساط يمثل حديقة أرضها من الذهب وطرقها من الفضة وخضرتها من الزمرد ، وقنواتها من الدر ، وأشجارها وأزهارها وفاكهتها من ماس وياقوت وأحجار كريمة أخرى . وبه كذلك عرش على شكل أسد عظيم من الذهب ، وتاج جليل معلق بسلاسل من الذهب يتجلى تحته الملك فى ملابس يخطف سنا جواهرها الأبصار ، فلا غرو ان كانت الرعية تسجد بين يديه وتسبح بحمده .

كسرى الثانى :

وبعد أنوشروان جاء كسرى الثانى سنة ٥٩٠ — ٦٢١ وانتهز اغارة قبائل الآفار والصقلب على أملاك الروم فى البلقان وساق جيشه الى العراق والشام

وفتح بيت المقدس سنة ٦١٤ ونهبها نهبا ذريعا ، وذبح السكان وأخذ الصليب الأصلى منها بجزع لذلك أهل أوربا جزعا شديدا .

وتقدم كسرى الى مصر سنة ٦١٦ وفتحها من غير مقاومة جدية وامتد نفوذه الى أثيوبيا واليمن . ثم عاد فاخترق آسيا الصغرى حتى بلغ البسفور وأخذ " خلقدون " سنة ٦١٧ وجعل فيها حامية لا يفصلها عن عاصمة القياصرة إلا ذلك الشريط الضيق من الماء .

أول حرب صليبية :

استولى الخوف على " هرقل الأول " رغم شجاعته وهمّ بالانتقال إلى إفريقية ولم يرجع عن عزمه إلا بعد أن أجبره البطريق والأهالى على أن يقسم على البقاء معهم وتعهدوا بإمداده بالمال . وفى هذه المحنة ظهرت فى القسطنطينية روح دينية قومية لم يسبق لها نظير إذ أخرجت الكنائس كنوزها من أوان وحلى و بعثت بها إلى دار الضرب فسكت نقودا تسلمتها الحكومة قرضا يرد بعد إجلاء الفرس عن الأراضى المقدسة واسترداد " الصليب الأصلى ". ولكن هرقل لم يستطع الالتفات الى الفرس لاشتغاله بمطاردة الآفار من طراقية . على أنه خرج سنة ٦٢٢ فى أول حرب صليبية إذ لم يكن الامبراطور ولا الشعب يسعون لغاية سياسية ، بل كانوا هم وجيشهم متحمسين لإنقاذ العالم المسيحى واستعادة الصليب الأصلى . وقام هرقل بست حروب من سنة ٦٢٢ إلى ٦٢٧ أكسبته شهرة فائقة . ومن جرأته وخبرته بفن الحروب أن ترك الفرس فى خلقدون وسار بحرا إلى أن نزل فى كليكيا فاضطر الفرس الى ترك خلقدون والمسير شرقا لمقاتلته فاخليت بذلك آسيا الصغرى من غير حرب . وعول هرقل على إكراه أعدائه على إخلاء الشام ومصر بمثل هذه الطريقة . فتقدم إلى بلاد الفرس نفسها حتى اقترب من عاصمتها . وحاول كسرى الثانى تقليد هذه الخطة فأرسل جزءا من جيشه إلى البسفور بينما كان حلفاؤه من الآفار يحاصرون القسطنطينية من ناحيتها الأوربية ولكن هرقل لم يتزعزع بل بقى يقود الجيش بنفسه.

وكان القياصرة قد عدلوا عن تلك الخطة منذ أكثر من مائتى سـنة . وما زال بالفرس حتى بدد آخر جيوشهم فى "نينوى Niniveh" سنة ٦٢٧ فخرج ابن كسرى عليه وسعى فى قتله وعقد مع هرقل صلحا ختم به حربا دامت ستا وعشرين سـنة . و بمقتضى هـذا الصلح استرد هرقل جميع الأقاليم الرومانية وكل الأسرى وأخذ غرامة حربيـة كبيرة ، والغنائم التى سـبق للفرس أخذها من بيت المقدس وفيها " الصليب الأصلى ".

ضعف الروم والفرس :

بلغ هرقل قمة عظمته وشهرته وعاد الى القسطنطينية فى الرابعة والخمسين من عمره بأمل أن يقضى بقية أيامه فى هدوء بعد أن أنهكته الحروب ضد الآفار والفرس وخربت بلاده واستنفدت مواردها من مال ورجال .

أما فارس فانتابتها ثورات داخلية كثيرة قتل فى غضبونها ملك بعد ملك فأقفرت البلاد وانعدم الأمن وعمت الفوضى .

ظهور الدعوة الى الإسلام :

و بينما أكبر دول الأرض اذ ذاك قد بلغ منهما الجهد والإعياء مبلغه ، وتضعضعت فيهما أسباب القوة المـادية من زراعية وصناعية وتجارية ؛ وقل عدد سكانهما وفنيت أكثر جيوشهما المدربة ، وتطلع ملوكهما الى سلم طويل يعيـد الى البلاد شيئا من سابق الثروة والقوة ، بينما الفرس والروم كذلك إذ وصلت إلى كل منهما سـنة ٦٢٨ رسالة من شخص غير معروف لهما يدعوهما فيها الى الإيمـان بدين جديد . أما الامبراطور "هرقل الأول" فأحسن مقابلة الرسول ، وأما كسرى فغضب ومزق الرسـالة ورمى بها فى وجه حاملها . وما تلك الرسالة سوى رسالة الإسلام لصاحبها محمد عليه الصلاة والسلام .

العرب قبيل الاسلام

بلاد العرب ، جغرافيتها وحالتها الطبيعية :

بلاد العرب شبه جزيرة واسعة تمتد من بادية الشام شمالا إلى المحيط الهندى جنوبا ، ومن البحر الأحمر غربا إلى الخليج الفارسى وخليج عمان شرقا ، وتنقسم إلى عدة أجزاء متباينة يختلف بعضها عن البعض الآخر من حيث التربة والمناخ والسكان ، وأهمها الحجاز وينحصر بين البحر الأحمر وسلسلة الجبال المحاذية له . ونجد وهو الهضبة الوسطى من شبه الجزيرة . وفى الزاوية الجنوبية الغربية توجد اليمن ، ويطلق اسم تهامة على سهول اليمن والحجاز ، وقد يقصر هذا الاسم أحيانا على جنوب الحجاز ، وتقع حضرموت شرقى اليمن على شاطئ المحيط الهندى ، وعمان شرقى حضرموت وتوجد الأحساء والبحرين على خليج فارس .

وليس بجزيرة العرب أنهار صالحة للملاحة ، إنما يوجد نهيرات وسيول قليلة مبعثرة تجف حينا وتجرى حينا فتخصب التربة حولها ، ويندر المطر بهذه البلاد وهى لهذا قاحلة ، اللهم إلا حول الأمواه ، حيث الخصوبة موفورة كما هو الشأن فى وديان اليمن حيث يزرع البن والنيلة والنخيل وأشجار الفاكهة بأنواعها وحيث الجو مائل إلى البرودة شتاء .

أما الحجاز فكثير الانجاد والوهاد ، ولا سيما حول مكة حيث تسطع أشعة الشمس المحرقة على صخور وعرة ووديان مقفرة ، قليل كلؤها ضئيل حيوانها ، إلا أنه إلى الشرق من مكة يوجد "الطائف" بنقله وأشجاره الضئيلة من تفاح وتين ورمان وعنب .

أثر طبيعة البلاد فى أهلها :

ولما كان أكثر هذه البلاد صحراء جدباء ، يصعب التنقل بين فيافيها القليلة الماء والمؤن والمدن ، وكان جوها على العموم قاريا ، لم يجرؤ المهاجمون على التوغل فيها فتمتع أهلها بالحرية والاستقلال أكثر عصورهم ولم تقم بينهم حكومة مركزية يخضع لها جميع السكان ، بل كانت القبيلة هى الوحدة السياسية والاقتصادية . تدافع عن كرامتها وتقوم بحاجاتها وتخضع لحكومة أبويه يرأسها الأكبر سنا أو الأرجح عقلا ، لا يقطع أمرا دون أن يتعرف رأى وجوه قومه ، وقد أدت قلة خيرات البلاد إلى تشاحن القبائل المختلفة على امتلاك الوديان الخصيبة والواحات اليانعة ، فكانت الحرب سجالا وبقى تنازع البقاء بين القبائل قائما على قدم وساق حتى جاء الإسلام .

أصل العرب :

ويقال إن أول من نزل ببلاد العرب قوم من أصل كلدانى أسسوا حضارة لا تزال آثارها باقية باليمن ، وقد قضى على هؤلاء قبائل من الجنس السامى جاءوا مما يلى الفرات شرقا ونزلوا بحضرموت واليمن وهم بنو قحطان ومن نسلهم "يعرب" الذى سميت البلاد وأهلها باسمه . ثم جاء بنو اسماعيل ابن ابراهيم عليهما السلام ، فنزلوا فى الحجاز وبنوا الكعبة التى كانت ولا تزال أقدس بقعة عند العرب وسائر المسلمين .

وينقسم العرب عامة إلى حضر يقيمون فى المدن ، وبدو يسكنون الخيام ويهيمون فى الصحارى والهضاب انتجاعا للرعى . وكان عرب الطرف الشمالى الغربى على اتصال بالرومان . كما أن أهل الطرف الشمالى الشرقى كانوا متصلين بالفرس ، أما اليمن فاستولت عليها الحبشة حوالى سنة ٥٠٠ م ثم طردها سيف بن ذى يزن بمساعدة الفرس الذين بقوا يحكمونها إلى أن بادت حضارة اليمن فى أوائل القرن السابع .

الدين :

وقد بقى اليهود والمسيحيون الذين دخلوا بلاد العرب على دينهم . أما العرب أنفسهم فكانوا يعبدون الأوثان والنجوم ، لكل جهة ولكل قبيلة آلهة ، وكانت الكعبة مركز عبادتهم جميعا وبها أصنام تمثل آلهة القبائل المختلفة وتقدم لها القرابين حتى من بنى الإنسان .

أسواق العرب :

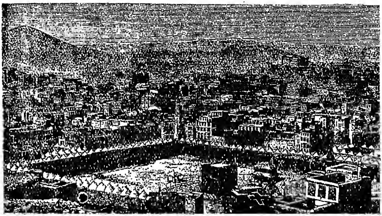
ولما سئم العرب استمرار القتال جعلوا أربعة أشهرحرما ، وهى (ذوالقعدة وذو الحجة والمحرم ورجب) تبطل أثناءها المنازعات وتحقن الدماء ، واستعملوا هذه الفرصة لتبادل المتاجر وعقدوا أسواقا كعكاظ وذى المجاز للمباراة فى ميدان الفصاحة شعرا ونثرا ولتوزيع الجوائز على النابغين. فتقاربت أفكار العرب ولهجاتهم وأخذت لغة قريش تسود غيرها حتى نزل القرآن بها وأصبحت اللغة الأدبية والرسمية .

ظهور قريش :

واشتهر من بنى إسماعيل قريش فى القرن الثالث . وعلت منزلتهم بين العرب ثم ظهر من بينهم " قصى " فى القرن الخامس ، فساد مكة ثم الحجاز كله ، وأعاد بناء الكعبة ، وابتنى قصرا أطلق عليه دار الندوة ، تجتمع فيه رؤساء القبائل أيام الموسم للتشاور فى أمور العرب كافة . ونظم " قصى " الحكومة وجمع الضرائب وأعد الطعام والشراب للحجاج ، وورث عنه أبناؤه منزلته ووظيفته إلى أن وصلت إلى هاشم ثم إلى ابنه عبد المطلب سنة ٥٢٠ م ولم يكن لبنى هاشم منافسون سوى بنى أمية وهم أحفاد عبد الدار أحد أخوة " قصى " فحسدوا بنى هاشم على رفيع مكانتهم وحاولوا انتزاع حكم مكة منهم فأخفقوا فى مسعاهم. وبقى عبد المطلب يحكم مكة نحو تسع وخمسين سنة .

عام الفيل :

وفى عهد عبد المطلب أرسلت الحبشة جيشا إلى مكة بقيادة "أبرهة" وكان معه بضعة فيلة فوصل مكة عام ٥٧١ الذى اشتهر بعام الفيل ، فوقع الرعب فى قلوب العرب لأنهم لم يألفوا الغزو الأجنبى ولم يكن لهم علم



مكة المكرمة

باستعمال الفيلة فى الحروب ، فاستجار عبد المطلب بالكعبة وما لبث أن ارتد "أبرهة" على عقبيه لتفشى المرض فى جيشه ولهطول مطر وبرد اكتسح الوادى الذى كان يعسكر فيه جيش الحبشة[1] ولعظم وقع هذا الحادث فى نفوس العرب صاروا يؤرخون به .

---

(١) سورة الفيل .

السيرة النبوية

نشأة النبي :

كان لعبد المطلب أبناء و بنات كثيرون اشتهر منهم أبو طالب والعباس وحمزة وأبو لهب وعبد الله . وكان عبد الله أصغر إخوته تزوج بآمنة بنت وهب ومات في الخامسة والعشرين ، و بعد موته بأيام وضعت آمنة سنة ٥٧١ ولدا أسماه جده "محمدا" وسلمه إلى حليمة السعدية لترضعه فنشأ معها في الصحراء حتى بلغ السادسة حين ماتت أمه ، فكفله جده عبد المطلب فلما مات سنة ٥٧٩ كفله عمه أبو طالب الذى خلف أباه في رياسة مكة ولم يكن ثريا كأسلافه فقام بنوه وابن أخيه برعاية الغنم فكان النبي يفخر بذلك و يقول "مامن نبي إلا وقد رعى الغنم" .

ثم سافر محمد وهو صبي مع عمه إلى الشام فزاد علمه بالناس وحالهم وما كانوا عليه إذ ذاك من انحطاط في الأخلاق وانقسام في الدين .

زواجه من خديجة :

ولما بلغ محمد أشده قام بتجارة لخديجة بنت خويلد وكانت أرملة من أغنياء قريش وأشرافها، فربح أرباحا وفيرة وعرفت فيه خديجة الدقة والأمانة فتزوجت منه بعد أن رفضت التزوج من أشراف العرب . وكان عمره إذ ذاك خمسا وعشرين سنة وعمرها أربعين فولد لها ثلاثة أولاد ماتوا أطفالا وثلاث بنات عشن حتى رأين عظمة أبيهن وتزوجت صغراهن "فاطمة الزهراء" من على بن أبي طالب . .

حياته قبل البعثة :

قضى محمد بعد زواجه خمسة عشر عاما في حياة هادئة بمكة، عرف أثناءها بحلاوة شمائله وطهارته و إخلاصه وحبه للواجب وأمانته ، حتى لقب "بالأمين"، وظهر شأنه حين شرعت قريش في إعادة بناء الكعبة واختلف

أشراف مكة أيهم يضع الحجر الأسود فى مكانه فحكم بينهم وأرضاهم بأن وضع الحجر فى ردائه وطلب إلى رؤساء القبائل جميعا أن يرفعوا الرداء .

وكان محمد عليه الصلاة والسلام يحب العزلة و يكره الملاهى ولا يشترك مع الجاهلية فى أعيادها واجتماعاتها وكان أميا ولا يقول الشعر ، وكان يعمد الى غار "حراء" بالقرب من مكة يقيم فيه شهرا كل سنة متعبدا مفكرا .

البعثة :

فبينما هو كذلك مرة إذ نزل عليه الوحى وشعر أن مناديا يقول له : اقرأ ، فقال ما أنا بقارئ، فكررها عليه مرتين ثم قال" اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم " فارتجف قلب النبى خوفا ورجع الى خديجة وأخبرها بما سمع ، فصدقته وأخذته الى ورقة بن نوفل فقال : "هذا الناموس الذى أنزل الله على موسى " فقام عليه السلام ينشر الدعوة سرا بين آله وصحبه فآمنت به خديجة ثم آمن على وأبو بكر وعمر وحمزة وعثمان .

إيذاء قريش للنبى :

ولما علمت قريش بدعوة النبى سخروا منه فلما رأوا قوة تمسكه بدعوته وشدة مراسه شكوه الى عمه أبى طالب فنصح له ، فقال رسول الله "والله ياعمى لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر مافعلت حتى يظهره الله أو أهلك دونه"، فجعلت قريش تؤذيه واشتد الإيذاء بعد موت عمه أبى طالب وزوجه خديجه ، و بعد أن صارت زعامة مكة لأبى سفيان بن حرب بن أمية فتحدّته قريش بأن يأتى بالمعجزات فنزل قوله تعالى "سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا "، وجعل الرسول يتلو عليهم القرآن وهو من أقوى معجزات النبى صلى الله عليه وسلم ، و بلغ من غلو قريش فى العناد والجحود أن قالوا بلسان القرآن " اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم " .

الهجرة سنة ٦٢٢ م :

عند ذلك يئس النبي من كفار مكة وأمر أصحابه بالهجرة الى الحبشة ثم قصد "الطائف" فلم يلب الناس دعوته فعوّل على نشر ما أمر به فى موسم الحج فآمن به جماعة من أهل يثرب وتعاهدوا على حمايته اذا هو انتقل الى مدينتهم . فأرسل بعض أصحابه اليها ، ثم ترك عليا فى فراشه وهاجر هو وأبو بكر ليلة دبر الأعداء قتله سنة ٦٢٢ م وهى أول التاريخ الهجرى فلما وصل اليها قابله أهلها بالبشر والترحاب(١) .

مركز النبي صلى الله عليه وسلم فى المدينة :

لما استقرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيثرب سماها المدينة و بنى مسجدا عمل فيه بنفسه ومحا العداء بين الأوس والخزرج ، وهما أشهر قبائل المدينة وكانت الحرب بينهما سجالا ، بتسميتهم جميعا الأنصار وآخى بينهم و بين المهاجرين فعاشوا على وفاق بفضل قوة الجامعة الجديدة وحث على الإخاء والرفق بالأطفال واليتامى والأرامل والأرقاء والحيوانات .

الجمهورية فى المدينة :

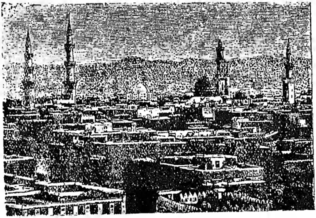
ولم يكن ببلاد العرب فى ذلك الوقت قانون أو نظام عام ، بل كانت البلاد فى نزاع دائم ، وفوضى شاملة ، فبدأ النبي بوضع نظام ثابت لهذه الجمهورية الصغيرة ونشر عهدا لمنع الترات ووقف الشحناء، وساوى يهود

---

(١) استقبله أهل المدينة وهم يترنمون بالأنشودة المعروفة حسب رواية بعضهم :

طلع البدر علينا ... من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ... ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا ... جئت بالأمر المطاع

المدينة وما حولها بالمسلمين فى الحقوق ، وتعهدوا بالاشـتراك فى الدفاع عن المدينة .



المدينة المنورة

الغزوات :

وقد اغتاظت قريش لفرار محمد وأصحابه وحقدوا على أهل المدينة إيواءهم المسلمين وتهددوهم فكان لا بد من الاستعداد للدفاع ، وبهـذه الظروف أصبح رسول الله ، لاداعيا الى الدين فحسب ، بل رئيسا لحكومة المدينة وقائدا لجيشها . وقد أدّى دفاع المسلمين عن أنفسهم الى سلسلة من الغزوات بهـا انتشر الإسلام بسرعة لم تعهد فى التاريخ ، وقد اشترك النبى صلى الله عليه وسلم فى تسع منها .

بدر :

وكانت قريش ترى أن محمدا وأصحابه إنما هم شرذمة من الثوار يجب قتلهم ولا سيما بعد أن صارت لهم القوّة فى المدينة وهى على طريق التجارة الى الشام ، فجـدّ المسلمون فى مهاجمة قوافل مكة ونالوا أول انتصار لهم فى السنة الأولى بعـد الهجرة فى غزوة "بدر" على بضعة أميال من المدينة وقد أحسن المسلمون معاملة الأسرى .

أُحد :

انقضت السنة الثانية فى هدوء بوجه عام إذا صرفنا النظر عن هجمات شنها أهل مكة على المدينة، فلما كانت السنة الثالثة جمع أبو سفيان بن حرب ابن أمية — عدو بنى هاشم — جيشا يبلغ ثلاثة آلاف هزم بهم المسلمين على سفح جبل "أحد" ولكنه لم يستطع التقدم الى المدينة لكثرة خسارته .

غزوة الأحزاب :

بعد أن ضمدت قريش جراحها جمعت حلفاءها وهاجمت المدينة بعشرة آلاف فجمع النبى أعوانه وحفر خندقا حول جزء من المدينة، واعتمد فى الدفاع عن الجهة الجنوبية على حلفائه من اليهود وهم " بنو قريظة " ولكن هؤلاء انضموا الى الأعداء وضيقوا الخناق على المسلمين مدة ، حتى ظهر كأن العوامل الطبيعية تحارب مع المحصورين إذ هبت عواصف ممطرة قتلت كثيرا من خيل الكفار وقللت من مؤنهم فتفرق شملهم [1] .

المسلمون واليهود فى المدينة :

ولما نكث بنو قريظة عهدهم وانحازوا الى الأعداء رأى المسلمون أنهم لا يأمنون على أنفسهم مادامت هذه القبيلة قريبة منهم فطلبوا اليهم الارتحال فأبوا ، فقاتلوهم وقتلوا منهم خلقا كثيرا . وكان المسلمون قبل ذلك يعطفون على اليهود و يولون وجوههم شطر أورشليم (بيت المقدس) فى صلاتهم ، فاخذ النبى بعد هذا يقلب وجهه فى السماء يريد قبلة يرضاها فأمر أن يولى وجهه شطر المسجد الحرام . وفى هذا إرضاء واستمالة للعرب الذين كانوا يخشون على مركز مكة بعد ظهور الإسلام .

---

(١) سورة الأحزاب .

عهد النبي الى النصارى :

وفى السنة السادسة أعطى النبي عهـدا للرهبان خاصة وللمسيحيين عامـة المقيمين فى بلاد العرب أن يدفع عنهم الأذى ويحمى كنائسهم وألا يطرد أسقفا من أسقفيته ولا يكره أحدا منهم على ترك دينـه ، ولا يخرج راهبا من ديره . وأن يساعدهم على إصلاح كنائسهم وأديرتهم ونزل قوله تعـالى "لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهـم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون" .

رسل النبي إلى الملوك :

كذلك أرسل النبي رســلا إلى ملك فارس وإمبراطور الدولة الرومانيـة الشرقية وإلى النجاشي بالحبشة وغيرهم ، يدعوهم إلى الإسلام فمزق ملك فارس الخطاب وأحسن أمبراطور الروم مقابلة الرسول وأرسل حاكم مصر من قبل الروم هدية وجاريتين إحداهما مارية وقد أسلمت وتزوجها النبي صلى الله عليه وسلم فكانت أم ابنه ابراهيم .

فتح مكة :

وفى السنة السابعة عقد مع أهل مكة هدنة على إخلاء بلدهم حتى يتمكن المسلمون من الحج ففعلوا ، وحج المسلمون وعادوا إلى المدينة إلا أنه بعد ذلك انقض أهل مكة على قبيلة محالفة للمسلمين وقتلوا كثيرا منها فاستجارت القبيلة بالنبي ، فسار إلى مكة عام ٦٣٠ م فى عشرة آلاف ودخلها بدون مقاومة ومن أسباب ذلك أن قائدين عظيمين من قريش كانا قد أسلما وهما خالد بن الوليد وعمرو بن العاص فأصبحت مكة تحت رحمته قبل أن ينقضى ثمان سنين على فراره منها ليلا ، فعفا عن أهلها،ولكنه دخل الكعبة وجعل أصحـابه يحطمون الأصنام وهو يتلو "جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا" وبذلك أسلم أهل مكة وعلى رأسهم أبو سفيان .

عام الوفود :

كان من أثر فتح مكة أن جاءت وفود القبائل أفواجا تطلب اعتناق الاسلام فكان النبي يكرم مثواهم ، ويرسل معهم من يرشدهم ويعلمهم ويتولى أمرهم .

حجة الوداع :

فلما انتشر الإسلام فى جزيرة العرب أحسّ رسول الله أن مهمته قد انقضت وعزم على أداء الحج كاملا حتى لا يخطئ فيه أحد ، فدخل مكة فى ٨ ذى الحجة سنة ١٠ هـ (٧ مارس سنة ٦٣٢ م) وقبل أداء الفريضة اعتلى جبل عرفات وخطب خطبة الوداع الخالدة ومنها :

"أيها الناس ! إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم ، إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا . ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد . ان ربا الجاهلية موضوع ، وان دماء الجاهلية موضوعة ، وان مآثر الجاهلية موضوعة ، غير السدانة والسقاية . وإن لنسائكم عليكم حقا . . . فاتقوا الله فى نسائكم واستوصوا بهن خيرا . . . أيها الناس ان ربكم واحد ، وان أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم ، ليس لعربى فضل على عجمى إلا بالتقوى . ألا هل بلغت ؟ فليبلغ الحاضر منكم الغائب" ثم نزل قوله تعالى "اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا" .

ثم مرض النبي فجعل يوصى أصحابه بالتقوى والمحافظة على الدين حتى ثقل عليه المرض فقابل ربه وسنه ثلاث وستون سنة قمرية ، فى يوم الاثنين ١٣ ربيع الاول سنة ١١ هـ ٨ يونيه سنة ٦٣٢ م ولم يترك بعده من أبنائه إلا فاطمة الزهراء .

أعمـــال النبي صلى الله عليه وسلم وأخلاقه :

يحسن تقسيم حياته إلى ثلاثة أدوار متباينة : الأول دور التعبد والنسك حين كان يقيم فى الغار منعزلا عن أهل مكة ، لا يشاطرهم لهوهم وسرورهم وعرف بينهم بالنزاهة والصدق والأمانة حتى لقبوه جميعا "بالأمين" .

والدور الثانى قيامه صلى الله عليه وسلم بنشر رسالته سرا وجهرا وقد لاقى فى سبيل ذلك من السخرية والاضطهاد ما لاقاه الأنبيـاء من قبل . فتذرّع بالجلد والصبر ، ولم يتزعزع ايمانه ولا إيمان أتباعه على قلة عددهم بل ضحوا بكل شيء لاعلاء كلمة الحق وزادوا يقينا كلما زادتهم قريش إيذاء .

ولمـا يئس النبي وأتباعه من النجاح فى مكة هاجروا الى المدينة ، وبدأ الدور الثالث من حياة رسول الله ، واضطر هو وأصحابه أن يقفوا موقف الدفاع، وأن يستعدوا لصد غارات قريش.وزاد عدد المسلمين بعد الهجرة فكوّنوا جيشا يتوقد غيرة وحماسة،ويشرئب للجهاد نصرا للرسول وللاسلام فصار النبي حاكما وقائدا ، وأظهر مهارة عظيمة فى ادارة شؤون الجمهورية الجديدة وقيادة جيوشها ، فكان يخرج بنفســه للقتال ويتعرّض لأخطـار الحرب وكان مثالا عاليا لرباطة الجأش والاستبســال ، فتوالت انتصاراته ، ودانت له شبه جزيرة العرب بأكلها ، وبدأ الإسلام ينتشر فيما وراءها .

ولقد كان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أكرم الناس خلقا متواضعا حليما كريما شهما غيورا مقداما جلدا بعيد النظر عادلا متسامحا ، ولقد أجمل القرآن وصفه صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى " وانك لعلى خلق عظيم " .

أثر الإسلام فى العرب :

لقد كان لظهور الإسلام فى بلاد العرب أثر عظيم فى أخلاقهم وعاداتهم، فقضى على المنازعات والحروب الداخلية وأصبح للعرب حكومة واحدة ورئيس واحد يسهر على مصالحهم ويقيم العدل بينهم . وهذا هو أول عهد العرب بحكومة منتظمة فى بلادهم . ثم ان الإسلام هذب أخلاق العرب وقضى على العادات الذميمة التى كانت شائعة بينهم كالوأد والأخذ بالثأر والمهاجاة والخمر والميسر والطِيَرة فاعتدلوا فى معيشتهم وسلوكهم ، ونظروا فى اصلاح أحوالهم وترقية تجارتهم ، وبالاختصار تهيأ العرب لاستقبال عهد الفتوح والمدنية الاسلامية .

عصر الخلفاء الراشدين

لما مات النبى لم يصدق الناس الخبر وتسرب الشك والارتياب الى نفوس العامة ، واستبعدوا أن يقع سيدنا محمد تحت تأثير القوانين الطبيعية مثل غيره من البشر، وأن يكون هذا الشخص الذى أحدث هذا الانقلاب العظيم فى التاريخ بشرا يجوز عليه الموت .

ظل الشك والارتياب فى أذهان الناس مدة ظهر فى أثنائها عمر بن الخطاب وفى يده السيف يهدد الذين يؤكدون موت النبى قائلا "ان رجالا من المنافقين زعموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توفى ، وانه والله ما مات ولكنه ذهب الى ربه كما ذهب موسى ، والله ليرجعن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقطع أيدى رجال زعموا أنه مات" فلما جاء أبو بكر وتأكد من موت الرسول خطب فى الناس خطبته المعروفة التى يقول فيها "أيها الناس من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله

فان الله حيّ لا يموت". ثم تلا الآية "وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم" وذكر الآية أيضا "إنك ميت وانهم ميتون" فخف الهرج والمرج من بين الناس وتحققوا خبر موت الرسول ورفعوا أصواتهم بالعويل والنحيب وكان عمر أكثرهم بكاء وتأثرا .

لمن تكون الخلافة ؟

ثم بحث الناس فيمن يخلف النبي فانه قد مات ولم يعين له خليفة ، بل ترك الأمر شورى بينهم حسب العادة المتبعة عند العرب . فتشعّبت الآراء الى ثلاث شعب : فقال الأنصار بجعل الخلافة انتخابية من غير شرط وقال فريق بجعل الخلافة فى آل محمد . وقالت الأكثرية من المهاجرين بمبدأ الانتخاب بشرط أن يكون الخليفة من قريش .

خلافة أبى بكر

(١١ — ١٣ هـ ، ٦٣٢ — ٦٣٤ م)

وكان النبي أثناء مرضه قد عهد الى أبى بكر أن يصلى بالناس ويعد هذا اعترافا منه بكفاية أبى بكر للرياسة بعده ، وقد كان أبو بكر أكبر الصحابة سنا وفضلا ، ولا يخفى أن العرب كانوا ينظرون الى كبر السن كعامل مهم فى اختيار رؤسائهم . لهذا ، ولما عرف به أبو بكر بينهم من شدة غيرته على الإسلام وكثرة تجاربه — بايعه عمر خليفة للنبي وبايعه الناس جميعا بعده . وبهذا قضى على الشقاق الذى قام بين المهاجرين والأنصار عقب وفاة النبي ، وفاز المذهب القائل بوجوب جعل الخلافة انتخابية بشرط أن يكون الخليفة من قريش. وقد خطب أبو بكر فى الناس خطبته المعروفة التى يقول فيها " أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم فان أحسنت فأعينونى ، وان أسأت فقوّمونى" .

الردة :

وما كاد ينتشر خبر وفاة النبي حتى ارتدت بعض القبائل العربيـة عن الاسـلام وقام كذابون يدّعون النبوة و يحاربون المسلمين ، ومن هؤلاء طليحة الأسدى ومسيلمة الكذاب . وهؤلاء الذين عادوا الى الشرك قليلون . أما أكثر العرب فقد بقوا على الإسلام ولكنهم امتنعوا عن تأدية الزكاة إذ عدّوها اتاوة وجزية لا يدفعها إلا الذليل المغلوب على أمره .

وترجع سرعة ارتداد بعض العرب عن الإسلام وامتناع أكثرهم عن دفع الزكاة الى الأسباب الآتية :

(١) أن الإسـلام كبح جماح شهوات العرب وأتى بشدة لا قبل لهم باحتمالها كتحريم الخمر والميسر والأخذ بالثأر وتقييد حرية الزواج .

(٢) أن الإسلام كان يحتم جمع الزكاة وهذا من الأسباب الاقتصادية التى دعت الى ارتداد العرب ، وقد عدوا الزكاة جزية لايدفعها الا المغلوب على أمره .

(٣) أن الإسلام أوجد حكومة واحدة وسيدا واحدا يجب على العرب الخضوع له وهذا ما لم يعتده العرب . اذ كانوا يعتدون بالحرية الشخصية ولا يقدرون ما نسميه الآن الحرية المدنية .

على ذلك عاد الإسلام الى سابق مركزه . فصار يدافع المسلمون عن أنفسهم وحياتهم . ووقفت المدينة تجاهد كما جاهدت أيام النبي ولم يبق معها الا الطائف ومكة ، وفى هذا الظرف العصيب أظهر المسلمون غيرة وتفانيا فى خدمة الدعوة الإسلامية كما أظهروا ذلك فى مدة النبي . وبحسن تدبير أبى بكر ومن ساعده من قواد العرب المشهورين — وأولهم خالد بن الوليد الذى قضى على طليحة الأسدى ثم على مسيلمة فى اليمامة — خضعت شبه جزيرة العرب وعاد الاسلام الى القوة التى كان عليها أيام النبي صلى الله عليه وسلم .

الفتوح الاسلامية

وكان النبي قبل وفاته قد أعد حملة بقيادة "أسامة بن زيد" لمعاقبة بنى غسان لتجرئهم على قتل رسول النبي اليهم . فرأى أبو بكر أن من مصلحة الإسلام أن يواصل العمل فى تجهيز هذه الحملة ليعتقد العرب أن الإسلام قوة تصعب مقاومتها . وعلى ذلك خرجت الحملة نحو "بنى غسان" الذين كانوا من قبائل العرب ، وكانوا يدينون بالمسيحية و يعترفون للدولة الرومانية بالسيادة عليهم فكان ذلك مبدأ احتكاك العرب بدولة الروم .

فتح الحيرة :

وكذلك سير أبو بكر حملة نحو القبائل العربية الساكنة شرق نهر الفرات عند "الحيرة" — وتعرف هذه القبائل بقبائل "بنى تغلب" — وكانوا يدينون بالمسيحية أيضا ويحكمهم أمراء من العرب يخضعون لسيادة دولة الفرس الساسانية ، وبذلك بدأ احتكاك العرب بالفرس .

لما تم إخضاع العرب المرتدين فى شبه الجزيرة ، تهيأ الإسلام للفتوح الخارجية ، ووجدت القبائل العربية المتمردة فى هذه الحروب مجالا واسعا للغنيمة والظفر والاستشهاد ، فسار خالد بن الوليد والمثنى بن حارثة الشيبانى نحو الحيرة فسقطت فى أيدى المسلمين .

واقعة القادسية سنة ٦٣٦ م :

عند ذلك تنبه الفرس وخافوا انتصار هذه الأمة البسيطة الفتية . وكانت دولة الفرس الساسانية لا تزال قوية يمتد نفوذها فى وسط آسيا إلى حدود الصين والهند ، وتبسط سلطانها على العراق وخراسان و بلاد العجم والأقاليم

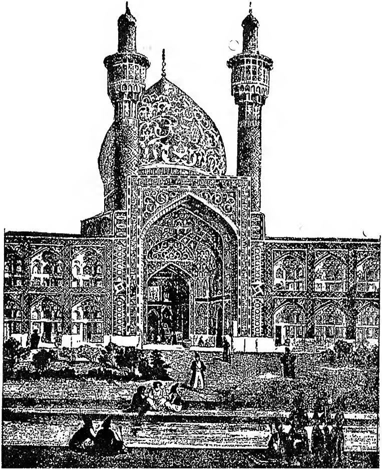
التى حول بحر قزوين . فالتفت الفرس للعرب وأخذوا يعدون العدّة لطردهم من "الحيرة" وردهم إلى بلادهم. وفى ذلك الوقت حدث انقلاب فى حكومة الفرس ، فاعتلى العرش الملك "يزدجرد" بجمع جيشا قويا عين على رأسه القائد الفارسى الشهير "رستم" واضطر العرب فى مبدأ الأمر إلى التقهقر لقلة عددهم ، وباتوا ينتظرون المدد من المدينة . وكان أبو بكر قبل وفاته قد أرسل خالد بن الوليد إلى الشام ، وعلى ذلك أرسل الخليفة عمر قوة تبلغ ثلاثين ألف جندى على رأسها "سعد بن أبى وقاص" وتقابل الطرفان فى واقعة "القادسية" سنة ٦٣٦ م واستمرت الواقعة ثلاثة أيام حمى فى أثنائها وطيس القتال وانتهت بهزيمة الفرس ، ويقال انه كان فى جيش الفرس بعض الفيلة وهذه أحدثت اضطرابا عظيما فى معسكرهم لما أصابها من سهام العرب .

ويعدّ هذا من الانتصارات الحاسمة سقطت على أثره بلاد العراق وما بين النهرين فى يد العرب ، وارتد الفرس إلى عاصمتهم "المدائن" فتبعهم سعد اليها وسقطت "المدائن" فى يده وبسقوطها سقطت حكومة الفرس ، وفر الملك "يزدجرد" شرقا وأخذ يحرض قومه على الالتفاف حوله فى "حلوان" فرأت العرب ضرورة القضاء على "يزدجرد" وحركته فساروا نحوه ودارت بينهما واقعة "نهاوند" سنة ٦٤٢ م . وفى هذه الواقعة هزم الفرس هزيمة نهائية ، ولم تبق لهم قوة فى البلاد، وفر "يزدجرد" إلى حدود الصين حيث قتل ، وفى هذه الحرب غنم المسلمون غنائم عظيمة وكان يوزع بعض الغنائم على الصحابة وبعضها على الجنود .

المسلمون فى فارس :

وعلى أثر ذلك أصبحت فارس وممتلكاتها ضمن دولة الإسلام ، وبنى المسلمون البصرة على خليج العجم ، وبنوا الكوفة على الشاطئ الغربى لنهر الفرات وأصبحت الكوفة مقر الحكومة بدل المدائن، واعتنق الفرس الإسلام واختلطوا بالعرب وصاهروهم وأصبحوا عنصرا إسلاميا هاما ويعرفون

عند قبائل العرب " بالموالى " وأسس العرب فى بلاد الفرس حكومة قوية مصلحة صانت الفلاحين من اضطهاد الأشراف وتركت لهم الأرض يزرعونها ، واهتمت بعمل إحصاء عام لكل محصولات البلاد .



مسجد بأصفهان

وأظهر العرب مع الشعوب التى خضعت لهم تسامحا وفرضوا على من لا يقبل الإسلام منهم جزية تشبه البدل العسكرى فى بلادنا فى الوقت الحاضر وفيما عدا ذلك لم يتدخلوا فى الشؤون الدينية .

خلافة عمر
(١٣ — ٢٣ هـ ، ٦٣٤ — ٦٤٤ م)

وقبل أن نتكلم على حرب العرب مع الروم يجب أن نذكر أن أبا بكر مات سنة ٦٣٤ م بعد أن تمكن بحسن تدبيره وبفضل مجهودات خالد ابن الوليد وغيره من قواد المسلمين أن يصونوا البلاد من خطر الردة، وأن يحتفظ بوحدة العرب ووحدة الإسلام، وهذا أعظم فخر لأبي بكر، وقبل أن يموت وصى بانتخاب عمر خليفة له لأنه رأى المسلمين فى حرب مع الدول الأجنبية إذ كانوا يحاربون الروم من جهة والفرس من جهة أخرى، فلو حدث أى انقسام داخلى بين العرب لساءت العاقبة. ولذلك انتخب عمر بدون معارضة وواصل الخطة التى سار عليها أبو بكر من قبل. وكان عمر من أقوى الصحابة شخصية وأعلاهم همة وأشدهم غيرة على الحق والإنصاف.

حرب العرب مع الروم :

كانت البلاد الواقعة غربى نهر الفرات (فلسطين وسوريا) خاضعة للدولة الرومانية الشرقية ، وكان بعض سكان هذه الأقاليم من عنصر عربى وجميعهم من الجنس السامى وعلى ذلك كانت تربطهم بالعرب الرابطة الجنسية .

حالة الدولة البيزنطية :

وكانت الدولة البيزنطية قد أنهكت قواها فى حروبها مع دولة الفرس الساسانية ، ولم تكن هناك روابط طبيعية تربط الدولة برعاياها ، فكانت الشعوب تئن من ثقل الضرائب التى كانت تجبيها الحكومة ، ومن الاضطهادات والانقسامات التى سادت مدة طويلة فى أنحاء الدولة . على أن الدولة البيزنطية كانت لا تزال لها آسيا الصغرى والشام ومصر وفلسطين وشمال

أفريقية وشبه جزيرة البلقان وجزائر فى البحر الأبيض، وكان فى مقدورها أن تعبئ جيوشا أكثر عددا من جيوش العرب . ولكن جيوشها لم تكن متجانسة ولا متفقة فى الشعور ولم تكن مندفعة بروح حماسى كالروح الذى كان يدفع العرب ، ومما يدل على كره الشعوب للحكومة الرومية أنها لم تحاول القيام ضد العرب أثناء فتوحاتهم بل على النقيض كانت تسهل الفتح عليهم فى بعض الأحوال .

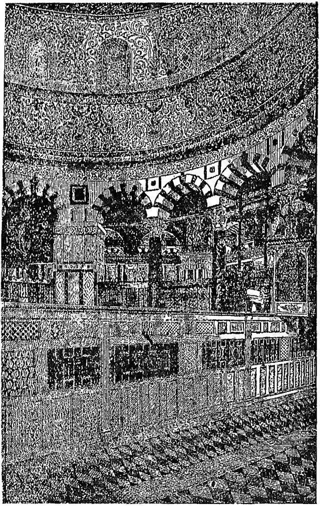
الحـــرب :

بعد عودة حملة "أسامة" جهز أبو بكر أربعة جيوش للزحف على سوريا وأهم هذه الجيوش ما كان بقيادة أبى عبيدة بن الجراح ووجهته حمص، والذى كان بقيادة عمرو بن العاص ووجهته فلسطين. ومجموع هذه الجيوش الأربعة خمسة وثلاثون ألف جندى .

واقعة اليرموك سنة ٦٣٤ م :

وجاء الامبراطور "هرقل الأول" ليرقب الحالة الحربية، وبلغ جيش الروم مائتين وأربعين ألفا . فرأى المسلمون ضرورة جمع قواهم وتوحيد قيادتهم برياسة أبى عبيدة ، وكان العدو قد اختار موضعا حصينا على نهر "اليرموك" وهو فرع من فروع "الأردن" ووقف عند انحناء فى النهر يسمى "واقوصة" فوقف المسلمون أمام العدو واستمروا على هذه الحالة حتى أرسل أبو بكر خالد بن الوليد من العراق لينضم إلى جيش أبى عبيدة، فأصبحت قوة العرب أربعين ألفا . وبقدوم خالد دارت المعركة وكانت القاضية على الروم ، ويرجع الفضل فى هذا الانتصار إلى مهارة خالد . وهذه أيضا من الوقائع الحاسمة التى كسبها العرب فلم يجدوا بعدها صعوبة فى فتح المدن الباقية كدمشق وانطاكية . وبينما كان أبو عبيدة الذى عينه عمر قائدا عاما — بدل خالد الذى قبل عن طيب خاطر أن يخدم تحت امرة أبى عبيدة — يفتح الشام ، كان عمرو بن العاص يفتح فلسطين ،

فانتصر على الروم فى واقعة "أجنادين" وكان انتصارا حاسما كواقعة اليرموك وعلى أثره فتحت غزة و يافا والرملة وصور .



داخل جامع عمر بالقدس

فتح القدس :

ولم يبق إلا بيت المقدس فقاوم البطريق مدّة أربعة أشهر، وأخيرا اشترط أن يحضر عمر بنفسه لتسلم القدس ، فجاء عمر بكل بساطة وتسلم المكان

بعد الاتفاق مع البطريق ، وعلى أثر هذه الانتصارات غادر هرقل الشام وأصبحت جبال "طوروس" الحد الفاصل بين ممتلكات الدولة البوزنطية وأملاك العرب .

فتح العرب لمصر

كانت مصر فى أواخر الحكم الرومانى — أو بالأحرى البيزنطى — يحكمها نائب عن الإمبراطور مقره الإسكندرية . وكان لهذا الوالى سلطة مطلقة فى الشئون الإدارية والمالية والحربية والقضائية إلا أنه فى الواقع لم يتمتع بهذه السلطة إلا فى اقليمه الخاص وهو العاصمة وما يلى فرع رشيد غربا . أما أقسام مصر الثلاثة الأخرى فكان يحكمها تحت اشرافه ثلاثة أدواق أو قواد لكل منهم فى إقليمه مثل سلطة الوالى تقريبا بحيث كان الدوق يرأس هيئة من الموظفين تنفذ الأوامر وتنجز الأعمال . وبعبارة صريحة كان كل إقليم حكومة صغيرة شبه مستقلة .

وكان أول واجب على الوالى وبقية الأدواق تحصيل الضرائب لإرسالها إلى القسطنطينية حتى يمكن القول إن الدولة الرومانية الشرقية ما كانت تحكم مصر إلا باعتبارها موردا ماليا .

مساوئ الحكم الرومانى :

وكانت الحكومة فى القسطنطينية تقرر فى كل سنة مقدار ما يجيء من مصر مراعية فى ذلك حاجة الإمبراطورية إلى المال من غير تفكير جدى فى حال مصر بالذات . وأثقل الضرائب وقعا القمح الذى كان يرسل سنويا إلى عاصمة الدولة ليوزع على سكانها إذ أن ذلك كان يحرم المصريين من جزء مهم من نتيجة كدهم ويلى ذلك الضرائب الجمركية وضرائب كانت تفرض على أرباب المهن، وضرائب كانت تفرض على الرءوس .

وكان كلما اشتدت حاجة الدولة الى المال زيدت الضرائب على أهل مصر واستعملت القوة فى تحصيلها حتى إن من كان يعجز عن دفعها يعاقب بالجلد والسجن وبمصادرة أملاكه .

ولم تكن كل الأرض تدفع الضرائب بالسوية بل كانت تعفى منها أوقاف الأديرة وهى إذ ذاك تفوق الحصر . ويعفى كذلك بعض كبار الملاك وبعض المدن أحيانا ، وبذلك وقع العبء على صغار المزارعين ونالهم من قوة المحصلين شىء كثير دفع بهم الى تسليم أرضهم إلى كبار الملاك مكتفين باستغلالها تحت حمايتهم . وبذلك نشأ ضرب من الأقطاع يشبه من بعض الوجوه الأقطاع الذى رأيته أيام الفراعنة على أثر ضعف الدولة القديمة .

الخلافات الدينية :

فمن الناحية الأقتصادية ، إذن ، حق للمصريين ان يشكوا سوء معاملة الروم لهم ، غير ان هذه الشكوى تتضاءل إذا قيست بالأحتقاد التى أثارها الخلاف الدينى إذ كان اهل مصر فى جملتهم على مذهب اليعاقبة يعتقدون أن المسيح عليه السلام له طبيعة واحدة بينما كان الروم والأجانب بمصر يدينون بازدواج طبيعة المسيح ويسمون الملكانيين أى خدام الملك . وكان لكل فريق بطريق خاص يقيم بالإسكندرية . واحتدم الخلاف بين الطرفين وأخذت الحكومة جانب الملكانيين وحاولت رد الإهليين عن مذهبهم وتفننت فى تعذيبهم .

وكان الإمبراطور هرقل الأول (٦١٠ — ٦٤١ م) يريد أن يوفق بين المذهبين فعين " قيرس Cyrus " وهو المعروف عند العرب بالمقوقس — بطريقا ملكانيا وخوله فى الوقت نفسه السلطة المطلقة على مصر كلها . فلما اجتمعت له السلطتان الروحية والزمنية رغب فى التفاهم مع « بنيامين » بطريق اليعاقبة فرفض " بنيامين " مفاوضته وآثر الفرار الى الصحراء حيث بقى الى ما بعد خروج الروم من مصر .

ولما أخفق قيرس فى التفاهم استعان بالجيش على اضطهاد الرهبان المصريين ومثل بهم تمثيلا لم تزل الأديرة تذكره إلى يومنا هذا .

ومن الغريب أن الحكومة التى كانت تزل برعاياها هذا الظلم الفادح لم يكن لها بالبلاد قوة حربية تذكر إذ كان الجيش موزعا على الحصون المهمة مثل بلوز والإسكندرية وبابليون وقفط وأسوان وكان يتراوح بين ٢٥,٠٠٠ و ٣٠٠٠٠ ولم يكن بالقطر قائد مسئول، بل كان الجيش يخضع — نظريا — لقيادة الجيوش الإمبراطورية بالقسطنطينية ، ويتصرف فيه عمليا الأدواق وفيهم الوالى . وما كان هؤلاء ليتفرغوا لتجويد الفنون الحربية وينقطعوا لحياة المعسكرات وهم مثقلون كما شهدت بالواجبات الأخرى، ومن أجل هذا أهملوا تدريب الجنود واكتفوا منهم بصد غارات البدو ومعاونة الشرطة فى جمع الضرائب وحفظ الأمن . فكأن الجيش لم يعد أن يكون جماعة من جند غير مدربين يشرف عليهم رؤساء عاجزون من الناحية الحربية وليس لهم فى القطر قائد أعلى يدبر شئونهم ويضع خطة شاملة للدفاع عن البلاد .

عمرو بن العاص وفتح مصر

على مثل هذه الحال رأى عمرو بن العاص مصر مذ كان يتجر فيها أيام الجاهلية وهكذا كانت حالها حين كان العرب يفتحون فلسطين والشام وكان عمرو بن العاص هذا قد انتصر على الروم فى موقعة "إجنادين" وتقدم ليساعد الجنود الإسلامية التى كانت تحاصر قيصرية . وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه قد حضر من المدينة ليتسلم بيت المقدس وتدبير أمور الفتوح الجديدة بمشورة قواده . وتنفيذا لهذه الفكرة كان عمر يعقد مجلسا للشورى قرب دمشق وقد انتهز عمرو بن العاص فرصة وجوده فى هذا المجلس فعرض على أمير المؤمنين فتح مصر ووصف له عظيم ثروتها وهون عليه أمرها وأشار بضرورة القضاء على حاكم الروم فى بيت المقدس وكان قد هرب من المدينة قبل تسليمها ولاذ بمصر .

فكر عمر مليا وتردد أولا لأن العرب لم يكونوا قد استقروا فى فتوحاتهم الجديدة ولقلة الجنود التى يمكن تسييرها إلى مصر، ثم كأنه تخوف أن يفجأه الروم من تلك الناحية فكتب إلى عمرو « أن اندب الناس إلى المسير معك إلى مصر فمن خف معك فسر به » فسار عمرو من غزة سرا وكان أمير المؤمنين قد بلغ المدينة واستشار عثمان رضى الله عنه فهول عليه فتح مصر ونبهه إلى أن جرأة عمرو قد تعرض المسلمين للتهلكة فكتب عمر إلى عمرو « إن أدركك كتابى قبل أن تدخل مصر فارجع إلى موضعك وإن كنت دخلت فامض لوجهك »

كتاب سيدنا عمر إلى عمرو :

فلما كان عمرو قرب العريش رأى رسلا يقبلون عليه ففطن إلى أنهم قد يحملون خبرا لايوافقه فسكت حتى وثق أنه فى مصر ثم دعا بالكتاب فقرأه على الجيش وقال "إذن نسير فى سبيلنا كما يأمرنا أمير المؤمنين" .

وكان عمرو بن العاص فى الخامسة والأربعين من عمره قصير القامة ، قوى البنية ، عليما بأفانين الفروسية ، حاد الذهن ، شجاعا وخطيبا بليغا . ولما وصل العريش لم يلق بها مقاومة وكان جيشه أربعة آلاف مقاتل جميعهم تقريبا فرسان يعتقلون الرماح ويتقلدون السيوف ويتأبطون القسى .

ومن العريش سار الجيش فى منتصف ديسمبر سنة ٦٣٩ بعيدا عن الشاطئ فى طريق القوافل المألوفة حتى بلغ "بلوز" ويسميها العرب "الفرما" (قرب بور فؤاد الحالية) وكانت حصينة كثيرة الآثار والكنائس فحاصرها العرب شهرا حتى سلمت وأحرق العرب السفن وهدموا الحصون فتخربت بعض الكنائس .

وقد انضم إلى عمرو عدد من البدو عوضوا عليه من قتل من جيشه أو زادوا قليلا ، فسار عن طريق الصحراء إلى قرب موضع القنطرة الحالية واجتاز وادى طميلات قرب التل الكبير ومن ثم وصل إلى بلبيس فحاصرها شهرا وفتحها العرب بعد قتال عنيف .

وبعد بلبيس قصد عمرو حصن بابليون وهو قلعة على الضفة الشرقية للنيل شيدها الفرس قديما أمام منف القائمة على الضفة الغربية واتخذها الروم معقلا لجنودهم لتوسطها بين مصر السفلى ومصر العليا ولأن الاسكندرية —وهى قاعدة حكمهم— لم تكن مركزا صالحا لمراقبة القطر كله . ويوجد حصن بابليون بمصر القديمة ويعرف الآن باسم قصر الشمع وفيه المتحف القبطى والكنيسة المعلقة . وكان مجرى النيل الذى يعبره الآن كوبرى الملك الصالح يتسع شرقا إلى أحد أبواب الحصن .

وبينما الجيش العربى فى طريقه إلى بابليون اعترضته حامية صغيرة فى قرية "أم دنين" — حيث يوجد حى الأزبكية — وكانت على الشاطئ الشرقى . وعند ذلك فقط تيقظ المقوقس وقائد جيوشه "تيودور" إلى خطر الغزو العربى وأرسل مددا من حصن بابليون إلى "أم دنين" واشتدت المقاومة حتى لم يدر الناس لمن تكون الغلبة . إلا أنه بعد بضعة أسابيع تم النصر للعرب ، وتركوا حامية "بأم دنين" .

ورأى عمرو أنه لا طاقة له بمهاجمة حصن بابليون قبل أن يصل إليه المدد الذى طلبه من أمير المؤمنين فعبر النيل فى قوارب صغيرة وقصد إقليم الفيوم لإشغال عسكره ريثما يحضر المدد — وقد استولى العرب على بعض قرى الإقليم وقبل أن يتمكنوا من فتح مدينة الفيوم سمعوا بمجىء المدد فعولوا على العودة ، وعجز الروم عن منع العرب من عبور النيل على الرغم من وجود حصن بابليون بأيديهم ومن استرجاعهم "أم دنين" . فالتقى عمرو بالمدد فى عين شمس وكان بها فى ذلك الوقت آثار متهدمة بقى منها إلى الآن إحدى مسلات "سن أوسرت الأول" المعروفة بمسلة المطرية — وكثير من الماء والمؤن . وكان المدد اثنى عشر ألفا يقودهم الزبير بن العوام والمقداد بن الأسود وعبادة بن الصامت وأمثالهم من صناديد العرب ممن طالت خبرتهم بالحروب .

وكان "تيودور Theodore" أمير الجيش الرومى يقود عشرين ألفا غير الذين فى الحصون وكان أكثر جنده رجالة من الرماة والرماحة فلما أحس قوته

عزم على مهاجمة العرب . وقسم عمرو جيشه إلى ثلاث فرق إحداها بقيت فى عين شمس تحت قيادته والأخريان تسللتا تحت جنح الظلام لتكون إحداها كمينا فى الجبل الأحمر شرقى العباسية ، والأخرى كمينا ثانيا عند "أم دنين" فلما هجم الروم على الفرقة الأولى انقض الكمينان على الجيش الرومى وجناحيه فدارت الدائرة على الروم وتعرف هذه الواقعة بموقعة عين شمس وقد حدثت فى منتصف يوليه سنة ٦٤٠ ومن نتائجها أن سلمت مدينة مصر بغير مقاومة وكذلك فعلت أم دنين و بعض مدن الريف وأهمها الفيوم واستطاع العرب حصر حصن بابليون من الشمال والشرق وكان للحصن أسوار شاهقة — مايزال جزء منها قائما ، يحف بها النيل من الغرب ويدور حولها خندق واسع من بقية الجهات .

وكان المقوقس داخل الحصن فى ذلك الوقت فأراد أن يعطى العرب مبلغا من المال نظير رجوعهم إلى بلادهم ، فلم يفلح ، فحاول أن يعاهدهم على الجزية بعد مضى شهر على بدء الحصار فرفضت الحامية وأصرت على رفضها إلى أن ضيق العرب الخناق عليها فرجعت إلى رأى المقوقس وطلبت اليه أن يعاهد العرب على دفع الجزية بشرط أن يبقى الحصن فى يد الروم حتى تجىء موافقة الإمبراطور هرقل الأول ولكن هذا لما علم بالخبر جزع جزعا شديدا واستدعى المقوقس الى القسطنطينية وأنبه ونفاه . وجدّ العرب فى حصار الحصن حتى سلم فى أبريل سنة ٦٤١ بعد أن استمر الحصار نحو ثمانية أشهر و يرجع ذلك إلى موت هرقل وما أحدثه من الأثر فى نفوس حامية الحصن كما يرجع إلى ماأبداه الزبير بن العوام من البسالة والتضحية .

مسالمة الأقباط للعرب :

رأى أهل مصر تسامح العرب فى الدين وقرنوه بما أصابهم على يد الروم من الاضطهاد وأعجبوا بما ناله عمرو من الانتصار المتكرر فلم يعودوا يمتنعون عن معاونته فى بناء الاستحكامات والقناطر ومساعدة جيشه فى الزحف من مكان إلى آخر .

ولما غادر الروم حصن بابليون جعل عمرو فيه حامية وضم إليها السفن عند الباب الغربى المشرف على النيل ثم عبرالنهر وسارشمالا محاذيا له ثم لفرع رشيد يريد فتح الإسكندرية وانتصر فى طريقه على من اعترضه من الروم .

ولما بلغ الإسكندرية كانت الامدادات قدتوالت عليه حتى صار جيشة عشرين ألفا . وكانت الإسكندرية مدينة عظيمة موفورة الأقوات والبحر مفتوح أمامها وبها خمسون ألف مقاتل . أما من ناحية البر فكانت تحوطها أسوار عالية متينة ركبت عليها مجانيق تقذف كتلا ضخمة من الحجارة .

وما أن رآها القائد العربى حتى قرر أن يرابط أكثر جيشه قرب أسوارها ليصدّوا الروم كلما خرجوا لمناجزتهم ، ويذهب هو ببقية الجيش لفتح بقية القطر . وقد اخترق الوجه البحرى مارا بسخا وأثريب (قرب بنها) ووصل فى مسيره إلى طيبة ثم عاد إلى حصن بابليون حيث وجد المقوقس قد عاد من القسطنطينية بتفويض تام لعقد الصلح مع العرب فاتفقا على شروط مبدئية ولما عاد عمرو إلى الإسكندرية تم الاتفاق نهائيا وكتب عقد تسليم العاصمة فى أواخر سنة ٦٤١ وأهم شروط الصلح ما يأتى :

(١) أن يدفع الجزية كل من رضى بالصلح .

(٢) أن تعقد هدنة لنحو أحد عشر شهرا يبقى العرب فى أثنائها فى مواضعهم على أن يعتزلوا وحدهم وأن يكف الطرفان عن القتال .

(٣) أن تخرج حامية الإسكندرية بمتاعها وأموالها .

(٤) ألا يأخذ المسلمون كنائس المسيحيين وألا يتدخلوا فى دينهم .

ولما انتهت الهدنة دخل العرب الإسكندرية وذهلوا لما رأوا من عظمتها واتساع عمارتها حتى رووا أنه كان بها ٤٠٠ مسرح و٤٠٠ حمام .

مكتبة الاسكندرية :

ومن الخطأ الشائع أن عمرا أحرق مكتبة الإسكندرية بأمر من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . والحقيقة أن المكتبة التى بدأت فى عهد بطليموس الثانى أحرقت سنة ٤٨ ق . م . على أثر إحراق قيصر أسطوله فيقول المؤرخ الرومانى « بلوتارك Plutarch » عن قيصر " ولما رأى أسطوله يقع فى يد عدوه اضطر أن يدفع الخطر بالحريق فامتدت النار من المراسى فى الميناء فأحرقت المكتبة " . ويكرر ذلك ويفصله غير بلوتارك من المؤرخين الأقدمين وهذا يثبت أن مكتبة الإسكندرية الكبرى أحرقت سنة ٤٨ ق . م .

وبعد هذه الحادثة بثمان سنين تجددت بالإسكندرية مكتبة أخرى إلا أنه فى أواخر القرن الرابع جعل المسيحيون يخربون المعابد الوثنية ومنها جامعة الإسكندرية حيث كانت الكتب وتم إعدامها عن آخرها سنة ٣٩١ م . وعلى فرض وجود المكتبة عند الفتح فإنه لا يعقل أن الرومان أغفلوا نقل الكتب أثناء الهدنة وهى أحد عشر شهرا . ولا يعقل أيضا أن العرب الذين كانوا يعتقون الأسير إذا علم عشرة من الصبيان الكتابة يحاربون العلم. وقد استفاضت البحوث الحديثة فى هذا الموضوع حتى اقتنع كل المؤرخين الذين يعتد برأيهم من أهل الشرق والغرب بأن قصة إحراق المكتبة لا أصل لها ولم تعد تستحق العناية بتفنيدها .

إتمام فتح مصر :

كان تسليم الإسكندرية آخر الفتح الرسمى ولكن إخضاع مصر تماما استغرق سنة أخرى فى أثنائها فتح العرب برقة وطرابلس وتقدموا إلى أقصى حدود مصر الجنوبية .

العاصمة :

كان عمرو يريد أن يتخذ الإسكندرية عاصمة له ، ولكن عمر أبى أن يفصل بينه و بين عاصمة مصر ماء وصادف ذلك هوى فى أفئدة أهـل مصر لأنهم كانوا يعتبرون أن الاسكندرية مدينة أجنبيـة و يكرهونها باعتبارها رمز التحكم الرومانى واضطهاد الكنيسة الملكانية . وانتهى الأمر بأن اختار عمرو السهل الواقع شمالى حصن بابليون حيث ضربت خيمته أثنـاء حصار الحصن وأنشأ فيه مسجده المعروف إلى الآن باسم جامع عمرو كما أنشأ العاصمة وسماها الفسطاط وقد نمت الفسطاط بسرعة وبلغ من وفورة العمارة بها ما أربى على عامة مدن المعمورة حاشا بغداد . و يمكن مشاهدة بقايا الفسطاط قرب جامع عمرو بعد أن كشف عنها الأثرى المصرى المرحوم على بك بهجت .

أسباب انتصار العرب :

ويدهش الإنسان إذ يرى العرب على قلة عددهم وفقر بلادهم ينتصرون على أكبر دول الأرض فى ذلك الوقت ، ولكن لذلك أسبابا يمكن تلخيصها فيما يأتى :

أولا — ضعف الروم والفرس :

ما رأيتم من الحروب الكثيرة التى قامت بين دولتى الفرس والروم منذ عهد جستنيان أى قبل مولد النبى صلى الله عليه وسـلم بنحو ثلاثين سنة ، وتجدد هذه الحروب بين حين وآخر حتى ليمكن القول بأنها بقيت سجالا أكثر من ثمانين سنة (٥٤٠ — ٦٢٨) . وتمتاز هذه الحروب الطاحنة بأن كلتا

الدولتين عاثت فيها جنود الأخرى من أقصاها الى أقصاها حتى اذا وصلت إلى كل منهما رسالة النبي صلى الله عليه وسلم كانت قد خرّت منهوكة القوى، خائرة العزيمة تتطلع إلى فترة سلم طويلة تضمد فيها جراحها وتستعيد قوتها، وبينا هما تقاسيان منتهى الأعياء إذا بأبى بكر وعمر يقذفانهما بهجوم عنيف يذهب بنصف دولة الروم ويفنى دولة الفرس عن آخرها .

ثانيا — كثرة الضرائب عندهم :

كانت نفقات الحروب وتكاليف الإدارة تضطر الفرس والروم على السواء إلى زيادة الضرائب على رعاياهم ، وكثيرا ما كانوا يختلفون عن الحكام فى الجنس والمصلحة ، فكانت الرعية لا تقاوم العرب فى فتوحهم بل تقف على الحياد حتى ترى لمن يكون الغلب ، وقد وجدت حالات فيها ساعد أهل الشام ومصر الفاتحين .

ثالثا — تقشف العرب :

إن فقر بلاد العرب عوّد أهلها وحيوانها الاكتفاء بالقليل من الزاد ، حتى ليحمل الجندى ما يكفيه وحصانه أياما بل أسابيع ، وما تزال الحال كذلك بين العرب إلى وقتنا هذا . أما الفارسى والرومى فيحتاج إلى كثير من المآكل والمشرب والملبس مما يستدعى نفقات طائلة ويشغل عددا من الجند فى الإشراف على التموين .

رابعا — الاضطهاد الدينى وتسامح الإسلام :

كانت دولة الروم منقسمة على نفسها فى المذاهب الدينية مما اضطر الحكومة إلى صرف كثير من جهودها فى محاولة التوفيق بين تلك المذاهب

ثم اضطهاد المخالفين بعد إخفاق تلك المحاولات . وكان أكثر أهل الشام ومصر على غير مذهب الحكومة فمنعتهم حرية العبادة ، وشتتت شمل قساوستهم .

وقد سمع المضطهدون بتسامح العرب فى الدين فارتاحوا لوجودهم بين ظهرانيهم .

خامسا — تعدد الأجناس فى جيوش أعداء العرب :

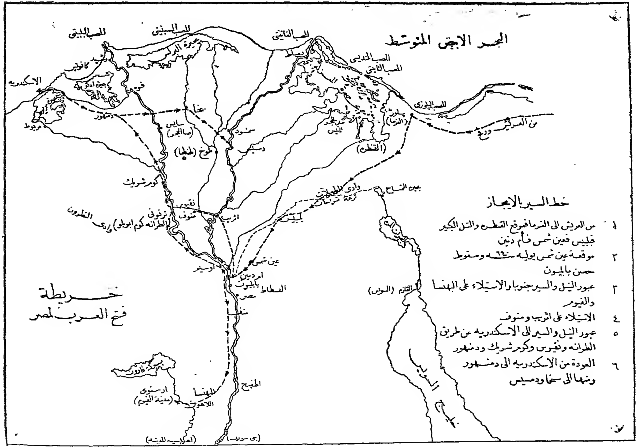
كانت الجيوش العربية متفقة فى الجنس واللغة والمشاعر يسهل التفاهم بين أفرادها . أما جنود الفرس والروم فكانوا من أجناس ولغات شتى ، وفيهم كثير من مرتزقة المتبربرين الذين قد تحلولهم الاستفادة من حدوث الفوضى فى البلاد التى يخدمونها أكثر مما يعنون بالتغلب على أعداء لا قيمة لأسلابهم .

سادسا — التحمس للدين :

كان العربى يخلص لدينه الإخلاص كله ، ويتفانى فى نشره ويسمى الموت فى سبيله استشهادا يدخله الجنة بغير حساب .

خاتمة عمر :

وكان عمر أول من أنشأ الديوان لضبط الإيراد والمنصرف وعين القضاة وجعل السلطة القضائية مستقلة عن السلطة الإدارية ، ووضع التاريخ الإسلامى مبتدئا من أول سنة قمرية جاءت بعد هجرة النبى صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة . وهو أول من سمى أمير المؤمنين وكان لا يشغله شاغل عن تدبير أمور المسلمين و إصلاح شؤونهم. وقد حقد عليه أبو لؤلؤة المجوسى فقتله وهو يصلى بالناس فى آخر سنة ٢٣ هـ — ٦٤٤ م .


خريطة
فتح العرب لمصر
البحر الابيض المتوسط
خط السير بالإيجاز
١ من العريش الى الفرما فموقع القنطرة والتل الكبير فبلبيس فعين شمس فأم دنين
٢ موقعة عين شمس يوليه سنة ٦٤٠ وسقوط حصن بابليون
٣ عبور النيل والسير جنوبا والاستيلاء على البهنسا والفيوم
٤ الاستيلاء على اتريب ومنوف
٥ عبور النيل والسير الى الاسكندريه عن طريق الطرانه ونقيوس وكوم شريك ودمنهور
٦ العودة من الاسكندريه الى دمنهور ومنها الى سخا ودميس
المصب البلبتي
المصب السبنيتي
المصب الفاتني
المصب المنديسي
المصب التانيتي
المصب البلوزي
الاسكندريه
رشيد
كانوبس
بحيرة البرلس
بحيرة ادكو
فوه
دمنهور
مريوط
سايس (صا الحجر)
سخا
سمنود
طوخ (طنطا)
كوم شريك
نقيوس
منوف
اتريب
ترنوتى (الطرانه كوم ابوبلو)
وادى النطرون
اوسيم
عين شمس
ام دنين
بابليون
الفسطاط
مصر
منف
بلبيس
وادى الطميلات
ترعة تراجان
بحيرة التمساح
بلوزيوم (الفرما)
(القنطرة)
من العريش ورفح
تانيس
القلزم (السويس)
البهنسا
اللاهون
ارسنوى (مدينة الفيوم)
بحيرة قارون
المنيج
(بنى سويف)
(اهناسيه المدينه)

خلافة عثمان

(٢٤ — ٣٥ هـ ، ٦٤٤ — ٦٥٦ م)

بعد أن طعن عمر لزم البيت من جراحته ودخل عليه المهاجرون يسألونه أن يستخلف عليهم فلم يقره ضميره على اختيار واحد . فاختار ستة وهم على وعثمان وطلحة والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص وعبد الرحمن بن عوف وأشرك ابنه عبد الله فى الرأى بشرط أن لا تكون له الخلافة . وأوصاهم أن يتشاوروا ثلاثة أيام يختارون فى أثنائها خليفة من بينهم . فاختار المجلس عثمان وكان من أحب المقربين إلى رسول الله ورعا لين الجانب، لم يكن له حزم أبى بكر وعمر ، ترك شؤون الحكومة فى يد أهله ولا سيما مروان بن الحكم كاتم سره .

استمرار الفتح شرقا :

وقد احتمل الناس على مضض السنين الست الأولى من خلافته وما ذلك إلا لتخوفهم من الانقسام فيما بينهم وهم معرضون لفتك الأعداء بهم ، إذ كان الأتراك يهددون الحدود الشرقية و يغيرون على ما فتحه المسلمون فاضطر هؤلاء لصد هذه الغارات ، وامتدّت الفتوح شرقا إلى بلخ وكابل وهرات . وكذلك قامت ثورة فى جنوب فارس ألزمت العرب أن يفتحوا كرمان وسجستان .

إنشاء أسطول فى بحر المشرق :

أما فى الشمال فقد أغارت الدولة الشرقية على سوريا فردهم عنها معاوية سنة ٦٤٦ وغزا الأناضول حتى قرب من شواطئ البحر الأسود، وفى السنة نفسها هجم الأسطول الرومانى على الإسكندرية واستولى عليها ولكن العرب استرجعوها ، فرأى معاوية ضرورة إنشاء أسطول ووافقه الخليفة على ذلك فأنشأ أسطولا ، وصار للعرب السيادة فى بحر المشرق .

النهضة الأدبية :

وبينما كانت جيوش الإسلام تتقدم شرقا وغربا اهتم العرب بالشؤون التجارية والعلمية فصححوا نسخ القرآن المتداولة، وعنوا بالقوانين الشرعية واللغة والفلسفة والمنطق . وكان أئمة هذه النهضة على بن أبي طالب وعبد الله بن عباس اللذين قاما بإلقاء محاضرات أسبوعية فى هذه الموضوعات بجامع المدينة .

ضعف عثمان :

ولما آنس العرب ضعف عثمان تجددت بينهم الانقسامات . وثارت القبائل تريد استرجاع حريتها الأولى ، بعد أن كبحت جماحهم شخصية النبي وهيبة وحزم أبى بكر وشدة عمر ، وزاد الطين بلة أن عثمان جعل يعزل الولاة الذين عينهم عمر ويحل محلهم رجالا أقل منهم كفاية من أهل قرابته ، فعزل عمرو بن العاص عن مصر وأقام بدله عبد الله بن أبى السرح .

أواخر حكم عثمان :

بدأت الأقاليم تشكو من جور الحكام الذين عينهم عثمان ، وذهبت الى المدينة وفود مصر والعراق وغيرهما وشكوا إلى الصحابة سوء تصرف حكامهم فقام على وغيره من كبار الصحابة بنصح الخليفة وإنذاره سوء المنقلب إذا هو لم ينظر فى الأمر ، فعين محمد بن أبى بكر عاملا على مصر وبينما هو فى الطريق إذ وقع فى يده كتاب بخاتم عثمان يأمر عامل مصر بالقبض على زعماء الوفد وقتل محمد بن أبى بكر، فعاد الوفد إلى المدينة وأنكر الخليفة الكتاب وقرّ عزم الوفود على مهاجمته ، وأرسل الصحابة أبناءهم وفيهم الحسن والحسين للدفاع عن عثمان . ولكن رجالا من الوفود تسلقوا الجدران وقتلوه، من غير أن يشعر المدافعون عنه، فى ١٨ ذى الحجة سنة ٣٥ هـ ١٧ يونيه سنة ٦٥٦ م . وقد أخذ على عثمان رضى الله عنه أنه أعطى خمس ريع أفريقية لمروان ، واتخذ أكثر الولاة من قرابته ، وترك شورى المهاجرين والأنصار .

خلافة سيدنا على
(٣٥—٤٠ ﻫ ، ٦٥٦—٦٦١ م)

معارضة بنى أمية :

بعد مقتل عثمان انتخب علىّ بالإجماع وبويع فى المدينة لمكانته وما له من حق الوراثة عن النبى ، فبدأ بعزل الحكام الذين علت منهم الشكوى ورد إلى بيت المال ما كان عثمان قد منحه لبنى أمية ، فعارضه هؤلاء منذ الساعة الأولى . وكان معاوية بن أبى سفيان قد حكم الشام نحو عشرين عاما وجمع حوله "مائة ألف فارس كل يأخذ العطاء مع مثلهم من أبنائهم وعبدانهم لا يعرفون عليا ولا قرابته" فأعلن العصيان واستعد لمقاومة على ، فتشجع غيره من بنى أمية وحلفائهم واتهموا عليا بالتقاعد عن نصرة عثمان . فنقض طلحة بن عبد الله والزبير بن العوام بيعة علىّ . وفرا إلى مكة واتفقا مع السيدة عائشة لما كانا يعلمان من طول بغضها لعلى .

موقعة الجمل :

ثم انتقل طلحة والزبير إلى الكوفة ولحقت بهما عائشة وجمعوا جيشا لمقاومة الخليفة، وقد بذل علىّ كل جهده لإقناعهم بالتسليم فأبوا. وحدثت واقعة الجمل بالقرب من الكوفة وفيها قتل طلحة والزبير ، وأخذت عائشة أسيرة فأكرمها الخليفة وردها إلى المدينة معززة مكرمة . ومن ذلك الوقت اتخذ علىّ " الكوفة " مركزا للخلافة بدلا من " المدينة " .

موقعة صفين :

واعتمد معاوية على كثرة أعوانه وتقدم نحو العراق فقابله علىّ عند "صفين" غربى " الرقة " وحاول الخليفة اقناع معاوية فلم يفلح ، فعرض عليه — حقنا للدماء — أن ينازله ، فأبى معاوية وبدأ بالهجوم فهزمه علىّ فى ثلاث مواقع استعد بعدها معاوية للفرار .

خدعة عمرو :

وعند ذلك اقترح عمرو بن العاص على معاوية أن يرفع جنوده المصاحف على أسنة الرماح ويطلبوا تحكيم القرآن فانخدع جنود علىّ ، وعبثا حاول أن يقنعهم أن هذه إنما هى خدعة . ولكنهم أصروا فضاع انتصاره سدى وارتد مغاضبا إلى الكوفة .

التحكيم :

انتخب معاوية عمرو بن العاص مفوضا عنه وعزم علىّ أن يعين عبد الله ابن عباس . فجاءه صحبه وألحوا بلزوم تعيين أبى موسى الأشعرى لكبر سنه وصلاحه فأذعن لهم على كره منه . واتفق الحكمان أن يصدرا اقرارهما بعد ستة أشهر أو أكثر إذا اقتضت الحال، وعاد معاوية إلى دمشق وعلىّ إلى الكوفة .

الخوارج :

وفى أثناء سير جيش علىّ إلى مقر خلافته فكر رجال من جيشه — أكثرهم من قبائل تميم وبكر — أن إصرارهم على التحكيم كان خطأ يجب أن يكفروا عنه بمعاودة القتال ضد معاوية ، وندم آخرون على تخاذلهم عن تعضيد الخليفة وطلبوا إليه أن يرفض التحكيم الذى أكرهوه عليه، فأبت له مروءته أن يرجع فى وعده ، فاجتمع منهم اثنا عشر ألفا وقرروا الخروج على علىّ ومعاوية على السواء . ولجأ هؤلاء الخوارج إلى الصحراء فتبعهم علىّ وقتل منهم عددا كبيرا فى واقعة "النهروان" وفر الباقون إلى البحرين والأحساء وكونوا نواة فرقة الخوارج . ومن رأيهم ألا يخضعوا لحكومة سياسية .

نتيجة التحكيم :

وفى أثناء ذلك كان الحكمان قد اجتمعا فى "دومة الجندل" حيث تفوق عمرو بحذقه ومهارته ، فأقنع أبا موسى بخلع علىّ ومعاوية وإخلاء السبيل

لانتخاب خليفة جديد. فلما جاء الموعد أعلن أبو موسى خلع علىّ من الخلافة ثم قام عمرو فأقر خلع علىّ وثبت معاوية فاحتج أبو موسى على هذا الغدر والخيانة وذهل جميع الناس . ولم يجرؤ معاوية أن يلقب نفسه خليفة إلا بعد سنين . وأراد علىّ أن يخضع الشام فتخاذل عنه أهل العراق أولئك القوم القلّب. وانتهى الأمر بعزم ثلاثة من الخوارج على قتل علىّ ومعاوية وعمرو ، فقتل علىّ ونجا الآخران .

أخلاق على :

كان علىّ شهما حكيما ذا مروءة و بطولة ، حريصا على المصلحة العامة متهاونا فى حقوقه الخاصة إلى حد التفريط ، ولو أتيحت له شدة عمر وصلابة أبى بكر لنال الخلافة بعد النبي صلى الله عليه وسلم ، و بموت على سنة ٦٦١ انقضى عهد الجمهورية الإسلامية الأولى المعروف بعهد الخلفاء الراشدين .

خلافة الحسن بن على

بويع بعد علىّ ابنه الأكبر الحسن ، بايعه أهل الكوفة وما يليها ولم يكد يستوى فى مركزه الجديد ، حتى غزا معاوية العراق فقصد الحسن " المدائن " . ولكن جنده ثاروا عليه ونهبوا أمتعته وظهر أنهم يريدون تسليمه إلى معاوية ، فتأكد أن أهل العراق الذين غرروا بوالده — لا يمكن الاعتماد عليهم فقفل راجعا وقابل معاوية وتنازل له عن الخلافة فأخذ معاوية بيعة العراقيين . وتعرف هذه السنة سنة ٤٠ هـ و ٦٦١ م بالسنة الجامعة لاجتماع كلمة المسلمين فيها .

ولم يعمر الحسن بعد ذلك الا بضعة أشهر ومات مسموما فى الغالب .

مجمل تاريخ دولة بنى أمية

(٤٠ — ١٣٢ هـ ، ٦٦١ — ٧٥٠ م)

بعد تنازل الحسن صار معاوية حاكما على المسلمين ونقل مقر الخلافة إلى دمشق ، وإنما ساعده على ذلك أنه ظل حاكما على الشام عشرين عاما تمكن أثناءها من إيجاد جيش وأسطول قويين ، وتحبب إلى الناس بالأعطية والوعود . وقد اعتمد معاوية أيضا على عمرو بن العاص الذى ولّاه مصر ، وزياد بن أبيه[1] الذى ولىّ الأقاليم الشرقية .

صعوبة فتح افريقية :

وكان معاوية سياسيا حازما كريما حليما ، وحّد كلمة المسلمين ومد فتوحهم فى افريقية . وكانت هذه البلاد — على عكس مصر وسوريا — قد صبغت بالصبغة الرومانية ، وكانت قريبة من صقلية التى كانت ترسل إليها المدد أحيانا ولذلك صعب فتحها ، وزاد هذه الصعوبة أن جبالها كان يسكنها البربر الذين أبوا الخضوع للرومان وظلوا يدافعون عن استقلالهم معتصمين بالجبال ، فلما دخل العرب بلادهم قاوموهم مقاومة عنيفة فاستغرق فتح افريقية ستين عاما .

عقبة بن نافع :

وقـد أرسل معاوية عقبة بن نافع (سنة ٥٠ هـ ٦٧٠ م) لفتح افريقية فانتصر على الرومان وأسس مدينة القيروان جنوبى تونس ، ولكن البربر كادوا له وقتلوه هو وأكثر جيشه سنة ٦٨١

وفى حكمه أيضا قام المهلّب بن أبى صفرة بفتح السند ثم أخضع القسم الشرقى من أفغانستان . وانتصر معاوية على الرومان برا وبحرا .

---

(١) زياد هذا ابن أمة لم يعترف معاوية بأنه أخوه إلا بعد أن ظهرت مواهب زياد وخدماته .

عهد معاوية لابنه يزيد :

وقد خالف معاوية المبدأ الجمهورى من ترك الناس يختارون خليفتهم وعهد إلى ابنه " يزيد " وطلب إلى الناس أن يبايعوه واستعمل فى ذلك الدهاء والتهديد والترغيب والشدة والرشوة حتى بايعته وفود جميع الجهات، إلا الحجاز حيث لم يزل فى السويداء رجال ينتصرون للفضيلة ويأبون أن يحكمهم رجل متبذل كيزيد. وأهم هؤلاء الحسين بن على وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبى بكر.

موت معاوية :

ومات معاوية سنة ٦٨٠ وقد تشبه بكبار الملوك فتنعم فى مأكله وملبسه وأقام الحراس والحجاب. ولكنه كان مكبا على أعمال حكومته يصرف أكثر وقته فى النظر فى جلائل الأمور ودقائقها.

الحسين ويزيد :

وقام بالأمر بعد معاوية ابنه يزيد وهو — بصرف النظر عن مبالغة أعداء بنى أمية فى ذمه — ظالم غليظ القلب لا يعبأ بالدين ولا بالمبادئ السامية، ولهذا ثار عليه الحسين بن على، ولو بقى الحسين فى المدينة أو مكة لبايعه الناس ولتم له الأمر. ولكن أهل العراق أرسلوا إليه يلحون عليه أن ينتقل إليهم، فنصح له أصدقاؤه ألا يركن إلى العراقيين، ولكنه انخدع ووقع فى الفخ الذى وقع فيه أبوه وأخوه من قبل.

كربلاء :

فسار نحو العراق مع أهله وقليل من أتباعه حتى وصل إلى "كربلاء" قرب الفرات دون أن يرى أثر الجيش العراقى الذى وعد أن يستقبله، لأنهم خافوا فتك عبيد الله بن زياد بن أبيه الذى ولاه يزيد عليهم. ثم هاجمه جيش ابن زياد وحال بينه وبين الماء فطلب الحسين أن يسمح له فيرجع إلى المدينة أو يتقدم إلى الحدود الشرقية القصوى لحماية البلاد من غارات الأتراك، أو يؤخذ الى يزيد فأبى الأعداء إلا الحرب واستشهد

الحسين وكل من معه من الرجال . ولم ينج إلا النساء وطفل صغير وهو على زين العابدين بن الحسين .ومنه تناسلت ذرية النبي صلى الله عليه وسلم .

وقد أثارت حادثة كربلاء استياء المسلمين جميعا ، وبخاصة الفرس والحجاز ، ولم يزل هذا الاستياء ينمو في فارس حتى ساعد على إقامة الدولة العباسية على أنقاض ملك بني أمية .

تخريب المدينة :

أما في الحجاز فثار أهل المدينة وعصوا يزيد ، فأرسل لهم جيشا بقيادة " مسلم بن عقبة " فقاتله أهل المدينة في وقعة " الحرة " حيث استشهد كثير من سلالة المهاجرين والأنصار، وانتقم يزيد من أهل المدينة فخربها جيشه ودمرها فعادت إلى حالتها قبل الإسلام .

ثم مكه :

ثم انتقل الأمويون إلى مكة حيث قام بالخلافة عبد الله بن الزبير وحاصروها وهدموا كثيرا من بيوتها ولم يستثنوا الكعبة إلا أنه فاجأهم موت يزيد فرفعوا الحصار وعادوا إلى الشام .

معاوية الثاني :

وخلف يزيد ابنه معاوية وكان شاباً تقياً شب على حب بني هاشم فأعلن مخالفته لسياسة سلفه ولكنه مات بعد أشهر وبموته انقرض فرع أبي سفيان بن حرب

ثم عبد الله بن الزبير :

وبعد موت يزيد بقليل انقسم الأمويون على أنفسهم واستعد مروان بن الحكم — وهو زعيم أكبر حزب من الأمويين — أن يبايع عبد الله بن الزبير الذي بايعه أهل الحجاز والعراق وخراسان وفارس ومصر ولم تخل الشام من أعوان له .ولو خرج عبد الله من مكة وأظهر نشاطا وإقداما لنال

البيعة فى الشام أيضا ، ولكنه تخوف وتباطأ حتى تشجع مروان واحتال على زعماء قومه فأعلنوه خليفة . واستعان بالقحطانيين وبهم تقدم الى لقاء أنصار عبد الله من المضريين يقودهم " الضحاك بن قيس " الذى ولاه عبـد الله على الشام ، فقابلهم عند " مرج راهط " وهى على بضعة أميال شمالى شرقى دمشق ونشب القتال حتى فنى المضريون عن آخرهم . وأصبح مروان خليفة فى دمشق ، ولكنه مات سنة ٦٨٥ بعد أن عهد بالخلافة لابنيه عبد الملك ثم عبد العزيز .

وكان عبد الملك نموذجا من بنى أمية فى نشاطه ودسائسه وعدم تقيده بالقوانين الأدبية . وقد انكب بمقدرته الفائقة على تقوية مركزه ، فأرسل جيشا بقيادة عبيد الله بن زياد لإخضاع الخوارج فى العراق ولكنهم أبادوه انتقاما لمقتل الحسين .

استبسال ابن الزبير :

ثم وجه جيشا بقيادة الحجاج الى مكة فضيق الخناق عليها حتى حصلت فيها مجاعة عظيمة وانفض كثير من أتباع عبد الله عنه ولم يبق معه إلا نفر قليل ، فأشارت عليه أمه "أسماء" بنت أبى بكر أن يموت شهيد الحق[1] فهاجم الأعداء وصدهم إلا أنهم تكاثروا عليه وقتلوه وحملوا رأسه إلى المدينة ثم إلى الشام وبذلك انتهت خلافة عبدالله بن الزبير بعد أن استمر تسع سنين يخطب باسمه ويحكم العالم الإسلامى ما عدا الشام .

فتح أفريقية :

وأهم فتح حصـل فى عهد عبد الملك هو إتمام فتح أفريقية إذ أرسـل جيشا سـنة ٦٩٣ يقوده "زهير" نائب عقبة بن نافع فتوغل فى البـلاد ، ولكن جاء المدد إلى الرومان من صقلية فقتل زهير وارتد جيشه إلى برقة .

---

(١) مما قالته له فى ذلك " يا بنى عش كريما أو مت كريما " قال " يا أماه ما يخوفنى إلا أن يمثل القوم بى " قالت " يا بنى ما يضير الشاة سلخها بعد ذبحها " .

فرأى عبد الملك أن يهاجم افريقية من طريق البحر وتغلب عامله " حسان ابن نعمان " على الروم والبربر واسترجع القيروان وترك الرومان افريقية للعرب سنة ٦٩٨ ، إلا أن البربر ثاروا بقيادة امرأة تلقب " الكاهنة " وفتكوا بجيش حسان وردوه إلى برقة . فأرسل عبد الملك جيشا آخر استطاع به حسان أن يقضى على قوة " الكاهنة " نخضع البربر واعتنقوا الإسلام . ولم يبق إلا مراكش التى فتحها موسى بن نصير سنة ٧٠٨ فى خلافة الوليد .

إصلاحات عبد الملك :

وأهم إصلاحاته استعمال اللغة العربية فى كتابة الدواوين بدل اللغات المحلية التى كانت تستعمل فى الولايات المختلفة ، وضرب نقودا خاصة للعرب بعد أن كانوا يتعاملون بنقود الرومان والفرس ، فضرب فى عهده الدينار وهو نصف جنيه بالتقريب ، والدرهم ويساوى أربعة قروش[1]

ومات عبد الملك فى الثانية والستين من عمره سنة ٨٦ هـ وكان يحب الشعر والشعراء، حريصا، قاسيا، جريئا، قوى الإرادة لا ينثنى عن عزمه.

ولى الوليد الأول الخلافة بعد أبيه ، لأن عمه عبد العزيز بن مروان كان قد مات. وفى عهده بلغت دولة بنى أمية أعلى درجة فى الفتوح والثروة والمدنية ، فإن الأتراك نقضوا عهدهم مع المسلمين وقتلوا منهم من وقع تحت يدهم ، فتقدم "قتيبة" عامل خراسان وأغار على بخارى وطخارستان وفرغانة ، ولما فتحت هذه البلاد لم يقتصر على امتلاكها بل نزلت بها أسر عربية بقصد الإقامة وانتشر فيهم فقهاء المسلمين ، فاعتنق أهل البلاد الإسلام واشتد تعلقهم به ونبغ منهم علماء فطاحل .

(١) والدينار معرب عن اللاتينية والدرهم معرب عن الإغريقية .

كذلك وجد " محمد بن قاسم " عامل مكران أن القبائل التى بين السند وبلوتشستان لا تنفك عن مناوأته فضم السند وملتان وجزءا من البنجاب ، واستوطن العرب هذه الجهات أيضا ونشروا الإسلام فيها .

وكان مسلمة بن عبد الملك — أخو الخليفة — يقود الجيش فى آسيا الصغرى فاستولى على أكثرها .

عمر بن عبد العزيز :

وعين الوليد ابن عمه عمر بن عبد العزيز عاملا على الحجاز فسار على نهج الخلفاء الراشدين وأحسن إدارة البلاد وعمّر مكة والمدينة وحفر الآبار وأصلح الطرق تسهيلا على الحجاج ، فعاد إلى هذه البلاد رونقها الأول وأمها كثير من أهل العراق فرارا من الحجاج بن يوسف الثقفى ، فشكا هذا إلى الخليفة أنه لا يستطيع أن يحكم ولايته ما دام يسمح لأهلها أن يفروا إلى الحجاز ، وانتهى الأمر بعزل عمر بعد أن حكم نحو خمس سنين أعادت إلى الأذهان ذكرى السلف الصالح .

فتح الأندلس :

وبينما أفريقية متمتعة بالتسامح والعدل كانت أسبانيا تئن من حكم القوط الغربيين وفظائع الإقطاع ، وكان اليهود المقيمون فيها مضطهدين من جانب الأشراف ورجال الدين حتى اعتبروا جميعا عبيدا ، ولهذا هرب كثير من المضطهدين إلى أفريقية وطلبوا إلى موسى بن نصير — عامل بنى أمية على أفريقية — أن يخلصهم من ظلم " لزريق Roderick " مغتصب الملك . وانضم إليهم أبناء الملك المخلوع و " الكونت جوليان " حاكم " سبته " وكان يبغض لزريق ويحسده .

فأستأذن موسى بن نصير فى فتح الأندلس واحتل جزائر ميورقة ومنورقة وأرسل جماعة يقودهم طريف بن مالك لاستطلاع الأحوال فى أسبانيا ، ثم نزل طارق بن زياد بالأندلس ومعه سبعة آلاف ، سنة ٧١١ وتقدم داخل البلاد ، وجاء المدد من افريقية وهزم جيش " لزريق " فى موقعة

" شريش " وغرق الملك ، ودخل العرب قرطبة وغرناطة وطليطلة وكانت العاصمة ثم انضم موسى إلى طارق وتمما فتح أسبانيا إلى جبال البرات . وفى هذا الوقت استدعى موسى بن نصير إلى دمشق فوصلها بعد موت الوليد وأساء الخليفة الجديد سليمان بن عبد الملك مقابلته فمات فقيرا .

أما العرب فى الأندلس فعبروا البرات وفتحوا جنوب فرنسا ، والتحموا بجيش " شارل مرتل " فى موقعة بواتيه أو " تور " سنة ٧٣٢ كما سيأتى . ومات قائدهم " عبد الرحمن الغافقى " وارتد العرب إلى أسبانيا ولم يعودوا لفتح فرنسا بعد ذلك .

وبعد هذا ظهرت الدعوة لبنى هاشم وأدت إلى انقضاء الدولة الأموية سنة ٧٥٠ .

أهم مميزات الدولة الأموية :

وأهم مميزات هذه الدولة :

(١) أنها كانت سياسية أكثر منها دينية فكان كثير من خلفائها لا يهتمون كثيرا لأمر الدين ، بل كان بعضهم غير مكترث بالشعائر الإسلامية يدمنون الخمر ويتلهون بالصيد ، ولكنهم على العموم كانوا على جانب عظيم من المهارة السياسية والكفاءة الإدارية ، فامتد سلطانهم شرقا وغربا ووحدوا كلمة المسلمين وأحسنوا إدارة الأقاليم .

(٢) كانت دولة بنى أمية عربية بحتة تعتمد على العرب فى الأمور الحربية والسياسية ، وكان العرب إذ ذاك شعبا مقتصدا قويا متفانيا فى نشر الإسلام . وقد استطاع الأمويون أن يستفيدوا من جهود القحطانيين والعدنانيين ، وانتشرت فى عهدهم اللغة العربية وارتقى الشعر .

(٣) اعتمدت الدولة على ما أوتيت من قوة وسلطان ولم تركن إلى الرأى العام ولم تحاول كسبه ، حتى مال الناس عنهم وانحازوا إلى جانب بنى هاشم كما سيأتى بعد .

مجمل تاريخ دولة بنى العباس

(١٣٢ — ٦٥٦ هـ ، ٧٥٠ — ١٢٥٨ م)

الشيعة :

لما جعل الأمويون يضطهدون بنى هاشم ظهر حزب يعارض الأمويين ويعضد أبناء على ويعرف هذا الحزب بالشيعة . وهم يخالفون أهل السنة فى اعتقادهم ببطلان خلافة أبى بكر وعمر وعثمان، وبأن لعلىّ الحق المقدس فى الخلافة . وشاعت هذه الدعوة فى العراق وفارس وخراسان ، لبعدها عن مقر الخلافة ولأن الموالى من الفرس وغيرهم أرادوا أن ينالوا نصيبا فى إدارة الحكومة ، فصارت الدعوة تناوئ بنى أمية خاصة ، والعرب عامة .

قتل زعماء بنى على :

وقد حاول كثير من بنى علىّ الخروج على الأمويين ، وانتزاع الخلافة من أيديهم فلم يوفقوا ، بل ضاعوا ضحية هذه الثورات حتى انتهى أمرهم بقتل زيد بن علىّ زين العابدين وابنه الإمام يحيى ، وبذا خلا الميدان لبنى العباس ، وكانوا يسعون للخلافة أيضا لانتسابهم إلى العباس عم النبى صلى الله عليه وسلم .

أبو مسلم :

وأكبر عضد للعباسيين أبو مسلم الخراسانى الذى دخل خدمة زعماء بنى العباس منذ صغره ، ولما ظهرت خبرته وذكاؤه صار زعيما لنشر الدعوة فى خراسان ، وما زال يستحث الهمم حتى تمكن سنة ٧٤٧ من نشر



العلم العباسى الأسود [١] فى مرو عاصمة خراسان ، منتهزا فرصة اشتغال الأمويين بقمع ثورات الخوارج ، فطلب نصر بن سيار عامل الأمويين إلى مروان الثانى أن ينهض للقضاء على الدعوة [٢] .

موقعة الزاب ونهاية حكم الأمويين :

فقبض مروان على ابراهيم زعيم العباسيين وقتله ، ولكن أخويه أبا العباس السفاح وأبا جعفر المنصور فرا إلى الكوفة حيث اختبآ ، وتقدم أبو مسلم غربا سنة ٧٤٩ واستولى على العراق ، ثم تقابل جيش العباسيين بقيادة "ابن عون" وجيش الأمويين بقيادة مروان عند "نهر الزاب الأكبر" قرب الموصل فانهزم مروان وفر إلى دمشق ، فتتبعه العباسيون واستولوا عليها وطاردوه إلى أن قتل فى أبى صير بصعيد مصر سنة ٧٥٠ ، وبموته انتقلت الخلافة لبنى العباس فانتقموا من الأمويين وأفنوهم عن آخرهم .

فرار عبد الرحمن الأموى إلى الأندلس :

ولم ينج منهم إلا عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الذى فر إلى الأندلس وأنشأ فيها دولة مستقلة .

---

(١) اختار العباسيون العلم الأسود لأن النبى كان يحارب فى بعض غزواته ناشرا علما أسود ، وقد يكون سبب اختيار هذا اللون دلالته على الانتقام والبغض . أما الأمويون فكان شعارهم اللون الأبيض . بينما كان الخوارج يرفعون العلم الأحمر .

(٢) ولما أبطأ مروان الرد كتب إليه نصر :

أرى خلل الرماد وميض نار ... ويوشك أن يكون له ضرام
لئن لم يطفها عقلاء قوم ... يكون وقودها جثث وهام
أقول من التعجب ليت شعرى ... أأيقاظ أمية أم نيام
فان كانوا لحينهم نياما ... فقل قوموا فقد حان القيام

وكان قد بويع أبو العباس عبدالله السفاح فى الكوفة فى ١٣ ربيع الثانى سنة ١٣٢ هـ ٢٥ نوفمبر سنة ٧٤٩ ، وكان السفاح ، رغم قسوته ، كريما ملتفتا الى واجباته أخضع الثورات التى قامت فى دمشق وفلسطين وولى على الأقاليم رجالا من بنى العباس يثق بهم ، وعهد بالخلافة لأخيه أبى جعفر المنصور .

خلافة أبى جعفر المنصور

(٧٥٤ — ٧٧٥)

يعد أبو جعفر المؤسس الحقيقى للدولة ، لأنه أحكم الرابطة بين القوة الزمنية والسلطة الدينية . فكانت الثانية مصدرا مهما من مصادر قوة الدولة وعمادا متينا لها وبدأ سلسلة الإصلاحات وجلائل الأعمال التى على منوالها نسج من أتى بعده ، وأهمها استبدال العمال بغيرهم حينا بعد حين وعزل من يخشى استقلالهم بالحكم من ذوى العصبيات القوية .

بناء بغداد :

وأهم أعماله بناء بغداد على الشاطىء الغربى للدجلة قرب المدائن سنة ٧٦٦ ، وقتل أبا مسلم الخراسانى خوفا من عظم نفوذه وأخضع الثورة التى قام بها أتباع أبى مسلم وحصن الحدود التى بينه وبين الروم واتخذ خالد بن برمك وزيرا له . فبدأت عظمة البرامكة الذين قاموا بأعباء الوزارة فى صدر الدولة العباسية وكانوا من أكبر دعائم التقدم والرقى فيها .

وكان المنصور يشرف على كل أعمال الدولة بنفسه ويستعرض الجند ويفتش الحصون ويراجع الدخل والمنصرف ويحاسب عماله حسابا دقيقا.

ولما أنهكت الأعمال صحة المنصور قصد مكة ليقضى فيها بقية حياته فمات على بضع ساعات منها سنة ٧٧٥ وخلفه ابنه المهدى .

العصر الذهبي :

تولى المهدى سنة ٧٧٥ وقد رسخت قدم الدولة وثبتت دعائمها وسكن الناس الى حكمها فلم تعد حاجة الى أخذ الناس بالشدة واتهامهم فى إخلاصهم لبنى العباس . وكان المهدى كريما رحيما ، فعزم على محو أثر كل إساءة اقترفها المنصور ، فعفا عن المسجونين السياسيين ورد الى بنى هاشم ما كان والده قد أخذه منهم ووسع المدارس وزاد فى عددها ووسع الحرم المدنى وأنشأ القصور على الطريق من بغداد الى مكة وسعى فى توفير الماء على طول هذا الطريق ورتب البريد بين مكة والمدينة .

ومن إصلاحاته الصحية والإنسانية الإنفاق على المجذومين منعا لانتشار العدوى ، و إطعام المسجونين كيلا يموت فقراؤهم جوعا .

وفى أيامه ظهرت فى جرجان شرقى بحر قزوين طائفة تعرف بالزنادقة تدعو الى عقائد مجوسية و إسلامية والى اشتراكية متطرفة وتحتقر الآداب والنظام وتقول بتناسخ الأرواح فشدّد عليهم المهدى حتى قضى عليهم .

وقد ركن المهدى الى وزرائه فى مهام الأمور بجعل لهم الأمر والنهى مما مهد الطريق لعظمة البرامكة .

وكان يعاصر المهدى فى غرب أوربا شرلمان (٧٦٨ — ٨١٤) فصادقه المهدى واستمرت المودة بين الدولتين الى زمن الرشيد ، وذلك لأن العباسيين كانوا يودون القضاء على الدولة الأموية بالأندلس و يجدون فى شرلمان أكبر مساعد على الوصول الى غرضهم / أما الدولة الرومانية الشرقية فكان العداء مستحكما بين المهدى و بينها بسبب العداء القديم بين الطرفين ثم بسبب مصادقة الخليفة لشرلمان وهو أكبر منافس لقياصرة الدولة الرومانية الشرقية ، فقامت الحرب بينهما برا و بحرا وانتهى الأمر بأن تقدّم المهدى هو وابنه هارون وسارا الى البسفور فصالحته ايرينى القائمة بالأمر إذ ذاك (١) على دفع جزية سنوية .

(١) نيابة عن ابنها الأمبراطور قسطنطين السادس .

وجاء بعد المهدى ابنه موسى الهادى فلم يعمر أكثر من أربعة عشر شهرا وحدثت فى عصره ثورة بالمدينة قتل فيها الحسين حفيد الحسن بن على ، وفر ابن عمه ادريس الى بلاد المغرب فعظمه البربر ونشأت على أثر ذلك دولة الأدارسة فى افريقية سنة ٧٨٨ فى أيام ارشيد وقد حاول الهادى أن يخلع الرشيد من ولاية العهد وينقلها الى ابنه جعفر، وبينا هو يسعى لإتمام ذلك عاجلته منيته سنة ٧٨٦ و بتولى الرشيد الخلافة بلغت دولة العباسيين غاية قوتها ، وتجلى عصرها الذهبى فى أسمى مظاهره ، فلم يكن على وجه الأرض دولة تضارعها فى عظمة السلطان ، وضخامة الثروة ، ونشر العلوم والآداب ، وشيوع النعيم والترف ، واستتباب الأمن ، ووثوق الرعية بالعدل حتى لنرى هارون يتغلب على العلويين الخارجين عليه ، والمناوئين لأسرته ؛ ثم يسعه العفو عنهم والإحسان اليهم ، و إجزال العطاء لهم مما يدل على استقرار الدولة واعتبارها هذه الثورات مجرد مشاغبات صبيانية يقوم بها أناس مفتونون يكفى لردّهم عن غيهم إرشادهم وتعريفهم بأقدار أنفسهم .

أما الخوارج الذين ناوأوه فى الجزيرة بزعامة الوليد بن طريف الشيبانى فجرد عليهم جيشا يقوده يزيد بن مزيد الشيبانى على الرغم من صلة النسب بين الخارجى والقائد وكان هؤلاء الخوارج لا يقلون عمن سبقوهم فى الاستبسال فى القتال والمسارعة الى الاستشهاد فقاوموا مدة طويلة ثم تغلب عليهم يزيد قرب الأنبار .

ويعدّ الرشيد من أكبر حكام العالم فقد كان متمسكا بدينه تقيا محسنا ، محبا مع هذا لمظاهر العظمة ، ماهرا فى قيادة الجيوش — ومن أجل هذا كان أبوه يؤثره على أخيه الهادى ، كثير التجوّل فى أملاكه بقصد القضاء على الفوضى ، وتوطيد الأمن وتعرّف أحوال الرعية . فصارت الطرق سابلة بالأمن وتقلب فيها التجار والحجاج والعلماء من أقصاها الى أقصاها . وقد شيد الرشيد من المساجد والمدارس والكليات والمستشفيات والصيدليات والقناطر والترع ما يشهد له بالحرص على صالح رعيته والعمل على راحتهم .

وفى عصره عظمت بغـــداد وكثرت فيهـا القصور الفخمة التى أبدع المهندسون تنسيقها، وعظمت كذلك الرصافة المقابلة لها على الشاطئ الشرقى وذلك بفضل ما أنشأه البرامكة من قصور ومساجد وحمامات،واتسع عمران العاصمة حتى بلغ سكانها مليونى نفس وصارت ملتقى التجارة بين الهند والصين والشام والجزيرة وبحر المشرق ، ويجبى لها صافى خراج الدولة وهو مئات الملايين من الدنانير يصرف منه على الإدارة العامة، ويغدق الخليفة ووزراؤه جزءا ليس باليسير على الشعراء والعلماء والكتّاب والمحتاجين ، وينفق هؤلاء عن سعة فتروج التجارة ، ويكثر التأنق فى المعيشـة ، ويبلغ الترف مبلغه الذى سارت به الأمثال فى أنحاء المعمورة ، ولم ينقطع تغنى الشعراء به من عرب وفرنجه الى وقتنا هذا .

وكانت بغـداد كذلك مدينة العلم تكتظ مدارسها ومساجدها الجامعـة بفطاحل المحدثين والقراء والفقهاء واللغويين ، يدرسون لطلاب من كل صقع من أصقاع العالم الاسلامى ، وينعمون بهبات سخية يهبها الرشـيد والبرامكة، والى جانب العلوم العربية بدأت الترجمة عن الهنود والإغريق والفرس ونبغ علماء فى الطب والهندسة وغيرها مما سيجئ الكلام عليه .

وينسب بعض عظمة عصر الرشيد الى الرجال الذين قاموا بادارة البلاد فى الجزء الأول من حكمه ، لأن يحيى بن خالد البرمكى كان معلما للرشيد فلما صار خليفة استوزره وقال له "قلدتك أمر الرعية وأخرجته من عنق اليك ، فاحكم فى ذلك بما ترى من الصواب واستعمل من رأيت واعزل من رأيت وامض الأمور على ماترى " ثم دفع اليه خاتمه الخاص، ولما وثق منه دفع إليه خاتم الخلافة فصار بيده الحل والعقد . وقـد أدار يحيى الأمور بحكمة وعدل و إحسان وساعده ابناه الفضل وجعفر، وخلف الأخير والده فى الوزارة فقام بها خير قيام . وخدم البرامكة الدولة سبع عشرة سـنة باخلاص وحزم حتى زادت ثروتها على عهدهم ، وعمرت الأرض ، وارتقت الصناعات وجميع وسائل الحضارة . ثم حسدهم كبار الدولة على علو مكانتهم ولا سيما زعيم الحزب العربى، الفضل بن الربيع حاجب الرشيد فأوقع الرشيد بهم على حين

غفلة. والسبب الحقيقى فى نكبتهم أنهم قبضوا على ناصية الأمور كلها وصار بيدهم الدخل والخرج حتى كان هارون "يطلب البسيط من المال فلا يصل اليه إلا عن طريقهم فغلبوه على أمره وشاركوه فى سلطانه فعظمت آثارهم و بعدصيتهم وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم، واحتازوها لأنفسهم عمن سواهم من وزارة وكتابة وقيادة وانصرفت نحوهم الوجوه وخضعت لهم الرقاب وتخطت اليهم من أقصى التخوم هدايا الملوك وأفاضوا فى رجال الشيعة وعظماء القرابة العطاء، فأحقدوا الخاصة فكشفت لهم وجوه المنافسة والحقد والحسد، وقارن ذلك عند الخليفة مخدومهم نواشئ الغيرة والاستنكاف من الحجر".

ولا يبعد أن يكون الرشيد قد هاله أن فاقت شهرتهم شهرته، وخشى أن يحول ذلك الخلافة عن العباسيين، ولعله كان يعلم أن صديقه شرلمان ورث الملك عن أناس كانوا فى الأصل حجاب القصر عند الملوك الأقدمين ثم استطالوا على سادتهم ونحّوهم عن عروشهم.

و إنه من أجل هذا وأمثاله أمر بقتل جعفر وحبس يحيى و بقية أولاده حتى مات يحيى والفضل فى السجن ثم عفا الأمين عمن بقى منهم، ورد اليهم المأمون فى خلافته ضياعهم.

و بعد الفتك بالبرامكة استوزر الرشيد حاجبه الفضل بن الربيع صاحب اليد الطولى فى الإيقاع بهم ولكنه كان دونهم فى الكفاية والمقدرة.

ولم تتغير السياسة الخارجية كثيرا فى عصر هارون عما كانت عليه أيام أبيه فقد ظل ما بين المسلمين والروم باقيا ولم تنقطع الإغارات من الناحيتين، ولذلك رأى الرشيد أن يفصل جميع الثغور الواقعة على الحدود الرومانية الواقعة بالجزيرة وأعالى الفرات وشمال الشام و يجعلها إقليما قائما بذاته يستكثر فيه من الحصون والحاميات ليقوى على دفع إغارات الروم. ولما تم له ذلك سماها "العواصم" لأنها تعصم المسلمين وتمنعهم من العدو، ومنها أنطاكية وطرسوس.

ولم تنقطع المناوشات بين المسلمين والروم وكانت جيوش الخليفة تصل الى " أنقرة " واضطرت الأمبراطورة " ايرينى " الى الصلح على أن تدفع جزية سنوية .

وعهد هارون لأبنائه الأمين ثم المأمون ثم القاسم وأخذ عليهم العهود بألا يحاول أحد منهم تغيير هذا الترتيب . ثم مات الرشيد بعد أن حكم ثلاثا وعشرين سنة فى أثنائها بلغت شهرته مبلغا لم يبلغه خليفة قبله حتى اتصل بأمبراطور الصين ، وتبادل شرلمان الهدايا معه ، فأرسل اليه الرشيد هدايا كثيرة تشير الى ما كانت عليه الدولة من الثروة والتقدّم ولا سيما الساعة المائية التى دهش لها أهل أوربا وحسبوها سحرا وهم بعض رجال شرلمان بكسرها لولا أن منعهم الأمبراطور .

الأمين

(١٩٣ — ١٩٨ ، ٨٠٩ — ٨١٣ م)

كان الأمين ضعيفا مسرفا مغرما بالبذخ والترف ، فنفدت أموال الخزانة وأغراه وزيره الفضل بن الربيع بخلع أخويه ، والعهد الى أبنائه دونهما . وأرسل جيشا يأتيه بالمأمون فانهزم عند الرى فأعلن المأمون نفسه خليفة وقبلته فارس بأجمعها وحاصر بغداد فتهدم جزء كبير منها ، ثم وافق الأمين أن يسلم نفسه لأخيه ولكن بعض الجنود الفارسية قتلته فى الطريق ، فحزن المأمون وأكرم أبناء أخيه وزوجهم من بناته .

المـأمون والمعتصم والواثق
(١٩٨ — ٢٣٢ هـ ، ٨١٣ — ٨٤٦ م)

بعد موت الأمين حصل هرج كثير فى العراق والشام واستمر بضع سنين ، فلما هدأت العاصفة تولى طاهر بن الحسين قائد المـأمون الشرق وتولى ابنه عبد الله بن طاهر سوريا ومصر ، وكان عصر المـأمون أزهر عصور الحضارة كما سيأتى بعد :

المدارس :

ومما يدل على بعد نظره وولعه بالعلم أنه لم يقنع ببقاء نشر التعليم متوقفا على سخاء الخليفة ، بل قرر أموالا ووقف أوقافا يصرف منها على المدارس فى جميع أنحاء الدولة وأباح الاستخدام فى مناصب الحكومة لجميع المتعلمين على اختلاف أديانهم ونحلهم .

وكان المـأمون مولعا بالعلوم والفلسفة ، فكان ذلك العصر أرقى عهود العلم أيام العباسيين ظهر فيه علماء فطاحل من أهل الحديث وعلماء الكلام جعل لهم المـأمون مجالس للمناظرة ، وبلغ من تسامح المـأمون أن الشيعة كانوا يفضلون العلويين على العباسيين فى حضرته فلا يتعرّض لهم . وكانت الترجمة عن الفرس واليونان قد بدأت من قبل ، وبخاصة فى الطب ، فنقل عن اليونانية أيام المنصور كتب أبقراط وجالينوس فى الطب ، وترجم ابن المقفع كليلة ودمنة من الفهلوية وترجم المجسطى لبطليموس . فلما كان عصر الرشيد وتوغل فى أسيا الصغرى الى أنقرة وعمورية عثر على كنز ثمين من علوم اليونان فحملت الكتب الى بغداد وترجمت برعايته وتشجيع البرامكة فنشأ المـأمون متشبعا بتلك العلوم مقتنعا بفائدتها فنشطت حركة الترجمة نشاطا كبيرا بفضل تعظيمه للعلماء وما كان يغدقه عليهم من الأرزاق. وكان للمـأمون شغف خاص بأرستطاليس. وأرسل فى طلب الكتب الى القسطنطينية جماعة ممن يعرفون اليونانية فيهم صاحب "بيت الحكمة"

فاختاروا طائفة كبيرة حملوها اليها فأمر بترجمتها . وقلده فى ذلك أغنياء المسلمين منهم بنو شاكر الذين أنفذوا حنين بن إسحق الى بلاد الروم بجاء بطرائف الكتب فى الفلسفة والهندسة والموسيق والرياضة والطب وكان المأمون مغرما بعلوم الأوائل وتحقيقها ومن ذلك تحقيق طول محيط الأرض .

وقد أصلح هؤلاء العلماء أخطاء اليونان ، وشرع بعضهم يضع مؤلفات جديدة منهم يعقوب بن اسحق الكندى ، فراجت علوم الأقدمين واشتغل بها المتعلمون فى بغداد وغيرها من حواضر الإسلام وكان المأمون حامل لواء هذه العلوم ، وسبب تلك النهضة الكبرى كما سيجيء بعد .

ضعف الدولة العباسية

بدء استخدام الترك فى الجيش :

لما تولى المعتصم أراد أن يكبح جماح جيوشه الفارسية فكوّن جيشا جديدا من الأتراك يقودهم ضباط من بينهم تحت أمرة الخليفة مباشرة . ولما ضاقت بهم بغداد انتقل المعتصم وجيشه الى "سر من رأى" أو "سامرا" وسرعان ما صار لهؤلاء الأتراك من القوة ما كان للحرس الرومانى حتى أصبح بيدهم عزل الخلفاء وتعيينهم .

تعيين أشناس سلطانا :

ولما تولى الواثق بالله تم خطة أبيه وزاد نفوذ الأتراك وأهمل الجيوش العربية والفارسية ، وعين أشناس التركى سلطانا للدولة يقوم بادارتها باسم الخليفة . وكان الواثق مغرما بالعلوم والآداب والموسيق ، مشجعا للزراعة والصناعة .

نهاية الدولة العباسية فى بغداد :

و بموته انقضى عهد عظمة العباسيين إذ لم يخلفه إلا رجال يرتقون الخلافة ولا قوة لهم ، و يموتون غير مأسوف عليهم ، يوليهم الأتراك أو الفرس ذوو النفوذ فى الجيش و يعزلونهم أو يقتلونهم متى أرادوا . على أن اسم الخلافة العباسية استمر ببغداد الى سنة ٦٥٦هـ — ١٢٥٨ م حين أغار عليها هولاكو التتارى وقتل المستعصم آخر خليفة عباسى فى بغداد فانقضت بذلك الدولة العباسية فى تلك الأرجاء .

عوامل سقوط الدولة العباسية :

و يرجع سقوط الدولة العباسية الى عوامل عدة أهمها :

١ — تفوّق العناصر غير العربية :

كان الأمو يون يعتمدون على العرب و يولونهم المناصب السامية كلها فغاظ ذلك الموالى من الفرس ، وعملوا على القضاء على دولة بنى أمية علهم يستردّون شيئا من سابق نفوذهم وقديم سلطانهم . ومن أجل هذا رأى أهل خراسان وغيرهم من الفرس أن يناصروا العباسيين. و ينشروا لهم الدعوة، وتمكنوا فى النهاية من انتزاع الخلافة من الأمو يين فجاءت دولة العباسيين فارسية الصبغة من أول أمرها وعمل الفرس على إقصاء العصبية العربيــة عن الخلفاء بدعوى أن العرب قد يطمحون الى الخلافة اعتمادا على نسبهم فأصبح الفرس يحكمون الدولة كما يرى ذلك ممثلا فى سطوة البرامكة ومن جاء بعدهم حتى خشى المعتصم مغبة الأمر فاستكثر من مماليك الأتراك واتخذ منهم جندا استعان بهم على الفرس والعرب معا . ولم يكن الفرس ولا الترك يخلصون للعباسيين خاصة ولا للإسلام عامة ، بل كانت لهم نزعات سياســية ودينية من شأنها إضعاف الدولة العباسية . ولما عظم بأس الترك

استطاعوا التصرف فى الدولة وأصبحوا يسجنون الخلفاء ويسملون أعينهم ، ويعزلون من لا يرضيهم ويولون من يريدون ثم طمع كل جنس فى إعادة أيام عزه وعصر استقلاله .

٢ — سوء الحالة الاقتصادية :

بعد أن وطد الخلفاء الأول أركان الملك جاء من بعدهم خلف أخلدوا الى الدعة وأمعنوا فى الترف ، وجر ذلك الى كثرة النفقات وزيادة الضرائب والمكوس فانحطت موارد الثروة وقل ايراد الحكومة وضعفت بالتالى شوكتها فى تحصيلها .

٣ — ظهور دويلات علوية مستقلة :

منافسة العلويين لخلفاء بنى العباس ومنازعتهم بالقوة المسلحة وتمكنهم من اقتطاع أجزاء من الدولة صارت مستقلة عنها ، ومن ذلك دولة الأدارسة بالمغرب والدولة الفاطمية التى امتدت من المحيط الأطلسى الى الحجاز واليمن ، ودولة بنى بويه وهى من غلاة الشيعة وكانت لها السيطرة على بغداد وبقية أجزاء الدولة العباسية .

يضاف إلى ذلك اتساع رقعة الدولة وما جرى عليه بعض العباسيين من إقطاع النواحى القاصية لأعوانهم مكافأة لهم على خدماتهم ، وما كان من استقلال هؤلاء الأعوان .

٤ — تعدّد الأجناس والمذاهب :

تعدّد الأجناس وظهور مذاهب دينية لم تكن معروفة أيام الأمويين ، بل سرت الى الإسلام فى ذلك الوقت من الديانات القديمة من مجوسية ويهودية ونصرانية أدّت الى كثرة الملل والنحل ، وأذكت نار العداوة بين المسلمين فأصبح بأسهم بينهم شديدا تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى .

الفصل الثانى

الحضارة الإسلامية

عهد الخلفاء الراشدين والأمويين

انتخاب الخليفة :

كانت الخلافة انتخابية ، وكان الانتخاب فى الواقع بيد المسلمين المقيمين فى المدينة حيث يحصل الانتخاب وتؤخذ البيعة بمسجدها الجامع ، ومتى تم اختيار الخليفة بهذه الطريقة بايعه باقى المسلمين عن طيب خاطر.واستمرذلك مرعيا كما بينا إلى أن استقرت الخلافه لمعاوية .

فأصبح أمير المؤمنين يعين خلفه ويأخذ له البيعة فى حياته ، مستعملا فى ذلك سلطانه ونفوذه ، وبهذا صارت الخلافة انتخابية فى شكلها وراثية استبدادية فى الواقع ونفس الأمر .

الحكومة :

وكانت الرياسة للخليفة يعاونه كبار الصحابة فى القيام بأعباء الدولة ففى زمن أبى بكر مثلا كان عمر يقوم بالقضاء . وكان علىّ كاتم السر ومنوطا بالنظر فى أمر الأسرى وفديتهم . وكان ولاة الأقاليم ينوبون عن الخليفة فى الأمور الدينية والسياسية ، ثم فصل عمر القضاء عن الإدارة وجعل القاضى مسئولا أمامه فقط ومستقلا عن الوالى .

موارد الدولة :

كانت أهم موارد الدولة الزكاة وضريبة الأراضى وفرضة الرءوس والجزيات التى نصت عليها المعاهدات وخمس غنائم الحرب ودخل أرض الحكومة والمكوس ، وأكبر أبواب المصروفات تكاليف الإدارة ، واعتمادات الحرب والمعاشات المختلفة التى كانت تصرف للصحابة والجند ، ولضبط حساب الوارد والمنصرف استعان عمر بالنظام الفارسى ورتب الديوان أو بيت المال حيث كانت تقيد الواردات والمصروفات ، وكان عمر لا يسمح لجنده أن يملكوا أرضا فى البلاد التى فتحها العرب ، رغبة منه فى الاحتفاظ بالصفات الحربية فى العرب وصيانة لحقوق فلاحى البلاد الأصليين . أما باقى نظم الحكومة فلم يتم تكوينها إلا أيام الأمويين والعباسيين .

عهد العباسيين ومعاصريهم

كلمة عامة :

ينقسم حكم العباسيين إلى قسمين متميزين : الأول من ابتداء خلافتهم إلى موت الواثق بالله سنة ٧٥٠ — ٨٤٧ ويعرف بالعصر الذهبى، والثانى من ذلك التاريخ إلى نهاية حكمهم سنة ١٢٥٨

اعتمد العباسيون على أهل فارس وخراسان الذين أوصلوهم إلى منصب الخلافة واتخذوا منهم الوزراء ورجال الدولة . فعين أبو العباس خالد بن برمك على ديوان الدخل . وزاد النفوذ الفارسى حتى بلغ أعلى درجاته فى عصر المأمون . ولما رأى المنصور أن دمشق مرتبطة بذكر الأمويين وبعيدة عن فارس، بنى بغداد التى فاقت دمشق والكوفة والبصرة فى النبوغ العلمى وسرعان ما شاعت العادات الفارسية وبدأت كتب الإغريق تترجم إلى

العربية وظهرت هذه النهضة فى عهد الرشيد بتشجيع البرامكة ولا سيما يحيى وابنيه الفضل وجعفر ، وكان البرامكة من الفرس العريقين فى المجد ، ويقال إنهم كانوا يمالئون الشيعة إلا أن كرمهم ومعاضدتهم للعلم ومقدرتهم فى الإدارة خففت كثيرا مما كان بين العرب والفرس من التنافس ، حتى ظهر فى مدتهم عدد كبير من الشعراء من عرب وعجم ومولدين كأبى نواس وأبى العتاهية والعباس بن الأحنف ومسلم بن الوليد ، ونبغ الواقدى المؤرخ والكسائى النحوى والأصمعى اللغوى وأبو يوسف القاضى ، فأضاءت بهم خلافة الرشيد . وفى عهده أيضا اتسعت تجارة المسلمين وامتدت شرقا إلى الصين وغربا إلى أمبراطورية شرلمان . وكان المأمون محبا للأبحاث العلمية فشجع العلماء على درس الفقه والشريعة والطب والرياضة والفلك والتاريخ الطبيعى .

الحكومة فى صدر الدولة العباسية

الخليفة :

كان الخليفة من آل محمد صلى الله عليه وسلم فكانت له الرياسة الدينية والزمنية ، وقد ساعد نفوذهم الدينى على عظم شأنهم كما أطال فى عمر دولتهم ، لأن احترام السلطة الدينية التى للخليفة كان عميقا فى قلوب الناس ، حتى إن الحكام الذين استقلوا عنهم سياسيا لم يفكروا فى الاستقلال الدينى بل كانوا دائما يطلبون من الخليفة مرسوما يجعل مركزهم مشروعا ، حتى السلاجقة أنفسهم لم يصيروا خلفاء إلا بطريق الوراثة عن بنى العباس.

كان العباسيون يعهدون بالخلافة لمن بعدهم ويأخذون لهم البيعة من وجوه الناس . وكان الخليفة إماما وقائدا وأمينا لبيت المال وقاضيا كما كانت الحال زمن الأمويين . ولكن اتساع الملك اضطره إلى أن يكل القيام بواجباته إلى رجال عديدين بعضهم فى مقر الخلافة وبعضهم فى الأقاليم .

الوزير :

وأهم وظيفة أحدثها العباسيون هى وظيفة الوزير الذى كان ينوب عن الخليفة ويستعمل السلطة المطلقة باسمه، يخضع له كل الموظفين وينوبون عنه فى واجباته ، فكان الوزير بيده كل مكاتبات الدولة ودخلها ومصروفاتها وتعيين الموظفين وعزلهم .

مجلس العزيز :

كان رؤساء المصالح يجتمعون فى مجلس برياسة الوزير يسمى "مجلس العزيز" وأهم المصالح فى ذلك الوقت ديوان الخراج وديوان الضياع وديوان الجند وديوان الشرطة وديوان الرسائل وديوان البريد وديوان النظر فى المظالم وديوان الزمام وديوان الاكرة .

أهم الدواوين :

وكان ديوان الخراج أهمها ، أما ديوان الرسائل فكان واجب رئيسه وضع المرسومات والمكاتبات السياسية وتسجيل ردود الخليفة على الطلبات والشكايات المختلفة . وأما ديوان الزمام فأنشأه المهدى فى المراكز المهمة فتحسنت الإدارة بوجوده تحسنا كبيرا وكان يشبه قلم المراجعة ، بينما كان صاحب البريد يراقب توزيع المكاتبات الرسمية ويستطلع الأخبار الهامة وكان له أعوان فى الأقاليم يرسلون اليه التقارير السرية عن أحوالها ، على أن هؤلاء لم يستغن بهم عن رجال البوليس السرى ، وأما ديوان الأكرة فكان يعنى بشؤون الفلاحة والفلاحين .

القضاء :

كل القضايا المدنية لغير المسلمين كانت توكل لقضاتهم ورؤساء دياناتهم وأما المسلمون فكان يفصل بينهم القضاة وكان فى كل مدينة كبيرة قاض

ينوب عنه قضاة فى النواحى التابعة للمدينة ، ويرأسهم جميعا قاضى القضاة وهو يشبه وزير الحقانية للدولة كلها .

وكانت القضايا الجنائية فى يد صاحب المظالم ، والمحكمة العليا تسمى ديوان النظر فى المظالم ،رئيسها الخليفة وأعضاؤها قاضى القضاة والحاجب وكبار الرؤساء ويدعى اليها بعض رجال الإفتاء . وكان هذا المجلس الرسمى لا ينظر الاّ فى قضايا العظماء، التى لايستطيع أن يفصل فيها صاحب المظالم الذى يشبه من بعض الوجوه النائب العمومى .

صاحب الشرطة والمحتسب :

كان بكل مدينة شرطة خاصة برتب عسكرية خاضعة لرئيس تعينه الحكومة مباشرة يسمى صاحب الشرطة يقوم بحماية أرواح الرعية وأملاكها ويشبه الحكمدار ، أما المحتسب فأول من عينه المهدى وكان يرأس بوليسا مدنيا يلاحظ الأسواق ويختبر الموازين والمكاييل والمقاييس و يعاقب كل من يحاول الغش أو الاختلاس .

الضرائب :

كان أهم موارد الخزانة من الخراج والزكاة والفرضة وخمس حاصل المناجم ورسوم المصانع وضريبة الملح والمصايد والمكوس،وكانت الضريبة تقبل نقدا أو من عين المحصول .

الحكومة المحلية :

كانت كل مدينة تقوم بشؤونها الخاصة الى درجة كبيرة وكانت الحكومة العليا لا تتدخل إلا لقمع الاضطراب ، فكان لكل مدينة مهمة مجلس يعرف "بديوان الشورى" مكون من أعيان المدينة تحت رياسة "الصدر"

الذى ينتخبه الأعضاء. وكان هذا الديوان يدير شؤون المدينة ويجبى الضرائب ويدفع للدولة القيمة المحدودة ، وكانت الحكومة العليا تقتصر على تعيين القاضى وصاحب الشرطة وصاحب البريد والحاكم الذى كانت الحكومة تختاره من رجال الجهة . كذلك كانت تكتفى بتسلم الضرائب ومراقبة الرى وغيره من الأعمال الزراعية .

الزراعة والصناعة والتجارة

تمهيـــد :

رأينا أنه فى عهد الأمويين صارت العربية لغة المكاتبات الرسمية والدين والشعر والعلم فى جميع أنحاء الدولة ، وأن الأعاجم ولا سيما الفرس اشتركوا فى النهضة واشتدت المنافسة بينهم وبين العرب . ولكن هذه المنافسة خفت حدتها كثيرا فى صدر الدولة العباسية لأن الفرس استعربوا لغــة وعادات وأسمـاء وامتزج العنصران حتى لم يعد يمكن التفريق بينهما أيام المأمون ، وأخذ الجميع يتبارون — لا فى ميـدان الأنساب — بل فى ميادين التقدم المـادى والنشاط الأدبى .

الزراعة :

كان العراق تحت إشراف الحكومة العليا مباشرة فنال حظا وافرا من عنايتهـا فتحسنت طرق الرى التى ورثها العرب عن الفرس تحسـنا عظيما وأصبح بالبلاد شبكة واسـعة النطاق من الترع والمصارف . ولم تحرم بقية الأقاليم من مثل هذه العناية بل كانت الزراعة وفلاحة البساتين تعد من أول واجبات الحكومة .

وقد وجه العرب جهـدهم لتطبيق العلم على العمل فى دراسـة النبات ودرسوا صلاحية التربة لنباتات خاصة، واستعملوا الأسمدة المختلفة لصنوف النباتات المتباينة، وعرفوا التطعيم وتوليد أصناف جديدة من أشجار الفاكهة

وغيرها ، وجلبوا الى بلادهم ما لم يكن معروفا بها من قبل ، واشتهرت الأهواز وفارس بزراعة قصب السكر ، وأقام عبد الرحمن الأول بستان نباتات بقرطبة جلب اليه البذور النادرة من الشرق . وقد أدخل العرب إلى أوربا نباتات كثيرة لم تكن معروفة أهمها الأرز وقصب السكر والمشمش والخرشوف .

الصناعة :

استغل العرب موارد ثروتهم الصناعية فاستخرجوا الحديد من خراسان وفارس والفضة والرصاص والملح الجبلي والكبريت من فارس أيضا ، والنفط من القوقاز والمرمر من تبريز ، واشتهرت دمشق والموصل بالتطعيم بالفضة والذهب وصنع الأسلحة الدمشقية المعروفة ، وصنع الزجاج والآجر المصقول فى البصرة وعظم شأن هذه الصناعة فى خلافة المعتصم ، فإنه أقام المصانع فى بغداد وغيرها وشاعت صناعة المصابيح البلورية المحلاة بالذهب وغيره من الألوان فى دمشق .

وتفوق العرب فى التطريز والسجاجيد والحرير والأطلس والكتان والوبر والشعر وشاعت صناعتها فى كل الجهات ، وامتازت دمشق بالكتان والكوفة بالحرير خصوصا المناديل وخراسان بالسجاجيد والأصواف وخوزستان بتكرير السكر والزيوت والأعطار، واكتشفت عملية تكرير السكر وصنع الورق، وتقدّم صنع المعادن فتمتعت أوربا بنتائج اختراعات المسلمين ونبوغهم العلمى .

التجارة :

وكانت التجارة لا تقل شأنا عن الصناعة فصارت البصرة مركزا للتجارة مع الهند والصين بطريق البحر، واتجروا مع شاطئ إفريقية الشرق وتوغلوا الى البحيرات العظمى ، وكشفوا جزائر أسورة واتجروا مع شاطئ غينيا . واخترقت قوافلهم صحراء إفريقية الى النيجر عن طريق المغرب ومصر

فكشفوا الصحراء العظمى لأول مرة فى تاريخ الحضارة ، ونشطت قوافل بغداد الى الهند والصين وبحر قزوين والبحر الأسود وتغلغلوا فى روسيا حتى وصلت النقود العباسية الى شواطئ البلطيق وداخل السويد وامتدت تجارتهم الى قسطنطينية وثغور البحر الأبيض المتوسط .

الرحلات :

وقد صحب هذا التوسع حركة فكرية هامة إذ قام العلماء برحلات الى البلاد الأجنبية ودوّنوا حقائق هامة عن أرضها وأهلها ولغاتها وعاداتها فكأن إحياء العلوم فى الدولة العباسية لم يكن الا مظهرا من مظاهر النهضة العامة التى وسعت كل شؤون الحياة .

فن البناء والزخرفة :

لما جاء الإسلام وأبطل عبادة الأوثان جرى الناس على كراهة التمثيل والتصوير ، فوجه ذوو الكفاية الفنية هممهم إلى البناء والزخرفة مستمدين الفن من الحياة النباتية والحيوانية والأشكال الهندسية والمناظر الطبيعية ، متحاشين تصوير الجسم الإنسانى ، فشادوا مساجد وقصورا آية فى الجمال والإبداع الهندسى كما تشهد آثارهم فى قصر الحمراء بقرطبة ومساجدهم بالقاهرة ودمشق وغيرها .

العلوم :

لما استقر العرب بالبلاد التى انبعثت فيها المدنيات القديمة كسوريا ومصر وفارس والهند وتولى الخلافة رجال مستنيرون كالرشيد والمأمون واستتب الأمن فى أنحاء الدولة وعمها الرخاء ، توجهت الهمم إلى استطلاع علوم الأقدمين ، ومتابعة السير فى أبحاثهم العلمية المختلفة رجاء الوصول إلى كشف ما يحيط بهم من أسرار الطبيعة وعجائبها ، واستخدام ما قد يتاح لهم من القوانين العلمية فى ترقية أحوالهم المعيشية من زراعية وصناعية .

وأهم المدنيات التى نقل عنها العرب مدنية الإغريق التى كانت آثارها لا تزال باقية فى مدن سوريا ومصر والأناضول ، لا سيما أن مدارس الطائفة المسيحية المعروفة بالنسطورية ، والتى اضطهدها أباطرة الدولة الرومانية الشرقية ، اضطرت إلى الالتجاء إلى العراق وفارس فسهل على العرب الاستفادة منها . زد على ذلك أن الخلفاء فى صدر الدولة العباسية كانوا يرسلون بعوثا للبحث والتنقيب فى الكنائس والأديرة عما خلفه القدماء من العلوم ، وذهب بعضهم إلى القسطنطينية والهند فى عهد المأمون . أما العلوم التى أخذها العرب عن الإغريق فأعظمها شأنا الطب والفلسفة والجغرافية والهندسة والفلك .

وأما عن الهند فأخذ العرب الأرقام الحسابية والفلك وحساب المثلثات وأما عن الفرس فأخذ العرب النظم الحكومية والبريد وبعض الكتب الطبيعية التى نقلها الفرس عن الإغريق .

وقد بدأ العرب بترجمة هذه العلوم إلى لغتهم ثم أضافوا اليها أبحاثا جديدة لم يكن قد طرقها الأقدمون . ففى الرياضة أنشأوا علم الجبر وطبقوه على الهندسة وابتكروا الخط المماس المستعمل فى حساب المثلثات وقوانين أخرى جديدة فى هذا العلم ، وكانوا أول من استعمل الكسور العشرية . أما فى الطبيعة والكيمياء فقد ضربوا بسهم صائب لا سيما فى الكيمياء فكتبوا عن العدسات ووضعوا نظريات جديدة فى انكسار الضوء وفى شكل الصور فى المرايا المنحنية . واكتشفوا خواص القلى والأحماض وابتدعوا مركبات جديدة كالكحول وحامض الكبريتيك وتحضير الزئبق وابتكروا أجهزة للتصعيد والتقطير والخلط والمزج .

وأما فى الطب والصيدلة فأدخل العرب فى الطب نباتات كثيرة كان يجهلها اليونان كالراوند والكافور ووضعوا علم الجراحة ووصفوا آلاته

وعملياته وجبر العظام ، وكتبوا فى أنواع الحمى ووصفوا جميع الحيوانات والنباتات والأحجار والمعادن ذات الخواص الطبية . وهم أول من أقام المستشفيات والصيدليات .

العلماء :

وأشهر المبتكرين والنابغين فى الفلك محمد بن موسى وأخوته والكندى وابن يونس المصرى الذى بنى مرصدا بجبل المقطم واخترع بندول الساعة الدقاقة سنة ١٠٠٧ م .

و فى الطبيعة الحسن بن الهيثم المتوفى بالقاهرة سنة ١٣٠٨م. وفى الطب ابن سينا من سنة ٩٨٠—١٠٣٦ ، والفخر الرازى وأبو القاسم بن على ، وقد بقيت كتبهم تدرس بأوربا عدة قرون ، واشتهر فى المادة الطبية ابن البيطار ، وفى الفلسفة ابن رشد ، ونبغ فى الجغرافية الإدريسى المولود بالمغرب سنة ١٠٩٩ والذى بقيت خريطته وكتبه تدرس بأوربا أكثر من ٣٥٠ سنة بعد وفاته . وظهر فى التاريخ الطبرى فى القرن العاشر والمسعودى وأبو الفداء وابن خلدون والمقريزى فى القرن الرابع عشر .

المدارس :

وقد اهتم العرب بشؤون التربية والتعليم وسبقوا كل ما كان معروفا بأوربا فى تلك العصور أو بعدها ، فقامت المدارس والمكاتب والجامعات فى أهم مدن الدولة العربية كبغداد والقاهرة وقرطبة وانطاكيا ونيسابور وأمها الطلاب من كل فج يحضرون دروس الجامعات .

أثر العرب فى أوربا :

ولما سطعت شمس العلوم فى البلاد الإسلامية يمم شطرها طلاب العلم من أوربا، ولنقتصر على ثلاثة مراكز مهمة أثرت فى أوربا أكثر من غيرها : وأول هذه المراكز بلاد الأندلس وأخصها طليطلة إذ كانت من مدن العلم المهمة أيام كانت بيد المسلمين ثم صار مسجدها الجامع ملتقى الطلاب الأوربيين بعد أن فتحها الاسبان سنة ١٠٨٥ فتدارسوا فيها علوم العرب وما نقلوه عن الاغريق على أساس الترجمة العربية .

والمركز الثانى لإذاعة الثقافة العربية كان بصقلية وجنوب ايطاليا حيث أقام المسلمون نحو مائة وثلاثين سنة أيام كانوا قادة الفكر فى العالم فلما أخذ النرمنديون تلك الجهات نهائيا سنة ١٠٩١ أعجب الملوك الجدد بما شاهدوه من علوم العرب فعملوا على تشجيعهم سواء منهم الجغرافيون والشعراء والعلماء فنرى أن الملك روجر كلف الادريسى عمل خريطة للعالم المعروف فى عصره على لوح مستدير من الفضة . ولم يكن خلفاء روجر أقل حماسة منه فى هذا الصدد ، بل نرى وزير الملك وليم الأول يترجم له عن العربية بعض كتب أفلاطون وأرسطو وكان الملك فريدريك الثانى الذى حضر إلى مصر بحملته الصليبية الغربية سنة ١٢٢٨ شديد التعلق بعلماء العرب حتى كان يشترك معهم فى مناقشة نظريات أرسطو ولا سيما الفلك .

والمركز الثالث بحر المشرق حيث اختلط الغربيون والشرقيون بسبب الحج إلى بيت المقدس ، والحروب الصليبية وتبادل التجارة . ومن هذه الناحية نقلت عن العرب الأرقام الحسابية وما برحت تسمى الأرقام العربية، ونقل الحساب كذلك ، ورسمت الخرائط على أساس المعلومات الجغرافية الواردة فى كتب البكرى وابن حوقل والادريسى . ويرتبط بذلك "الاسطرلاب" الذى بلغ على يد العرب درجة الكمال واستعملوه لضبط القبلة وتعيين مواقيت الصلاة وبقى الاسطرلاب عماد الملاحة بين الأوربيين حتى ظهرت المخترعات الحديثة فى القرن السابع عشر .

وعن الشرق أيضا تعلم الأوربيون إنشاء المستشفيات على نسق البيمارستانات التى أقامها السلطان "نور الدين" فى دمشق والسلطان قلاوون بالقاهرة .

وبمثل هذه الطريقة نقلت الصناعات العربية فى المنسوجات الرقيقة والتصميمات الزخرفية .

ومن ذلك يتضح أن الأوربيين أخذوا عن العرب القبس الذى سطع فى إيطاليا أولا، ثم فى بقية أوربا وأخذ شكله النهائى فى النهضة الأوربية. فأوربا مدينة للعرب بإفاقتها من سباتها العميق فى العصر الوسيط، بل ببعثها من رمس العصور المظلمة إلى الحياة الحديثة الملأى بالآمال والأعمال .

الفصل الثانى

مصر بعد الفتح الاسلامى

أحوال مصر فى عهد الخلفاء الراشدين وبنى أمية وصدر دولة بنى العباس

حدود الولاية :

كانت ولاية مصر فى أول الأمر قاصرة على الوجه البحرى كله والوجه القبلى الى أسوان جنوبا وفى سنة ٦٥٢ أضيفت اليها بلاد النوبة كاسترى ، وأضيف بعد هـذا شبه جزيرة سينا وشمال الحجاز ، وفى سنة ٧٦٥ أضيفت اليها برقة .

النظام الحكومى :

اعتاد الخلفاء أن يعينوا فى كل ولاية نائبا عنهم يسمى الوالى أو الأمير ويعهدون اليه عادة بواجبات ثلاثه : الصلاة والخراج والحرب . ومعنى هذا أن الوالى كان عليه إمامة الصلاة فى عاصمة قطره فى يوم الجمعة على الأقل ، وأن يجبى الضرائب وينشر الأمن ويدافع عن البلاد . غير أن الخلفاء ماعتموا أن رأوا أن يكلوا بعض هذه الواجبات الى رجال مستقلين عن الوالى يعينهم الخليفة رأسا ويكونون مسؤلين أمامه مباشرة وأهم هؤلاء الموظفين الخراج والقاضى .

وقد فطن العرب من أول الأمر الى أن يوجد بمصر نظام إدارى مستقر من قديم الزمان ، وإدارة مالية يحسنها موظفون من أهل البلاد ولا يعرف العرب عنها شيئا يستحق الذكر . وقد أحسنوا فى الاكتفاء بالوظائف ذات الصيغة

الســياسية والحربية واحتفظوا فيما عدا ذلك بالموظفين القدماء الروم منهم والمصريين. وكان كلما خلا مكان بموت موظف رومى أو خروجه من البلاد أحلوا محله موظفا مصريا حتى صار جميع عمال الدولة من أهل البلاد أو القبط كما يسميهم العرب .

وكذلك احتفظ العرب بالتقسيم الإدارى بتعديل يسير فى بعض الأحوال فمن ذلك أنهم أدمجوا الدوقيات الأربع التى كانت على عهـد الروم وجعلوا القطر إقليمين عظيمين مصر السفلى ومصر العليا . واستبقوا أكثر الأقسام الصغرى فكل إقليم كان مقسما الى قرى كما كان من قبل بتغيير الأسماء من رومية الى عربية فى بعض الأحيان . وكان المشرف على ادارة القرى يسمى صاحب القرى وله السيطرة على رؤساء الأقسام الادارية الصغرى كالنواحى .

واليك أهم الموظفين :

الوالى : هو نائب الخليفة وكان يعينه على مصر كلها أحيانا وعلى جزء منها أحيانا أخرى، وتارة يكل اليه أمر الخراج وتارة أخرى يعين صاحب خراج مستقل عنه. ومرة يفوّض اليه اختيار القاضى وأخرى يختار القاضى بنفسه. ومهما يكن من شىء فان الوالى كان رئيس حكومة القطر والمسئول الأول عن ادارتها واطمئنان أهلها وحمايتهم من أعدائهم كما هو واضح من نص العهود التى قطعها العرب على أنفسهم حين تسلموا مصر .

وأكبر عضد للوالى صاحب الشرطة وكان الوالى يختاره بنفسه لينظر فى كل ما من شأنه استتباب الأمن والضرب على أيدى المشاغبين وقطع دابر اللصوصية وإصدار الأوامر لمنع وقوع الاضطرابات وقمع ما يحدث منها . واتسع نفوذه فيما بعد حتى شمل تنظيم دخول النساء الى الحمامات واجتماعهن فى المآتم . فكأنه كان يقوم بواجب النـائب العمومى ورجال البوليس فى الوقت الحاضر فى القطر كله . أما العاصمة فكان يؤدى فيها وظيفة الحكمدار .

صاحب الخراج :

كان فى أكثر الأحوال يعينه الخليفة بنفسه ويخوله حق تقدير الضرائب وجمعها ودفع مرتبات الجند وأرزاقهم وما الى ذلك من مصاريف الادارة ثم ارسال الفائض الى بيت مال الخليفة . وكان يجوز الجمع بين الولاية والخراج .

القاضى :

لما تم لعمرو بن العاص فتح مصر كتب اليه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أن يجعل كعب بن يسار بن ضبة على القضاء وكان حكما فى الجاهلية فقال كعب " قضيت فى الجاهلية ولا أعود اليه فى الاسلام " . وانما نذكر هذه القصة لنبين أن القضاء بدأ مستقلا عن الادارة — على أننا نجد بعد ذلك أن تعيين القاضى يكون بيد الخليفة طوراً وبيد الوالى طوراً آخر . ويدل هذا الخبر أيضا على أن القضاء لم يكن من الوظائف المحبوبة فى ذلك العصر وذلك لأن العمل كان شاقا فإلى جانب الجلوس فى المسجد — مسجد عمرو فى ذلك الوقت — للقضاء وتنظيم الأعياد والحفلات الدينية ، كان يخطب فى المساجد أحيانا . ثم يضاف الى أعماله الإشراف على ضرب النقود — فلا عجب أن نسمع بأناس يرفضون وظيفة تتطلب اليهم بذل جهود بدنية وعقلية الى جانب الحرج الذى يجده رجل يعد نفسه أمينا على الشرع وحفيظا على أوامره ونواهيه رغم الوعد والوعيد .

وقد اختطَّ القضاة بوجه عام سننا ساميا فى علو الخلق وكانوا مُثُلا عليا فى النزاهة والسلوك . وبهذا عظم نفوذهم وطال بقاؤهم فى وظيفتهم فبينما كان غيرهم من الموظفين يتغيرون بتغيير الوالى نرى القاضى ثابتا فى عمله على عهد ولاة كثيرين ، ونجد منهم من يؤثر اعتزال وظيفته على السماح للوالى أو غيره بالتدخل فى الأحكام التى يصدرها . فلا غرو أن صار كثير من القضاة محببا الى الشعب الى حد أن الوالى كان يخشى سخط العامة إذا هو عارض القاضى .

حالة مصر الاجتماعية

التسامح الدينى :

كان عمرو بن العاص أول وال على مصر يسير فى حكمه على نهج الاعتدال والتسامح ولم يكن له هوى مع أحد المذهبين : الملكانى واليعقوبى فبقيا جنبا الى جنب يظللهما الفاتحون بذمتهم . وبهذا نال القبط الحرية الدينية فى العقيدة وإقامة الشعائر الدينية وعاد بطريقهم " بنيامين " من مخبئه بين مظاهر الابتهاج . واطمأن قسوسهم ورهبانهم وعامتهم . وقد كتب أحد الأساقفة بعد فتح العرب بنحو خمسة عشر عاما يقول إن العرب الذين أعطاهم الله السيادة فى عصرنا صاروا حكاما علينا ولكنهم لا يضطهدون الديانة المسيحية ، بل يحمون معتقداتنا ويجلون قساوستنا والصالحين منا ، ويقدمون العطايا الى كنائسنا وأديرتنا .

إمتزاج العرب بالمصريين :

لم يمض زمن طويل على الفتح حتى اختلط العرب فى حواضر الريف وقراها بالسكان وزاد ذلك بالتدريج فكان من بنات مصر من تزوجن باختيارهن من المحاربين وصرن أمهات مسلمين مشهورين وبدأ المصريون يدخلون فى الإسلام . ولما حضر المأمون الى مصر وقضى على الثورات التى كانت بها ، وكان الجنود من العرب قد أهمل شأنهم بدأ العرب يقيمون فى المزارع بعد أن كانوا الى ذلك الوقت يقتصرون على سكنى المدن . ومن ذلك الوقت أيضا كثر اعتناق الإسلام حتى صارت الكثرة مسلمين .

اللغــة :

ولما انتشر الاسلام اضطر معتنقوه الجدد إلى تعلم شيء من القرآن لتأدية الصلاة — وبذلك بدأ آباؤنا يتعلمون العربية واتسع استعمالها بقدر دخولهم فى الاسلام . وفى ولاية عبد الله بن عبد الملك بن مروان نسخت الدواوين بالعربية . ثم استعملت العربيــة إلى جانب القبطية للتفاهم فى المعـاملات اليومية . وبالتدريج صارت اللغة العربية لغة التفاهم بين المصريين قاطبة سواء منهم من أسلم ومن بقى على المسيحية، فرأى رجال الدين من المسيحيين أن الشعب لم يعد يفهم الصلوات باللغة القبطية فترجموا جزءا منها إلى اللغة العربية . وبدخول اللغة العربية فى صلوات الكنيسة المصرية أصبحت تعتبر اللغة القومية .

الحالة الاقتصادية

على الرغم من أن العرب حافظوا على طرق الروم فى تدوين دواوينهم وجمع ضرائبهم : كانوا أعدل فى جباية الأموال وكانت ضرائبهم أخف حملا عن السكان ، وذلك أن ضريبة الرءوس — وكانت مفروضة فى زمن الروم — أعفى منها الأطفال والشيوخ والنساء والعبيد والمجانين والمساكين وإنما طولب بها الشبان الموسرون القادرون على الحرب فكأنما كانت بمثابة البدل العسكرى عندنا وكان أساسها دينارين يدفعها الشاب كل سنة ولكن الظاهر أنه كان يزداد على الأغنياء بقدر ما يخفف عن أوساط الناس وفقرائهم .

وأما الخراج فكان ضريبة عينية تفرض على كل قطعة من الأرض سواء كان مالكها مسلما أو مسيحيا مصريا أو أجنبيا . فهو إذن يقابل الأموال الأميرية المقررة على الأطيان . ويمتاز عنها بأنه كان يراعى فيه ظروف الناس وأحوال البلاد فكان خراج الأرض يتغير بحسب ارتفاع النيل وبحسب حال الزراعة . وكان زعماء كل قرية يجتمعون لينظروا فى أحوال الزراعة ويجعلون جباية المـال مناسبة كذلك . فاذا اجتمع من المـال شيء فوق ما فرض على قريتهم أنفق فى إصلاح أحوالها .

وكانت تجعل فى كل بلد قطعة من الأرض يخصص ريعها لإصلاح الأبنية العامة وصياناتها مثل الكنائس والحمامات والجسور المحلية .

وقد كانت ضرائب الروم فوق الطاقة وكانت تجرى بين النـاس على غير عدل ، إذ كانت تعفى منها طائفة ممتازة من أفراد أو جماعات كما رأيت ،أما العرب فأزالوا ما كان مقرّراً من التفريق بين الناس فى جباية الضرائب ، واعفاء بعضهم منها .

وقد عنى عمرو بإنهاض الإنتاج بحفر الترع وأقام الجسور وأعاد حفر ترعة تراجان التى كانت تصل النيل بالبحر الأحمر وسماها خليج أمير المؤمنين فسارت فيها السفن تحمل قمح مصر وخيراتها إلى بلاد العرب وما زال شارع الخليج يذكرنا به .

وقد جبي عمرو الضرائب ١٢,٠٠٠,٠٠٠ مليون دينار أى نحو ستة ملايين من الجنيهات فاستقلها عمر بن الخطاب وولى عبد الله بن سعد بن أبى السرح الصعيد والفيوم والخراج وقصر ولاية عمرو على الوجه البحرى فقط وكان ذلك فى نهاية سـنة ٦٤٤ فزاد عبد الله الضرائب إلى ١٤,٠٠٠,٠٠٠ مليون دينار فضج الناس واستجار أهل الاسكندرية لأنهم حرموا من الإعفاء من الضرائب بعد أن كان الروم يعفونهم أحيانا ، بامبراطور الروم فأرسل أسطولا وجيشا لإستعادة مصر . ولما أخذ الاسكندرية قتل أكثر من كانوا بها من العرب وكانوا نحو ألف . ولما أحس أهل مصر عودة الروم طلبوا أن يكون عمرو المدافع عنهم فتقدم فى جيش يرافقه عدد من السفن .

وحاصر عمرو الاسكندرية وفتحها وهـدم أسوارها من ناحية البر وكان ذلك فى صيف سنة ٦٤٦

وعرض عثمان رضى الله عنه على عمرو أن يكون قائدا للجيش بمصر فأبى قائلا : أنا إذن كماسك البقرة بقرنيها وآخر يحلبها . وعلى ذلك غادر عمرو مصر وبقى عبد الله بن سعد واليا عليها اثنتى عشرة سنة . ونشأ عن زيادة الضرائب انتشار السخط بين الأهلين . وقام الناس بالثورة وأرسلوا إلى عثمان رضى الله عنه يطالبون اليه أن يولى عليهم أميرا آخر ولما لم يتم لهم ما أرادوا — كما رأيت — اشتركوا فى محاصرة دار الخليفة بالمدينة وكان لهم ضلع فى قتله .

واضطربت أحوال مصر أثناء الخلاف بين على ومعاوية وانحاز عمرو إلى معاوية وعظمت خدماته فكافأه معاوية بأن ولاه على مصر وجعلها طعمة له أى وهبه كل إيرادها فاستولى عليها عمرو سنة ٦٥٨ وحكمها ست سنين على نسق من الاعتدال والحكمة التى عرفت فيه من قبل .

وأشهر الولاة بعد عمرو عبد العزيز بن عبد الملك بن مروان بقى بمصر عشرين سنة وعشرة أشهر، وأثره من الناحية الاقتصادية بأنه لما اعتلت صحته انتقل إلى حلوان وبنى فيها المساجد وغرس الأشجار ليجعلها عاصمة . ويقال انه كان له فى كل ليلة الف جفنة تفرق على الفقراء والمساكين . ويظن ان أول الدنانير العربية ضربت فى عهده كما يظن أن ابنه عمر بن عبد العزيز المشهور بصلاحه وتقواه ولد فى حلوان ولما ظهر أمر العباسيين فر مروان الثانى إلى مصر فتتبعته جيوش العباسيين حتى قتلته فى بوصير وأنشأ القائد العباسى صالح ابن على ضاحية العسكر فى الحمراء القصوى (موضع زين العابدين والبغالة الآن) سنة ٧٥٠ وصارت العسكر موطن الحاكم والموظفين وكان النيل قد انحسر عنها قليلا ناحية الغرب . وبنى ولاة العباسيين أيضا " قبة الهواء " (مكان القلعة الحالية) لتكون لهم مصيفا .

وكانت سياسة العباسيين كثرة التغيير والتبديل فى الولاة خشية أن يستقل أحدهم بالبلاد فكانت نتيجة هذه السياسة وبالا على البلاد لأن الولاة لم يعطوا

فرصة يتعرفون فيها أحوال مصر وحاجاتها، ومن البديهى أن الايراد الذى كان يحصله الولاة من فرضة الرءوس أخذ فى القلقلة بسبب دخول المصريين فى الاسلام .

وكانت مصر تبتلى أحيانا بنفر من قساة أصحاب الخراج أشهرهم أحمد بن مدبر الذى زاد الضرائب واحتكر النطرون ومصايد الأسماك وفرض مكوسا جديدة فكانت النتيجة المنتظرة وهى قيام الثورات فى أنحاء البلاد ولم ينقذ مصر من براثنه غير أحمد بن طولون .

الفصل الثالث

مصر الاسلامية المستقلة

الدولة الطولونية

(٨٦٨ — ٩٠٥م)

كان "طولون" مملوكا تركيا ممن أرسلهم حاكم بخارى هدية للخليفة المأمون سنة ٨١٥ فنال الحظوة لديه ، وقد ولد ابنه أو متبناه " أحمد ابن طولون" سنة ٨٣٥ فنشأ نشأة طيبة و برع فى علوم اللغة والقرآن والشريعة وأولع بالتعليم العسكرى الذى كان يربى عليه فتيان الأتراك فى سر من رأى (سمارا) .

ولحسن حظه أن الأمير (بقبق) الذى تزوج من أرملة طولون مُنح ولاية مصر (نحو سنة ٨٥٤) واختار أحمد نائبا عنه فيها ، فحضر اليها سنة ٨٦٨ وهو فى الثالثة والثلاثين من عمره ، وكان أبو العباس أحمد بن طولون قديرا خبيرا باختيار الرجال فلم يمض وقت طويل حتى أحس الناس نفوذه ومن أكبر المساعدين له كاتم سره أحمد الواسطى .

حرج موقفه :

كان موقف ابن طولون محوطا بالمصاعب وأهمها دسائس "ابن المدبر" صاحب الخراج الذى أثرى على الاختلاس وابتزاز الأموال بمختلف الضرائب والمكوس . ثم قيام العلويين فى غرب الاسكندرية وفى اسنا ومقاومتهم له مدة .

ولم يقلل من حظ ابن طولون قتل الأمير " بقبق " إذ أن الخليفة منح مصر للأمير "برقوق" وهو حمو ابن طولون ولهذا أطلق يده فى مصر وضم اليه الاسكندرية وغيرها مما لم يكن داخلا تحت نفوذه أولا . وما زال نفوذ ابن طولون يزداد حتى أعطيت مصر طعمة "للموفق" أخى الخليفة سنة٨٧٢ فلم يعبأ ابن طولون بهـذا التغيير واسترضى الخليفة بالهدايا والتحف وصار فى الواقع ملكا مستقلا فى مصر ولا سيما بعد أن تخلص من أكبر منافس له فى داخلية البلاد وهو ابن المدبر الذى بقى صاحب الخراج مدة طويلة ثبت فى أثنائها مركزه . ولكنه قبل عن طيب خاطر مثل وظيفته فى الشام خوفا من بطش ابن طولون .

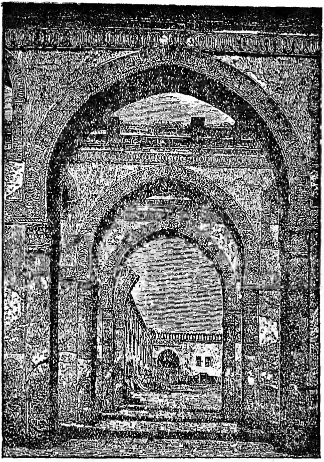
القطائع :

ولما استقر الأمر لأحمد بن طولون وكثر جنده وحاشيته بنى لهم مدينة " القطائع " على " جبل يشكر " (١) وجعل لكل طائفة من أتباعه قطيعة خاصة يقيمون بها ، وشاد لنفسه قصرا فخما تحت قبة الهواء به حديقة غناء وميدان لسباق الجياد .

(١) بين ميدان القلعة وزين العابدين .

مسجد ابن طولون :

وأما مسجده المعروف فلم يشرع فى بنائه إلا سنة ٨٧٦ واستغرق عامين كاملين فى بنـائه وأهم ما يلاحظ فيه إقامة الأعمدة من الآجر لأول مرة بدل نقل أعمدة حجرية من الآثار القديمة ، وأنه أول بناء استعمل فيه العقد المخموس الذى لم يستعمل فى انجلترا إلا بعد ذلك بقرنين من الزمان .



جامع ابن طولون

اتساع ملكه :

ولما عظمت نفقات ابن طولون على مبانيه وجيشه وحصونه وتضاعفت صلاته للعلماء وصدقاته على الفقراء لم يستطع أن يرسل شيئا الى "الموفق" لجهز هذا جيشا لإخراج ابن طولون من مصر ولكنه لم يقدر على إنفاذه لقلة المال . فتشجع ابن طولون وقرعزمه على توسيع ملكه فانتهز فرصة موت "ماجور" والى الشام وساق جيشه اليها سنة ٨٧٨ بحجة أن الخليفة كان قد أذن له بالاستيلاء عليها قبل تولية "ماجور" ففتحت دمشق أبوابها وقدم رجال الدولة وأعيان البلاد خضوعهم له حتى صار ملكه يمتد من نهر الفرات إلى برقة ومن جبال طوروس الى شلال أسوان .

و بعد أن ترك ابن طولون حاميات بالرقة وحران ودمشق عاد الى مصر لأن ابنه العباس الذى كان يحكم البلاد فى غياب أبيه أراد أن يستقل بملكها فلما حضر أبوه التجأ العباس الى برقة وقاوم سنتين حتى هزم وقضى حياته سجينا .

انتصاره على الروم سنة ٨٨٣ :

وقد شجر الخلاف بين ابن طولون والموفق دون أن يظفر أحدهما بالآخر وكذلك شجر الخلاف بينه و بين الروم فانتصرت جيوش ابن طولون عليهم قرب طرسوس سنة ٨٨٣ وغنمت أموالا طائلة . وقد أعياه الجهد فمرض وحمل على سرير الى مصر حيث لم يجده حذق الأطباء فمات فى مايو سنة ٨٨٤ قبل أن يبلغ الخمسين .

صفات ابن طولون :

وكان أحمد بن طولون كريما شجاعا تقيا خبيرا بأخلاق الرجال يشرف على أعمال الدولة بنفسه و يستطلع أحوال رعيته ، . وهو أول حاكم بعد الفتح الإسلامى أنهض قوة مصر و جمل عاصمتها .

خمارويه :

وقد خلف أحمد بن طولون ابنه الثانى " أبو الجيش خمارويه " وكان فى العشرين من عمره ميالا للترف يجهل الحكومة والحروب ، فلا عجب أن تآمر أعداؤه مع نائبه فى دمشق على إرجاع الشام إلى حكم الخليفة ، ودخل " أبو العباس بن الموفق " دمشق وتقدم جنوبا حيث قابله خمارويه ومعه ٧٠٠٠٠ مقاتل عند " الطواحين " قرب الرملة فذعر خمارويه وفر بأكثر جيشه الى مصر ، وثبت قائده "سعد الأعسر" مع بقية الجند فهزم الأعداء وأبى الخضوع لسيده .

استرجاع الشام :

فنهض خمارويه وهزمه فى دمشق سنة ٨٨٦ وطارد أعداءه الى "سمارا" فولاه الخليفة مصر والشام والعواصم على الحدود الرومانية مدة ٣٠ سنة . وقد تشجع خمارويه فدخل عدة حروب أيدت مقدرته الحربية .

زواج قطر الندى :

ثم زوج ابنته "قطر الندى" للخليفة "المعتضد" وتكلف فى ذلك مايقصر دونه الوصف من بناء القصور على طول الطريق من مصر إلى بغداد لنزول العروس كل ليلة وقد أكثر من الجواهر والتحف الى غير ذلك مما دعا الى صرف ألف ألف دينار .

وما زال خمارويه يسرف فى البناء وأنواع الترف حتى كادت موارد ثروته تنضب ، وأهم ما شيده توسيع قصر أبيه " بالقطائع " وتحويل الميدان حديقة غناء يتضوع منها عبير أزهار شتى ، صفت بأشكال بديعة تغرد فوقها الأطيار التى أكثر من جمعها فيها. كذلك زين "بيته الذهبى" بتماثيل منقوشة تمثله وزوجاته وقيانه . ولما كثر أرقه ملئت له بركة من الزئبق يترجح عليه سريره ، وقد شد بخيوط من حرير الى عمد من الفضة .

وقد حقد عليه بعض جواريه فأغرين به من قتله وهو فى طريقه الى دمشق سنة ٨٦٩

أبو العساكر :

وخلفه ابنه الأكبر " أبو العساكر جيش " وكان فى الرابعة عشرة من عمره لا يفقه لمركزه الخطير معنى، منغمسا فى لهوه، فخرجت سوريا وما يليها عن طاعته وعمت الفوضى فروع الإدارة ونفدت أموال الخزانة فعزله جنده بعد أشهر من اعتلائه العرش .

خاتمة الدولة الطولونية :

وجاء بعده أناس ضعاف لم يحسنوا القيام بواجبات الحكم فأرسل الخليفة الى مصر جيشا بقيادة " محمد بن سليمان " هزم الطولونيين وخرب القطائع عن آخرها ما عدا جامع ابن طولون .

وقد عمرت الدولة الطولونية ٣٧ سنة كانت مصر فيها مستقلة فى الواقع ولذا استعادت كثيرا من عظمتها السالفة و بلغت من الحضارة والرخاء درجة لم تبلغها منذ الفتح الإسلامى .

عودة مصر للخلافة :

بقيت مصر بعد زوال دولة ابن طولون ثلاثين عاما فى هرج ومرج ، لأنها كانت تابعة للخلفاء العباسيين وكان هؤلاء ضعافا لا يستطيعون تأييد الحكام الذين يعينونهم على البلاد فأصبح الأمر والنهى بيد الجند الأتراك وقوادهم واضطر الحكام الى استرضاء الجند بالعطاء كلما أمكن ذلك .

وليس أدل على ضعف الخلفاء العباسيين وولاتهم فى مصر ورغبة المصريين فى التخلص منهم من تمكن "محمد الخالنجى" ، وهو شاب من عامة الناس، من جمع عدد صغير من المصريين فى فلسطين سنة ٩٠٥ وإعادة الخطبة للطولونيين هناك ، ثم دخول مصر وحكمه إياها ثمانية أشهر باسم الطولونيين .

وأدهى من ذلك وأمر، أن مصر كانت عرضة للغزو من جانب الخلفاء الفاطميين الذين ظهرت دولتهم فى المغرب الأقصى حتى نهبوا الاسكندرية ووصلت جيوشهم الى الفيوم سنة ٩١٤ ، وعجز الحكام عن طردهم ست سنوات كاملة رغم حضور المدد من بغداد أكثر من مرة .

الدولة الاخشيدية
(٩٣٥ — ٩٦٩)

إن طرد جيوش الفاطميين لم يعقبه القضاء على الفوضى الضاربة أطنابها فى البلاد ، بل بقى الجند يجوسون خلال الديار ويسومون أهلها سوء العذاب مدة خمس عشرة سنة ، حتى ولى أمرها "محمد الأخشيد" سنة ٩٣٥ بأمر الخليفة الراضى . والأخشيد لقب ملوك "فرغانة" السابقين "ومحمد بن طغج" هذا من سلالة هؤلاء الملوك كان جده ضابطا فى جيش المعتصم وخدم أبوه مدة فى جيش خمارويه . وكان محمد الإخشيد قوى الساعدين لا يقدر رجل آخر أن ينزع عن قوسه . وكان قائدا حذرا يفضل السلم على المغامرة فى الحروب . وبدخوله مصر عاد اليها الأمن والسكينة ولم يجرؤ أحد على الثورة فى وجه جيش الإخشيد وفيه ٤٠٠٠٠ مقاتل .

وقد سبق أن خلفاء بنى العباس كانوا إذ ذاك فى منتهى الضعف ليس لهم من أمر الملك شىء وأن "بنى بويه" حكموا فارس "والحمدانيين" حكموا العراق مستقلين عن الخليفة وكذلك حكم الإخشيد مصر مستقلا بها ، ولكن لا يتأخر عن مد يد المساعدة للخليفة البائس .

الحرب فى سوريا :

وبينما الإخشيد هادئ فى ملكه اذ انقض "ابن رائق" على حمص ودمشق فقاتله المصريون وتم الصلح على أن تكون سوريا شمالى "الرملة" لابن رائق وجنوبيها للإخشيد . ولما مات ابن رائق أخذ الإخشيد

سوريا كلها بغير قتال وأضاف اليه الخليفة مكة والمدينة ثم جعل مصر له ولأبنائه مدة ثلاثين سنة ، فأخذ الإخشيد لابنه البيعة من قواد الجند ووجوه الناس .

ثم أغار سيف الدولة الحمدانى على دمشق وهزم الجيوش المصرية بقيادة كافور ، فخرج اليه الإخشيد ومزق جيشه كل ممزق فى واقعة "قنسرين" ودخل حلب ودمشق ولكنه مع ذلك تنازل عن حلب وشمال سوريا لسيف الدولة حبا فى مسالمته . ومات الإخشيد بدمشق سنة ٩٤٦ ودفن ببيت المقدس .

ويذكر الإخشيد بإعادة الأمن الى نصابه وبجعل مركزه وراثيا وإن كان لمدة محدودة ، مما أدى الى استقلال مصر استقلالا فعليا ، فأصبحت تجبى اليها ثمرات سوريا وغيرها من البلاد التابعة لها .

كافور :

وتولى بعد الإخشيد ابناه "أبو القاسم أنجور" (٩٤٦ — ٩٦١) وأبو الحسن على (٩٦١ — ٩٦٥) ولكنهما لم يعطيا فرصة لإظهار مقدرتهما إذ كانا تحت وصاية "كافور" حاكم مصر الحقيق وكان أبو المسك كافور عبدا حبشيا اشتراه الإخشيد بثمن بخس وولاه قيادة الجيوش ثم نصبه أستاذا لأولاده ، وقد نجح كافور بعد حروب مع الحمدانيين فى مد أملاك مصر الى حدود الأناضول وأحاط نفسه بالشعراء والعلماء وبذل لهم الهبات .

ولما مات أبو الحسن على الإخشيد سنة ٩٦٥ اعتلى العرش "كافور" ومنحه الخليفة لقب أستاذ مصر وأملاكها فبقى يدير شؤونها فى بذخ وتنعم حتى مات سنة ٩٦٨ بعد أن حكم مصر اثنتين وعشرين سنة ، وبمجرد موته اجتمع رجال البلاط وانتخبوا — من تلقاء أنفسهم وبدون رجوع لأمر الخليفة العباسى — من بنى الإخشيد ملكا لمصر وممتلكاتها كما انتخبوا ولى عهد له . إلا أنهما لم يضطلعا بأعباء الحكم فتطلع "المعز" رابع الخلفاء الفاطميين الى ضم مصر الى أملاكه فلم تمض سنة على موت كافور حتى دخل الجيش الفاطمى الفسطاط سنة ٩٦٩ وانفصلت مصر عن بغداد نهائيا .

الدولة الفاطمية

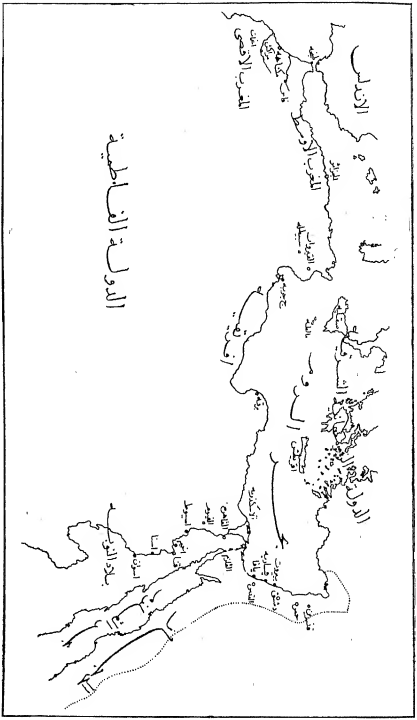
(٩٦٩ — ١١٧١)

لما توفى النبي صلى الله عليه وسلم دون أن يعين خليفة انتخب مسلمو المدينة أبا بكر ثم عمر ثم عثمان خلفاء عليهم وأقر المسلمون عامة ذلك الانتخاب الا أناسا كانوا يرون أن مبدأ الانتخاب يجر الى مشاكل كثيرة وأن الأولى اتباع مبدإ الوراثة ، وأن على بن أبى طالب يجب أن يكون الوارث الوحيد للنبي صلى الله عليه وسلم لأنه ابن عمه وزوج ابنته فاطمة الزهراء وأبو حفيديه الحسن والحسين .

وأصحاب هذا المذهب يعرفون " بالشيعة " لتشيعهم وتشجعهم لعلى وأولاده ، وقد أذكى تحمسهم لأهل البيت الاضطهادات الكثيرة التى أوقعها الأمويون بآل محمد والتى بدأت بحادثة "كربلاء" وأدت الى سقوط دولة بنى أمية وقيام دولة بنى العباس مكانها . الا أن العباسيين اضطروا الى اضطهاد العلويين خوفا من نفوذهم وكثرة الموالين لهم وتعدد الثورات التى قام بها الشيعة يحاولون القضاء على الدولة العباسية و إحلال أحفاد " على " محلها . والذى يعنينا الآن انتشار دعوة الشيعة بين البربر فى شمال إفريقية .

الشيعة فى إفريقية :

لم تكن إفريقية يوما ما مرتبطة بالأمويين ولا بالعباسيين ارتباطا شديدا بل كانت كثيرة الثورات والقلاقل كما رأينا حتى تركها الرشيد شبه مستقلة تحت إمرة بنى الأغلب . لهذا ، ولبعدها عن بغداد ، ولتفشى الجهل بين أهلها وتصديقهم ما يقصه دعاة الشيعة من المظالم التى لا تفتأ تقع على آل بيت محمد ، ولسهولة إثارة حميتهم لدعوة دينية فى الظاهر — لكل هذه الأسباب وغيرها كانت إفريقية تربة خصبة لبث الدعوة لبنى على وفاطمة .


الدولة الفاطمية
الأندلس
المغرب الأقصى
المغرب الأوسط

عبيد الله المهدى :

وأكبر الدعاة لبنى فاطمة فى المغرب "أبو عبد الله الشيعى" ، وقد بدأ ينشر الدعوة سنة ٨٩٣ "لعبيد الله بن محمد" من نسل جعفر الصادق فتبعه خلق كثير أقنعهم بقرب ظهور المهدى المنتظر من بيت النبوّة ، ولم تمض سنون قليلة حتى بلغ جيشه مائتى ألف مقاتل وحتى قضى على الدولة "الأغلبية" فى شمال إفريقية وأعلن "عبيد الله المهدى" أنه المهدى المنتظر وأنه وحده خليفة النبى سنة ٩١٠ وعرف نسله بالفاطميين[1] .

وكان عبيد الله حاكما نشيطا دان له شمال إفريقية من مصر الى قرب شواطئ المحيط الأطلسى ، وقضى على ما كان يرمى اليه الشيعة أنفسهم من إهمال الدين والانغماس فى اللهو ونشر المذاهب الفوضوية .

القائم بأمر الله :

وخلفه ابنه "القائم بأمر الله" (٩٣٤ — ٩٤٦) وقد أرسل جيشا استولى على الاسكندرية سنة ٩٣٥ فطرده محمد الاخشيد وأوقع به هزيمة منكرة . ثم اشتغل "القائم" بإخضاع ثورة داخلية فى المغرب استمرت الى حكم الخليفة الثالث الملقب بالمنصور (٩٤٦ — ٩٥٣) .

المعز لدين الله :

ثم أعقبهم "المعز لدين الله" (٩٥٣ — ٩٧٥) فافتتح عصرا جديدا ، وكان المعز سياسيا محنكا يعرف الشروط التى لابد من توافرها لإحراز النجاح ، ولا يترك فرصة تمر به دون أن يستخدمها لمصالحه. هذا الى أنه كان مثقفا تأخذ بلاغته بالألباب واسع الكرم محبا للعدل .

بدأ المعز بالطواف فى ملكه الشاسع لاستطلاع أدواء الرعية ووصف دوائها وعين "جوهرا الصقلى" وزيرا وقائدا لجنوده ففتح بقية المغرب الى

(١) انتساب عبيد الله الى سيدنا على موضع شك كبير .

شاطئ المحيط ، ولكن أكبر أمانيه كانت فتح مصر لعظم ثروتها ووفرة تجارتها ونشاط أهلها . ولما علمه من ضعف الحكومة بعد موت كافور، وعصيان الجند وانخفاض النيل سنة ٩٦٧ وما تلاه من قحط ووباء فنى به خلق كثير .

جوهر وفتح مصر :

شرع المعز بحفر الآبار على طول الطريق من " القيروان " عاصمة ملكه الى الاسكندرية وتخزين المؤن والذخائر وسير جوهرا القائد من القيروان فى فبراير سنة ٩٦٩ بمائة ألف جندى. فلما وصل الى الاسكندرية طلب السكان منه الأمان فأمنهم وسار الى الفسطاط فاستولى عليها بعد مقاومة يسيرة ، ولم يبت ليلته حتى وضع أساس القاهرة حيث شيد قصرين عظيمين أحدهما قصر الخليفة الخاص والآخر كان بمثابة متنزه يطل على حديقة كافور بينهما ميدان لاستعراض الجند يعرف باسم " ما بين القصرين " . وكان الخليفة يمر من أحد القصرين الى الآخر بطريق تحت الأرض خشية أن تكثر رؤية الناس له فيستهينوا به . وقد بالغ المؤرخون فى وصف هذين القصرين مبالغة عظيمة ، وبنى "الجامع الأزهر" كذلك (٩٧٠ — ٩٧٢) ليصلى فيه الخليفة بالناس يوم الجمعة .

ثم التفت إلى إعادة السكينة وتخفيف وطأة القحط بما أرسله المعز من الحبوب وبإلزام جميع التجار أن يبيعوا حبوبهم بأثمان معتدلة أمام المحتسب (مندوب الحكومة فى السوق) ولضمان العدالة جعل حكم كل جهة بيد حاكم مصرى وآخر مغربى .

اتساع ملكه :

وما لبثت بلاد النوبة أن قبلت أن تدفع له الجزية المعتادة وخطب له الحمدانيون فى شمال الشام وأخضع جنوب الشام وطرد منه حسين الأخشيد .

دخول المعز مصر :

وعند ذلك ألح جوهر على سيده أن يبادر بالحضور الى عاصمته الجديدة فحضر اليها بأهله وولده ، بل ورفات أسلافه ، ودخلها فى مايو سنة ٩٧٣ فاستقبله أهل البلاد بالترحاب وأعجبهم كرمه و بلاغته .

أعماله :

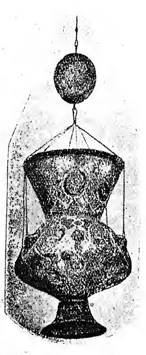
و بحضور المعزّ صارت لمصر السيادة — لا على بلاد النو بة وجنوب الشام فقط — بل على الحجاز و بلاد المغرب نفسها . اذ كانت مركز دولة الفاطميين وقلبها النابض ، تصدر الأوامر الى أنحاء الدولة وتدير شؤونها ، ومنها يذهب الحكام لبقية البلاد .

وقد انتفع المعز بثغور مصر لزيادة أسطوله فأقام حوضا فى المقس — وهى ثغر القاهرة قبل بولاق — و بنى به ستين سفينة وهو أكبر أسطول رأته مصر منذ الفتح الاسلامى واستبق الجيش فى كفاية حربية عظيمة ، وعنى بالنيل والرى والزراعة والقضاء .

وفى آخر حكمه غزا "القرامطة" مصر ووصلوا الى عين شمس سنة ٩٧٤ وانتشروا فى جميع أنحاء القطر يفسدون ويخربون ، ثم حاصروا القاهرة وكادوا يستولون عليها لولا أن عمد الخليفة الى تقديم مبلغ كبير من الذهب الزائف الى شيخ بنى طى أكبر حليف للقرامطة ، فتخاذل فى الموقعة التالية واستطاع "المعز" أن يطارد القرامطة الى سوريا ومات سنة ٩٧٥ فى السادسة والأربعين من عمره . وقد ترك لمصر دولة مترامية الأطراف لم يقو خلفاؤه على الاحتفاظ بها كاملة بل استقلت عنهم إفريقية سنة ١٠٤٦ وضعف نفوذهم فى سوريا التى كانت مهدا للقلاقل . ولم يخضع لهم عن طيب خاطر الا الحجاز رغم ما كان لهم من قوة برية وبحرية إذ اتخذوا جنودا من البربر ، وآخرين من الترك وغيرهم من السودان .

العـــــزيز

خلف العزيز (٩٧٥ — ٩٩٦) أباه وكان حسن الطلعة قائدا جريئا ميالا للتسامح حتى مع أعدائه . وقد استوزر من أول حكمه "يعقوب بن كلس" وهو يهودى اعتنق الإسلام وبقى متربعا فى كرسى الوزارة نحو خمسة عشر عاما وكذلك استوزر "عيسى بن نسطريوس" وبفضل هذين الوزيرين امتلأت الخزانة وانتشرت السكينة فى ربوع البلاد ، ولكنهما كانا يحبان جمع المال ويؤثران مظاهر العظمة والأبهة ولا يقلان عن سيدهما فى حب التحف النادرة والملابس الفاخرة والأحجار الكريمة وغيرها من لوازم الترف والثروة التى جعلت مصر فى عهد الفاطميين مضرب الأمثال .



مشكاة من الزجاج المحلى بالمينا

وأهم من هذا آثار العمارة والهندسة وتنظيم الحكومة فى عهده ، فقد بنى الجامع المعروف بجامع الحاكم لأن الحاكم هو الذى أتمه ، وحفر ترعا عديدة وشيد القناطر والحياض .

و "العزيز" أول من نظم الحفلات الرسمية وأول من أعطى موظفيه مرتبا معينا كما أنه أول من أدخل مماليك الترك فى جيش مصر فكانوا وبالا عليها .

ويعتبر العزيز أحزم خلفاء الفاطميين وأرشدهم . ولسوء حظ مصر لم يعقب العزيز الا ابنا واحدا من أم مسيحية هو الحاكم بأمر الله (٩٩٦ — ١٠٢١) .

الحاكم :

تولى الحاكم فى سن الحادية عشرة وكان أبوه قد عين "بيرجوان" (١) أستاذا له أى وصيا عليه ، وأسندت قيادة الجند "لابن عمار المغربى" ولقب أمين الدولة وأصبح فى الواقع نائبا عن الخليفة ففضل أبناء جلدته وأعانهم على الجند الأتراك الذين جلبهم العزيز ، فكثر الشجار بين الطرفين فى الطرقات وشاع نهب المتاجر وانتهى الأمر بفوز الترك وقتل ابن عمار .

شذوذ الحاكم :

وأصبح الأمر بيد "بيرجوان" ولكنه ترك حبل الأمور على غاربها فبدأ "الحاكم" يباشر الإدارة بنفسه وظهر ميله لسفك الدماء، وبدأ بقتل "بيرجوان" وتجلى شذوذه لرعيته فى عدة أوامر خارقة للعادة منها : إغلاق الحوانيت نهارا ولزوم فتحها وفتح المنازل وإضاءتها ليلا وتحريم صنع أحذية للنساء حتى لا يستطعن الخروج من منازلهن وقطع الكروم ومنع الناس من أكل الزبيب والملوخية والعسل !

وبعد أن قضى عشر سنين من حكمه دون أن يتدخل فى الأمور الدينية لغير المسلمين ، أخذته نوبة من التعصب الأعمى حدت به الى إصدار خطرات من وساوسه تضيق على المسيحيين واليهود فى حين أنه كان يختار منهم أعاظم رجال دولته . وقد تمادى هذا الخليفة الشاذ فى سفك الدماء حتى كان وزراؤه وقواده لا يثقون باستقرار رءوسهم على أجسادهم مهما جلت خدماتهم له .

ومن أهم آثاره إتمام جامع الحاكم الذى بدأه العزيز قرب باب النصر وتشييد "دار العلم" أو "دار الحكمة" لنشر مذهب الشيعة خاصة وتشجيع العلوم عامة. وكانت دار العلم قصرا فخما بها مكتبة كبيرة مباحة للخاص والعام يقصدها العلماء من الأقطار النائية .

(١) لا يزال شارع بيرجوان بالخرنفش يسمى باسمه .

نهاية الحاكم :

أما "الحاكم" فما زال جنونه يشتد حتى خيل اليه أنه إله جدير بالعبادة وساعده ملحدون أتوا من المغرب ومن الفرس وأشهرهم "الدَّرَزى" الذى أسس مذهب "الدروز" فى لبنان على اعتقاد ألوهيــة الحاكم . وقد أثارت دعوته هذه ثائرة المسلمين ووقعت البلاد فى محنة كبيرة ووقف دولاب العمل فى كل مكان وخرج عليه الجند الترك والمغاربة وانضمت اليهم أخت الحاكم "سـيدة الملك" فهزموا الجنود السودانية التى كانت تحميه . وقتل الحاكم وهو يجول فى الصحراء ولم يعثر له على أثر ولا يزال "الدروز" يعتقدون أنه سيعود بعد اختفائه فيصلح العالم .

الظاهر :

وخلفه ابنه الظاهر (١٠٢١ — ١٠٣٦) وكان فى السادسة عشرة من عمره فقامت بأعباء الحكم عمته "سيدة الملك" فلمـا أدركها الموت التف حول الخليفة ثلاثة شيوخ أقصوا عنه كل ناصح أمين وأهملوا الرعية ، وجاء على أثر ذلك انخفاض النيل فعم الكرب واشتد الغلاء وأصبحت الحرب فى الطرقات سجالا بين الجند والأهالى — كل ذلك والخليفة منغمس فى ملذاته عاكف على لهوه وفسوقه .

المستنصر :

ولـمـا مات بالطاعون خلفه ابنه المستنصر (١٠٣٦ — ١٠٩٤) وعمـره سبع سنين ، وكانت مصر قد فقدت كل ممتلكاتها تقريبا فحاول المستنصر أن يسترجع المغرب فأرسـل عرب "بنى هلال" المشهورين ففتحوا برقة وطرابلس فقط وأقاموا فيهما .

أما بلاد العرب فعظم نفوذ الفاطميين فيهـا ، لا بجهودهم أنفسهم بل بقيام دعاة لمذهب الشيعة ملكوا الحجاز واليمن سـنة ١٠٦٣ وأعلنوا حق الفاطميين المقدس فى الخلافة .

وقد توالى الوزراء فى أول حكم المستنصر دون أن يتمكن أحدهم من الاحتفاظ بمركزه طويلا حتى تربع فى دستها رجل عصامى يسمى "اليازورى" (١٠٥٠ — ١٠٥٨) أراد إصلاح حال الفلاح وزيادة الإيراد فحرم على المرابين شراء المحصولات من الفلاحين قبل حصادها بثمن بخس وادخر القمح اتقاء للقحط ، ولكنه رغم ذلك لم يفلح لسوء الحال العامة . وكان اليازورى محبا للفنون مشجعا للعلماء ومات مسموما سنة ١٠٥٨

اضطراب البلاد :

وبموت اليازورى تعاقب وزراء كثيرون لم يستقروا فى الحكم إلا قليلا لضعف الخليفة وتآمر من حوله من حاشية وجيش ، حتى عمت شكوى الرعية من كثرة التغيير والتبديل فى موظفى الحكومة المسئولين وزاد الطين بلة أن اشتد النزاع بين الجند السودانية والأتراك وتغلب الترك وطردوا أعداءهم إلى الوجه القبلى فأصبح الصعيد كله فى قبضة السودانيين. واستولى الترك وحلفاؤهم من البربر على الوجه البحرى وخربوه . وتوالى القحط سبع سنين لغاية سنة ١٠٧٢ حتى أكل الناس الخيل والحمير والكلاب والقطط حتى أتوا على آخرها . ثم انقلبوا يأكلون لحم الآدمى .

ولما فنيت ثروة المستنصر — وكانت ثروة لم يسمع بمثلها — نهب الجند الأتراك قصره ونفائسه وبددوا المكتبة الكبرى وكان بها ما يربى على ١٠٠,٠٠٠ كتاب من أنفس الكتب فى جميع العلوم التى عرفها العرب .

عصر الوزراء العظام

بدر الجمالى :

وقد ضاق الخليفة ذرعا بمساوئ الجند ولا سيما الترك منهم فاستقدم "بدر الجمالى" حاكم عكا وكان أول أمره مملوكا أرمنيا ارتقى فى سلك الوظائف الكبرى حتى عين حاكما لجهات عدة — فحضر بجنده وأمرهم

باغتيال زعماء الترك فى ليلة واحدة فاستراح العباد من شرهم سنة ١٠٧٤ ونزل الجمالى بشارع بيرجوان وأطلق الخليفة يده فى جميع الأمور فأخذ يعيد لقصر الخليفة كل ما عثر عليه من نفائسه السالفة ، ثم فتح البلاد من جديد وخلص الدلتا من يد البربر والصعيد من يد السودانية ، فاطمأن الفلاحون تحت حكمه العادل وعادوا لفلح أرضهم فكانت العشرون سنة الأخيرة من حكم المستنصر عهد أمن ورخاء .

سور القاهرة :

وقد بنى " بدر الجمالى " سورا حول القاهرة وأزال الأبواب القديمة وبنى باب النصر وباب الفتوح وباب زويلة فى مواقع مختلفة من السور كما ترى الآن — بناها على نمط الحصون البوزنطية لما علم من مناعتها .

ومات بدر الجمالى فى ربيع سنة ١٠٩٤ فى الثمانين من عمره وخلفه فى الوزارة ابنه الأفضل شاهنشاه ومات المستنصر فى السنة نفسها .

وهنا يجدر بنا أن نلم بنظام الحكم فى مصر زمن الفاطميين :

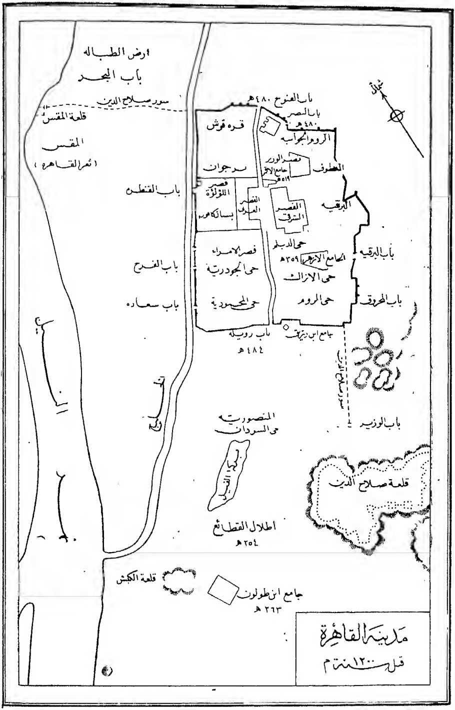
نظام الحكم فى عهد الفاطميين

الجيش :

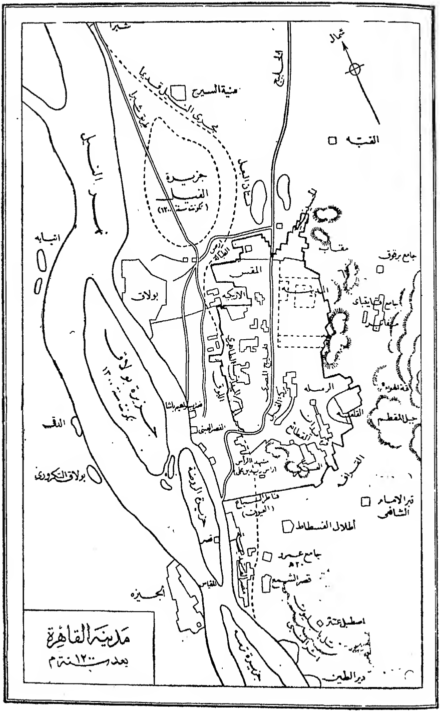
كان الجيش ذا طبقات عدة أهمها طبقة الأمراء وضباط حرس الخليفة يرأسهم الأساتذة ورجال الحرس وعددهم ٥٠٠٠ ، وكانت فرق الجيش كثيرة تسمى كل فرقة باسم الخليفة أو الوزير الذى أوجدها أو حسب جنسيتها كالحافظية والسودانية والرومية والصقلية ، وكان عدد الجيش يزيد وينقص من حين لآخر .

الأسطول :

وكان أسطول الفاطميين مركبا من نحو خمس وسبعين سفينة حربية بلوازمها من النقالات وغيرها وموزعا على الاسكندرية ودمياط وعسقلان .



ارض الطباله
باب البحر
سور صلاح الدين
قلعة المقس
المقس
(ثغر القاهرة)
باب الفتوح ٤٨٠هـ
باب النصر
٤٨٠هـ
شمال
قره قوش
الروم الجوانيه
قصر الوزير
جامع الاقمر
٥١٩هـ
العطوف
سرجوان
باب القنطره
قصر اللؤلؤة
القصر الغربي
القصر الشرقي
البرقيه
بستان كافور
حي الديلم
قصر الامراء
الجامع الازهر ٣٥٩هـ
باب البرقيه
باب الفرج
حي الجودرية
باب سعاده
حي المحمودية
حي الروم
باب المحروق
باب زويله
٤٨٤هـ
سور صلاح الدين
المنصورية
حي السودان
بركة الفيل
باب الوزير
قلعة صلاح الدين
اطلال القطائع
٢٥٤هـ
قلعة الكبش
جامع ابن طولون
٢٦٣هـ
مدينة القاهرة
قبل سنة ١٢٠٠ م



مدينة القاهرة
بعد سنة ١٢٠٠ م

الموظفون :

وكان الموظفون قسمين رجال السيف ورجال القلم ، أما رجال السيف فنهم الوزير عادة والحاجب وهو يلى الوزير فى المرتبة وقائد الجيوش العام وحامل مظلة الخليفة وحامل سيفه وحامل رمحه وصاحب شرطة القاهرة والفسطاط ثم خدم القصر .

أما رجال القلم فنهم الوزير أحيانا وقاضى القضاة ، وكان يشرف على ضرب النقود ويجلس للقضاء فى جامع عمرو يومى السبت والثلاثاء ومدير دار الحكمة والمحتسب وخازن بيت المال ، ويتبع رجال القلم صغار الموظفين فى مصالح الحكومة غير العسكرية .

الأقاليم :

كانت مصر مقسمة إلى أربعة أقسام كبرى : الصعيد ويسمى إقليم قوص يقوم بأمره حاكم عظيم ، والشرقية وهى كل ما يلى فرع دمياط شرقا وأهم مدنه بلبيس وقليوب ، والغربية وهى ما بين فرعى النيل وأهم مدنها المحلة ومنوف وابيار ، واسكندرية منضما إليها البحيرة . وكان حاكم كل إقليم يولى من قبله حكاما على النواحى والقرى ، وتقوم الحكومة المحلية بكل الأعمال التى تعنى الجهة بما فى ذلك الاحتفاظ بالترع والجسور المحلية ، أما الجسور العامة فكان يلاحظها موظف تنتخبه الحكومة العليا سنويا ويساعده عدد كبير من الخبراء .

ولما مات بدر الجمالى والمستنصر سنة ١٠٩٤ لم يعد للخلفاء الفاطميين حول ولا قوة وأصبح الحكم فى مصر بيد وزراء متنازعين يريد كل منهم أن يصرف الأمور كما يهوى لا يتقيد برغبة الخليفة . ولذا أهملت طريقة الوراثة فى الخلافة وصار كل وزير يختار من بين سلالة الفاطميين أصغرهم سنا أو أضعفهم إرادة ليملأ به عرش الخلفاء كلما خلا .

فلنترك هؤلاء الخلفاء المستضعفين جانبا ولنأت على شىء من ذكر الوزراء الذين ساسوا البلاد إلى انقضاء دولة الفاطميين .

الأفضل :

خلف بدرا الجمالى ابنه الأفضل شاهنشاه فسار سيرة أبيه بالعدل والحزم واستمرت الطمأنينة والرخاء . وكان شغله الشاغل اتقاء الخطر الذى يتهدد مصر من جانب الشرق حيث نزلت الحملة الصليبية الأولى فى سوريا وشرعت تنتزعها من يد السلاجقة والمصريين على السواء . وكانت سوريا بوجه عام تابعة لمصر من أيام ابن طولون ، لم تشذ عن حكمها إلا فى فترات يسيرة ، فلما أخذ الصليبيون بيت المقدس سنة ١٠٩٩ وتوغلوا فى جنوب فلسطين ، حاول " الأفضل " أن يصد غاراتهم فهاجمهم مرارا دون جدوى حتى تشجع " بلدوين " ملك بيت المقدس ودخل الحدود المصرية سنة ١١١٧ وأحرق " الفرما " وتقدم إلى " تنيس " ولم يرجعه عن فتح مصر كلها إلا مرضه . ومن ذلك الوقت التزمت مصر خطة الدفاع عن نفسها وقتل " الأفضل " بإيعاز من الخليفة سنة ١١٢١

طلائع بن رزيق :

وبقيت مصر بعده فى فوضى لا تكاد سلطة الحكومة تمتد خارج قصر الخليفة حتى تولى الوزارة "طلائع بن رزيق" بلقب الملك الصالح سنة ١١٥٤ فضرب بيد من حديد على زعماء الفوضى وعاقب المجرمين وكانت مصر شديدة الحاجة إلى رجل قوى مثله بعد أن فقدت عسقلان فى السنة السالفة وكانت عسقلان آخر حصن من فلسطين فى يد المصريين ، يتطلع ملوك بيت المقدس إلى الاستيلاء عليه وتدافع عنه مصر بكل جهدها .

طمع الصليبيين فى مصر :

فلما استولى ملك بيت المقدس على عسقلان لم يبق أمامه ما يمنعه من غزو مصر ، اللهم إلا خوفه من أن ينقض السلطان " نور الدين محمود " صاحب حلب على مملكته أثناء تغيبه بمصر ، لا سيما حين دخلت دمشق فى حوزة نور الدين سنة ١١٥٤ بعد أن كان أميرها حليف الصليبيين .

ومن ذلك الوقت تطلع كل من سلطان حلب وملك بيت المقدس إلى منع الآخر من امتلاك مصر . وقد بذل " طلائع " كل ما فى وسعه لمحالفة نور الدين بقصد طرد الصليبيين من " سوريا " ولكن نور الدين لم يبت فى الأمر فصرف "طلائع" همته إلى توطيد دعائم الأمن فى مصر نفسها ، حيث عرف بقوة العارضة والكرم واستماع شكايات الرعيـة على اختلاف طبقاتها ومد يد المعونة إلى ذوى الفطنة والعلم .

ولما قتل " طلائع " بدسائس القصر خلفه ابنـه " العادل رزيق " . ولم تأت سنة ١١٦٣ حتى تغلب عليه " شاور " وقتله . إلا أن "شاور" لم يتم سنة فى الوزارة حتى نازعه فيها "ضرغام" حاجب الخليفـة . ففر " شاور " إلى نور الدين واستنجد به وتعهد أن يقوم بجميع تكاليف الحملة اللازمـة لعزل ضرغام من الوزارة ، ويدفع ثلث إيراد مصر جزية سنوية لنور الدين .

أما "ضرغام" فلم يجد بدا من الاستعانة "بأمورى" ملك بيت المقدس ، فلما حضر هذا إلى مصر اضطر نور الدين إلى إرسال حملة بقيادة أسد الدين شيركوه تغلبت على ضرغام والصليبيين ونصبت شاور وزيرا .

وما زال نور الدين وأمورى يتنازعان على مصر حتى انتهى الأمر بفوز نور الدين وصارت مصر مركزا لدولة صلاح الدين الأيوبى كما تراه مفصلا فى الحروب الصليبية .

الفصل الرابع

مصر والحروب الصليبية

اوربا قبيل الحروب الصليبية :

رأيت فى السنة الأولى غارات المتبربرين على الدولة الرومانية وعرفت كيف انتشروا فى أوربا وما نشأ عن ذلك من سقوط الدولة الرومانية الغربية سنة ٤٧٦ م . على يد "ادوكر Odoacer .

واذا نظرت إلى الخريطة المرسومة على صفحة ٦ رأيت أهم القبائل المتبربرة تمثل اقاليم أوربا المختلفة : فالقوط الغربيون فى اسبانيا وهؤلاء عرفتهم حين درست فتح العرب للاندلس سنة ٧١١ ، والفرنجة فى شمال فرنسا وتقدم لك أن زعيمهم «شارل مارتل» هو الذى هزم العرب فى موقعة تور سنة ٧٣٢ ، والبرغنديون فى حوض نهر الرون وهؤلاء اندمجوا فى الفرنجة فيما بعد . ثم هناك الألمان فى أعالى نهر الرين والقوط الشرقيون فى حوض نهر الطونة الأوسط وشمال ايطاليا ، والى الشرق ترى الصقالبة فى روسيا ، وأخيرا تجد الانجليز والسكسون فى انجلترا .

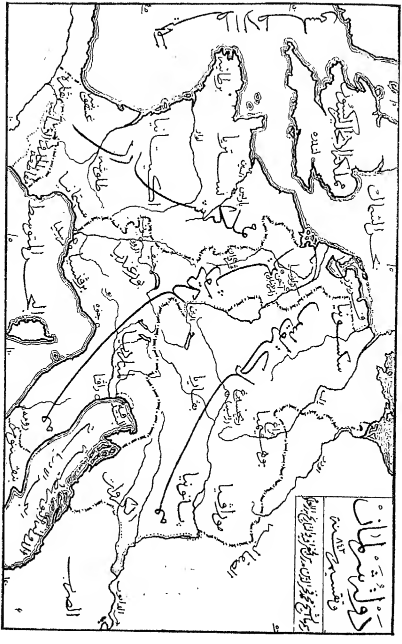
ولكن لايخطرن ببالك أن هذه الشعوب بقيت ثابتة فى هذه الجهات ولم تتجاوزها الى غيرها ، اذ الواقع أنها كانت تتنقل ويغير بعضها على البعض الآخر ، وعلى السكان الأصليين . ومن هذه الاغارات واختلاط الغالبين بالمغلوبين نشأت الشعوب الأوربية الحالية بعد تقلبات شتى ، وبتدرج اختلف سرعة وبطأ باختلاف ظروف كل جهة .

وكان في الديانة المسيحية إذ ذاك مذهبان كبيران يتميز كل منهما عن الآخر:

المذهب الأورثوذكسي في شرق أوربا ورئيسه بطريق القسطنطينية، والمذهب الكاثوليكي في غرب أوربا وعميده "بابا رومه". وأهم الشعوب التي اعتنقت المذهب الأورثوذكسي هم الصقالبة وأما الآخرون فكانوا من أتباع المذهب الكاثوليكي. وكانوا شديدي التعلق بالدين، وعظمت بذلك منزلة البابا إذ كانت بيده مفاتيح السعادة في الحياة الأخرى، وهي الغرض الأسمى في تلك العصور.

ومن أسبق الشعوب إلى معاضدة البابا قبائل الفرنجة وبهذه الوسيلة استطاع ابن شارل مارتل الآنف الذكر وكان اسمه "بيبين" أن يصير ملكا على الفرنجة سنة ٧٥١. وخلفه ابنه "شرلمان" صديق هارون الرشيد وامتدت دولته من نهرى الألب والطونة شرقا إلى جبال "البرت أو البرنات" غربا ومن بحر الشمال والمانش إلى رومه جنوبا. وكان شرلمان أعظم شخصية ظهرت في أوربا في العصور الوسطى، وكان الخلاف على عبادة (الايقونات) أو الصور بين كنيسة القسطنطينية وكنيسة رومه قد ضاعف النفور بين المذهبين ولم يعد أباطرة الدولة الرومانية الشرقية يعنون بأمور الغرب. فأراد البابا أن يجدد الدولة الرومانية في الغرب الذي فيه نشأت لتكون الامبراطورية الجديدة عونا له. وانتهز فرصة وجود شرلمان وكان قد حضر لمساعدة البابوية في كنيسة الرسول بطرس برومه في عيد ميلاد سنة ٨٠٠ ووضع على رأسه تاج الامبراطورية الرومانية.

ولم تمض ثلاث وأربعون سنة على هذا التتويج حتى احتدم الخصام بين احفاد شرلمان الثلاثة، وقسموا دولته فيما يعرف بمعاهدة ڤردان سنة ٨٤٣ فأخذ "لوتير" لقب الامبراطورية والأراضي المتوسطة في أملاكها وأهمها هولندا الحالية وحوض الرين إلى قرب ما ينز وحوض الرون وسويسرة وشمال ايطاليا. ولا تزال "اللورين" تذكرنا باسمه إلى الآن. وأخذ لويس القسم الشرقي من امبراطورية جده، ونال شارل الجزء الغربي منها، ولم تدم



هذه المعاهدة طويلا ، إلا أنها تركت آثارا باقية فالقسم الشرقى صار ألمانيا والقسم الغربى صار فرنسا ، والقسم الأوسط كان — وما تزال قطعة منه وهى الالزاس واللورين — موضع النزاع بين ألمانيا وفرنسا .

وتعرضت هذه الدول لهجوم متبربرين آخرين جاءوا من الشمال وأعظمهم شأنا " النرمنديون " الذين بقى اسمهم فى مقاطعة "نرمندية" فى شمال فرنسا .

ولم يستطع الملوك صد هذه الغارات فاضطر كبار الملاك فى كل جهة أن يعتمدوا على أنفسهم فى الدفاع عن بلادهم فسلحوا اتباعهم لحمايتها وكسبوا بذلك رضاء الأهالى ، وأصبحوا شبه مستقلين . وفى أثناء هذا الاضطراب لم يأمن صغار الملاك على أنفسهم ، ولا على أرضهم فلجأوا إلى كبار الملاك ووضعوا أرضهم تحت سيادتهم ، وتسلموها منهم ثانية بشروط يوفون بها مقابل حماية كبار الملاك لهم .

ومعنى هذا أنه نشأ فى أوربا فى العصر الوسيط عهد أقطاع شبيه بما رأيته فى تاريخ الفراعنة من الأسرة السابعة إلى الأسرة العاشرة .

واليك نظرة فى حال المجتمع الأوربى قبيل الحروب الصليبية :

طبقات المجتمع :

الملوك : لم يكن الملوك يتميزون عن عظماء الأشراف وهم كبار أمراء الأقطاع بغير اللقب فلم يكن للملك ايراد ثابت ولا جيش دائم ، اذ كان اعتماده فى كل ذلك على ما يمده به أتباعه . وكثيرا ما كان يوجد بين أتباع الملك من هم أكثر منه ثروة وأعز نفرا ، لا يترددون فى محاربته ، وانتقاص أملاكه ، وكسر شوكته .

الأشراف : كان كل شريف مستقلا فى قطيعته يتصرف فيها كيف شاء : بيده حق الادارة والقضاء والتجنيد وسك العملة . يقضى وقتـه فى الصيد والحروب التى يثيرها على جيرانه وأتباعه ، ويعيش فى قصر حصين مشيد فى الغالب على جبل أو تل ، يحيط به خندق واسع لايسهل عبوره الا بواسطة قنطرة متحركة يحرسها فرسان مدججون بالسلاح . وفى قمة القصر برج عال للدفاع عنه اذا هاجمه عدو .

وفى الطبقات السفلى منه مخازن لحفظ المؤن والذخائر وكل ما يحتاج اليه أهل القصر من مأكل ومشرب وعدة حتى لايؤخذوا على غرة اذا هم حوصروا . وكذلك كان بهذه الطبقات كهوف مظلمة أعدت لحبس المجرمين أو الأسرى والأعداء .

وفى أحد أبهاء القصر كان الشريف يعقد محكمته بحضـور أتباعه ويولم الولائم أيام الأعياد والأفراح .

الفرسان :

وربما كان أهم ما خلفه العهد الاقطاعى ظهور الفروسـية التى تنطوى على مبادئ انكار الذات (١) وإيثار الغير والمروءة والشهامة ونصرة الضعيف واحترام (٢) المرأة .

وكان العرب يعتمدون على الخيل فى حروبهم فلما قابلهم "شارل مارتل" فى موقعة " تور " سنة ٧٣٢ أعجب بما للخيل من الصفات الحربية فكوّن فرقا من الفرسان على النسق العربى ، ومن ثم انتشر النظام فى كل أوربا .

نشأة الفارس :

وكان الفرسان يلبسون دروعا ثقيلة من المعادن المختلفة لوقاية أجسامهم ويحاربون بالرماح والسيوف .

وكان أبناء الأشراف ينضمون من سن السابعة الى فارس مشهور ينشأون معه ويقومون بخدمته ويتعلمون منه ضروب القتال وآداب المائدة والحديث والاستقبال ويصحبونه فى الصيد والحرب . وفى سن الحادية والعشرين يحتفل بتلقيب الشاب فارسا . وكانت الحفلة بسيطة فى أول أمرها ولكنها صارت دينية فأصبح الشاب يقضى ليلة الحفلة فى العبادة تاركا سيفه على المذبح ليباركه القسيس ، فاذا أصبح حضر الصلاة ثم تقدم سيده فضرب كتفه بعرض السيف قائلا " قم فأنت فارس " ويلقنه واجبات الفروسية ويقسم الشاب أن يكون خادما للكنيسة حاميا للمظلوم والضعيف عفوفا طاهر الذيل كريما محافظا على مواعيده مضحيا كل شيء لأجل دينه ووطنه وصحبه .



فارس فى القرن الخامس عشر

ومن هذا يتضح أن الفروسية كان لها مظهران ، مظهر حربى تولد من نظام الأقطاع ، ومظهر انسانى جاء عن طريق الكنيسة . وكان يرجى من عهد الفروسية أن يخدم المجتمع فى عصر كثرت حروبه وانحطت فيه الأخلاق ، لولا أن الفروسية كانت أرستقراطية قبل كل شيء فلم يستفد عامة الشعب منها كثيرا .

رقيق الأرض :

كان السواد الأعظم من القائمين بفلح الأرض وغيره من الأعمال من طبقة الاقنان أو رقيق الأرض وكانوا مرتبطين بالأرض ملزمين بالعمل فى أرض السيد الخاصة نحو نصف الاسبوع . وكانت حالة هذه الطبقة فى منتهى البؤس ، يعيشون فى أكواخ حقيرة من غرفة واحدة لا يدخلها الهواء والنور إلا من نافذة صغيرة .

المدن :

لما كان الدافع الأول لتكون المدن فى العصور الوسطى حماية أهليها واللاجئين اليها من غارات الأعداء ، دعت الحاجة إلى احاطتها بسور يكون درعا لها . ولهذا السبب أيضا كانت بيوتها متقاربة ، وأزقتها ضيقة على عكس ما عليه المدن الحالية من السعة والعظمة . فجاءت مدن العصر الوسيط خلوا من المسارح والمتنزهات والميادين ، واقتصر على فضاء صغير تعقد فيه السوق . ولم تستطع المدن أن ترقى إلا بعد أن تحررت من تبعيتها للسيد وأقامت من أهلها حكومة محلية موافقة لمصالحهم وأفكارهم . وساعد على ذلك الحروب الصليبية كما سترى بعد .

التجارة :

لما اضمحلت الدولة الرومانية قلت العناية بالطرق التى كانت شرايين التجارة من أقصى الدولة إلى أقصاها ، واضطرب الأمن بسبب توغل المتبربرين فى انحاء الدولة فكسدت التجارة والصناعة . واكتفت كل مدينة وكل قطيعة بما تنتجه فوقفت حركة التبادل وقل النقد .

ومن قيود التجارة فى ذلك العصر اضطرار التاجر أن يدفع عوائد وضرائب متباينة على الطرق العامة وعلى رءوس القناطر والمعابر ودخول المدن وعبور حدود كل مقاطعة ، فضلا عما يحدث من ضياع الوقت والنهب . ومنها

اختلاف النقد من جهة إلى أخرى فى حدود المملكة الواحدة ، والأخطار العظيمة التى كانت تحيط بالتجارة فى البحر من هجوم القرصان وقلة المنائر على الشواطئ ، وسوء حالة الثغور وقلة الحياض .

أما الحالة العلمية والفنية فسيجيء الكلام عنها فى الفصل الأخير من هذا الكتاب .

كلمة عن الدول الأوربية التى اشتركت فى الحروب الصليبية :

فرنسا :

بقى ملوك فرنسا يتمتعون بالسيادة الإسمية فى أنحاء البلاد الى أن انتخب "هيو كابت Hugh Capet" ملكا سنة ٩٨٧ ومن هذا الملك تناسل كل ملوك فرنسا من ذلك الوقت . على أن هيو كابت ما كان يملك غير دوقية صغيرة تقع بين نهرى السوم واللوار وتشمل باريس وأرليان . وفيما عدا ذلك كان يحكم فى كل مقاطعة أمير مستقل يعترف للملك بشيء من الطاعة ، ويقدم له بعض الخدمات أحيانا ، وقد يثور عليه ويحاربه .

وقد قضى ملوك فرنسا ثلاثة قرون يجورون على أملاك الأمراء بأشكال وطرق شتى ويوسعون أملاكهم حتى صارت فرنسا كلها لهم وأصبح كل فرنسى رعية للملك .

ومن أهم ملوك فرنسا بعد هيوكابت الملك "فليب الأول" وفى عهده دعا البابا "أربان الثانى" الى الحرب الصليبية الأولى وعقد الاجتماع فى "كليرمنت Clermont "فى جنوب فرنسا سنة ١٠٩٥ وخرج الى الشرق كثير من أدواق فرنسا الأقوياء لم يعد الى فرنسا منهم إلا عدد يسير . فكان ذلك من حسن حظ الملك إذ قل عدد المعارضين له . وزاد بذلك نفوذ ملوك فرنسا و إيرادهم فاستطاع خلفه "لويس السابع" أن يشترك فى الحرب الصليبية الثانية ، كما ساهم فليب أغسطس من بعده فى الحرب الصليبية الثالثة ومن ملوك فرنسا أيضا "لويس التاسع" الذى حضر بحملة صليبية الى مصر سنة ١٢٤٩

ألمـانيا وايطاليـا :

كان الجزء الشرقى من أمبراطورية شرلمـان — وهو ألمـانيا إجماليا — مقسما إلى ست دوقيات مستقلة لا تخضع لأحفاد شرلمـان إلا خضوعا اسميا . ولمـا كثر هجوم الصقالبة وغيرهم على ألمـانيا عمت الفوضى وخشى بعض الأدواق عاقبتها إذا استمر الحكم بيد أحفاد شرلمـان الضعاف فاختاروا دوق سكسونيا ملكا للبلاد ووافق الأدواق الباقون على هذا الاختيار وعرف الملك الجديد باسم "هنرى الأول" وعمل على كسب طاعة الأدواق بالطرق الودية فصارت المـانيا تحالفا من ست دوقيات زاد الارتباط بينها فى عهد ابنه " اتو الأكبر " (٩٣٦ — ٩٧٣)

وكانت ايطاليا تحت حكم الأمبراطور وريث شرلمان الا أن هذا لم يكن له حول ولاقوة فكانت البلاد تمزقها المشاحنات ويشملها الاختلال اذ كانت عرضة لغارات المجر ، واستطاع العرب أن يحكموا جزأ منها فى القرن العاشر وتصادف أن اختلف البابا مع بعض احزاب رومه فاستعان باتو الأكبر فحضر الى رومه وأيد سلطان البابا وكان جزاؤه أن توجه البابا سنة ٩٦٢ أمبراطور رومانيا مقدسا أى أن الكنيسه نقلت وراثة الأمبراطورية من نسل شرلمان الى أتو السكسونى ملك المـانيا .

وأهم ما نجم عن تتويج " اتو " أن ارتبطت المـانيا وايطاليا وصار خلفاء " اتو " يؤثرون — باعتبارهم خلفاء أباطرة الرومان القدماء — أن يخضعوا ايطاليا . فقسموا جهودهم بين هذه البلاد والمـانيا وضعفت قوة الأمبراطور فيهما ، وقوى أمراء العهد الاقطاعى فتأخر اتحاد المـانيا وايطاليا الى القرن التاسع عشر .

وما لبث البابوات ان زعموا أنهم هم الذين عينوا شرلمان ثم اتو اباطرة وانه لذلك يجب على الاباطرة ان يخضعوا للبابا لانه سيدهم الذى لا يسأل عما يفعل وهم يسألون . وقال أعوان الامبراطورية إن القوة الزمنية فائقة على

القوة الروحية واستدلوا على ذلك بما ورد فى الانجيل "أعطو ما القيصر لقيصر وما لله لله" فانقسم العالم المسيحى فى غرب اوربا الى قسمين فريق يؤيد البابا وفريق يعاضد الامبراطور وشرع كل فريق يخضع الآخر فنشأ الكفاح بين الامبراطورية والبابوية واستمر نحو قرنين من الزمان وانتهى باضعاف الطرفين .

ومن خلفاء "اتو الاكبر" الأمبراطور "كنراد الثالث" وسنرى اشتراكه فى الحرب الصليبية الثانية، ومنهم الأمبراطور "فردريك بربروس" الذى سيساهم فى الحرب الصليبية الثالثة سنة ١١٨٩ .

انجلترا :

من عهد سحيق انتقل قوم من الجنس الكلتى من سكان مقاطعة « برطانيـة » فى شمال غربى فرنسا إلى الجزيرة المواجهة لهم وسموها « بريطانيا » باسم بلادهم الأصليـة ومنها نزلوا إيرلنـده . وبقى هؤلاء الأقوام أصحاب الشأن فى البلاد إلى أن دخلوا ضمن الامبراطورية الرومانية سنة ٤٣ م وبقوا خاضـعين لها حتى أخذت الدولة فى الضعف واضطرت منذ سنة ٤٠٢ م إلى سحب حامياتها من هذه الجهات النائية لتحمى وطنها الأصلى وهو ايطاليا من غارات أقوام غير متحضرين التى سمعت بها .

وكان البريطانيون قد نسوا صفاتهم الحربية الأولى فلم يستطيعوا مقاومة هؤلاء الأقوام الذين جاءوهم من ألمـانيا على الأكثر . وهؤلاء المغيرون هم الانجليز والسكسون والجوت . وسرعان ما أصبحت البلاد تعرف باسم « انجلند » أى أرض الانجليز .

وكوّن المغيرون إمارات متعددة متنافرة ثم تغلبت إحداهن على الإمارات الأخرى سنة ٨٢٥ وعظم شأنها أيام ملكها «الفرد الأكبر» (٨٧١—٨٩٩) ومن آثاره أن أمر بترجمة بعض كتب الأقدمين إلى اللغـة الانجليزية

السكسونية فارتقت هذه اللغة . وبعد فترة من الرق أغار الدنمرقيون على البلاد وأخضعوها ، ثم استردت استقلالها سنة ١٠٤٣ وكان إذ ذاك ملكها ادوارد التقى (Edward the Confessor) .

ومات هذا سنة ١٠٦٦ دون أن يترك ولدا فادعى العرش أناس كثيرون منهم وليم دوق نرمنديه التى سبق ذكرها فعبر المانش وانتصر على خصمه وعرف باسم وليم الفاتح ثم توج ملكا على انجلترا .

أراد وليم من أول الأمر إضعاف الأقطاع فكان يمنح كل بارون مساحات صغيرة فى أقاليم متباعدة حتى لا يستطيع جمع أتباعه لمناوأة الملك . ثم طعن الأقطاع طعنة نجلاء إذ كان المعروف فى أوربا أنه إذا حدثت حرب بين الملك وأحد البارونات وجب على أتباع البارون أن يحاربوا تحت لواء سيدهم ضد الملك . ولمنع هذا الخطر جمع وليم كل ملاك الأرض من جميع الطبقات سواء فى ذلك التابعون له مباشرة والتابعون للبارونات فركعوا أمامه وأقسموا يمين الطاعة والولاء أن يكونوا فى صف الملك إذا حدث نزاع بينه وبين البارونات .

ومن أحفاد وليم الفاتح الملك رتشارد قلب الأسد وهو الذى سنراه يساهم فى الحرب الصليبية الثالثة .

اسبانيا والبرتغال :

فتح العرب هذه البلاد سنة ٧١١ وبقوا فيها إلى سنة ١٤٩٢ فكان اهلها أكثر هذه المدة مشتغلين بمطاردة العرب ولذلك لم يشتركوا فى الحروب الصليبية التى احتدم أوارها فى الشرق الأدنى من سنة ١٠٩٩ الى سنة ١٢٩١ .

حالة الشرق قبيل الحروب الصليبية

تمهيـــد :

عرفنا كيف امتدت أملاك الدولة الإسلامية فى القرن السابع فوسعت بلاد العراق والفرس والشام ومصر . وكيف امتـدت هـذه الفتوحات فى القرن الثامن حتى شملت بلاد المغرب والأندلس غربا وحتى وصلت الى نهر جيحون شرقا . ولم يكن من المستطاع بقاء هـذه الممتلكات الواسعة خاضـعة لحكومة واحدة مدة طويلة ، وذلك بسبب تعـدد الأجناس المختلفة و بسبب النزاع والتنافس القائم بين القبائل العربية (مثل مضر وحمير) و بسبب ظهـور الخوارج . لذلك مالبثت الدولة أن تمزقت واسـتقلت الأجزاء المتطرفة منهـا كبلاد الأندلس و بلاد المغرب ثم مصر ثم الشام ثم شمال شرقى بلاد الفرس وعلى ذلك ضعف سلطان الخليفة العباسى منذ القرن العاشر ولم يتعد نفوذه بلاد العراق .

ظهور الأتراك السلاجقة :

ثم كثرت الجنود المرتزقة من الأتراك فى خدمة الخليفة واغتصبوا السلطة السياسية منه تدريجا ، فظهـرت قوة الأتراك السلاجقة فى القرن الحادى عشر و يعرفون بذلك نسـبة الى زعيمهم "سلجوق" . ومهدهم الأصلى الأراضى التى حول بحـر قزوين وراء نهر جيحون . والمؤسس لسلطتهم السياسية هو "طغرل بك" السالف الذكر إذ قلده الخليفة "القائم بأمر الله" السلطة الزمنية سـنة ١٠٥٥ واقتصر الخليفة على سلطته الدينية وقرن اسمـه باسمه فى الخطبـة . وأخذ السلاجقة يمـدون نفوذهم شيئا فشيئا حتى شمل بلاد العجم والعراق والشام وآسيا الصغرى .

ألب أرسلان :

وفى عهـد السلطان " ألب أرسلان " الذى خلف طغرل بك (١٠٦٢ — ١٠٧٢) هدد السلاجقة ممتلكات الدولة البوزنطية فى آسيا الصغرى وهددوا حدود مصر أيضا ، ولما شعر البوزنطيون بالخطر الداهم ثاروا على أمبراطورهم وولوا عليهم جنديا اسمه "رومانوس الرابع" فهاجم السلاجقة بقوة بوزنطية عظيمة وتقابل الفريقان فى أرمينيا وانهزم البوزنطيون أخيرا سنة ١٠٧١ فى واقعة " ملازكرد Manzikert" قرب بحيرة " وان " وتعد هذه الواقعة من الوقائع الحاسمة لأنها مدت سلطان السلاجقة الى سواحل بحر مرمرة وعرضت عاصمة الدولة البوزنطية للخطر حتى صار الامبراطور يدفع الجزية للسلاجقة .

فضل السلاجقة :

والى السلاجقة يرجع الفضل فى تجديد قوة الاسلام واعادة تكوين وحدته السياسية فقضوا على الدويلات التى قامت فى الأقاليم الاسلاميـة بسبب ضعف الخلافة .

وكان الأتراك السلاجقة مفطورين على حب البساطة والحـروب كما كان العرب فى أول أمرهم فلم يتأثروا بالسكنى فى الحضر ومعيشة الترف، فأدخلوا روحا جديدا فى الاسلام ونهضوا به نهضـة عظيمة فى القرن الحادى عشر .

الملك شاه :

وجاء بعد " ألب أرسلان " ابنه السلطان جلال الدين " الملك شاه " (١٠٧٢ — ١٠٩٢) وهو أعظم سلاطينهم ووزيره " نظام الملك " من أعظم وزراء الاسلام وكان ملكه يمتد من نهر السـند الى البسفور واهتم " الملك شاه " بشؤون الحكومة بنفسه وظل طول حياته يجول فى الأقاليم المختلفة

ليتعرف أحوال رعيته فنظم القوانين ونشر العدالة واهتم بالتعليم وعضد الشعراء والعلماء وظهرت المدارس والجامعات فى المدن الاسلامية وأهمها المدرسة النظامية والمدرسة الحنفية فى بغداد وما زال " نظام الملك " ساعيا فى نشر العلم حتى وشى به فعزل .

الأتابكة :

ولما مات الملك شاه سنة ١٠٩٢ ضعفت دولة السلاجقة وانقسمت بين أبنائه وأقاربه الذين كان يعينهم حكاما ويطلق عليهم اسم " الأتابكة " وعلى ذلك قامت على أنقاض دولته حكومات صغيرة تعرف بحكومات الأتابكة ، وكان هؤلاء يتشبهون "بالملك شاه" ويحاولون مواصلة خطته من حيث الاهتمام بالقانون والتعليم .

التمهيد للحروب الصليبية :

وبسبب تمزق دولة السلاجقة عاد الاسلام ضعيفا كما كان قبل ظهورهم وتفككت أواصر وحدته السياسية وحرم زعيما قويا يقود القوات الاسلامية ضد المهاجمين من الصليبيين واستمر الحال كذلك الى سنة ١١٢٧ حين ظهر "عماد الدين زنكى" كما سيأتى بعد .

ولو أن الحروب الصليبية التى ابتدأت بعد أربع سنين من موت الملك شاه جاءت متقدمة قليلا لتعذر نجاحها ، ولكن البابا " اربان الثانى Urban II" اختار للحملات الصليبية الوقت المناسب فنجحت الحملة الأولى.

الحروب الصليبية :

الحروب الصليبية حملات دينية عظيمة قامت بها أوربا مدة من الزمان من القرن الحادى عشر الى القرن الثالث عشر لتخليص الأراضى المقدسة فى فلسطين من أيدى المسلمين، ولإيجاد كنيسة وحكومة لاتينية فى الشرق.

وانما سميت بهذا الاسم لأن الذين اشتركوا فيها من أهل أوربا كانوا يضعون علامة الصليب على أكتافهم إشارة لمهمتهم المقدسة . والأسباب التى دفعت أوربا الى خوض غمار هذه الحروب :

١ — الشعور الدينى :

كان الناس فى العصور الوسطى يعتقدون فى قوة الكنيسة ويخشون بأسها وعقابها و يمتثلون أوامر رجالها ، وكانوا لشدة جهلهم وانحطاط حالهم يقترفون آثاما كبيرة و يحملون أنفسهم خطايا عديدة ، ولم يكن أمام المسيحيين فى ذلك الوقت سبيل لرفع هذه الخطايا إلا القيام بالأعمال الصالحة كالحج والصوم وتعذيب الجسم والتخشن فى الملبس واقتناء المخلفات ، وأهم هذه الأعمال فى نظر الناس الحج الى الأماكن المقدسة التى وطئتها أقدام السيد المسيح وعذب فيها من أجل دعوته الدينية . واذا كان ثواب الحج فى نظر الناس عظيما ، فكم يكون عظيما ثواب القتال فى سبيل تحرير هذه البلاد من أيدى المسلمين ؟

٢ — جهل السلاجقة بتسامح الاسلام :

ولقد ظل السبيل الى زيارة الأماكن المقدسة متيسرا فى عهد دولة الخلافة العربية وعهد استيلاء الفاطميين على فلسطين . فقد كانت تلك الأماكن محترمة فى نظر المسلمين كما كانت فى نظر المسيحيين . ولكن لما استولى السلاجقة على فلسطين سنة ١٠٧٦ — وكانوا حديثى عهد بالاسلام — أظهروا تمسكا شديدا بالدين ونسوا أنه مؤسس على التسامح فتغيرت الحال فلم يعد يلقى حجاج بيت المقدس من التسامح فى الدين ما كانوا يلقونه من قبل على أيدى أكثر الناس معرفة بحقيقة الاسلام .

٣ — مطامع البابوية :

رغبة البابا أو الكنيسة الغربيــة فى السيطرة على جميع العــالم المسيحى ولذا كان طبيعيا أن ترحب الكنيسة بفرصة تكون نتيجتها إخراج المسلمين من بيت المقدس و إخضاع الكنيسة الشرقية لنفوذها وخاصة بعــد أن ضعفت دولة السلاجقة عقب موت الملك شاه .

٤ — الحالة العامة فى أوربا :

وهناك أسباب ثانوية كميل الفرسان والأشراف الى المخاطرات والسياحة ورغبة بعضهم فى تكوين امارات وحكومات فى الشرق ورغبة الرقيق فى التخلص من قيود الأقطاع التى كانت تربطهم بأراضيهم .

السبب المباشر :

أما السبب المباشر للحرب الصليبية فهو استنجاد امبراطور القسطنطينية بدول الغرب ، فانه لمــا انتصر السلاجقة وأصبح مركز الامبراطورية مهددا عمد الأمبراطور "الكسيوس Alexius" الى الاستنجاد بأقوى أمير فى غرب أوربا وهو البابا "اربان الثانى Urban II" .

هكذا أراد الله :

وكان هذا البابا فرنسى الأصل بجمع سنة ١٠٩٥ مجلسا عاما فى "كليرمنت Clermont" بجنوب فرنسا تمثلت فيه كل الطوائف من جميع أنحاء غرب أوربا وحضره من الأساقفة مائتان وخمسة وعشرون أسقفا نخطب البابا

هذا الجمع كما خطبهم سفراء " الكسيوس " وكان " اربان " خطيبا مؤثرا ، فشرح حالة بيت المقدس وأعلن لزوم انقاذه من أيدى المسلمين وحض الناس على الانضمام للحركة . وأعلن حماية الكنيسة لأملاك المحاربين وعائلاتهم وغفرانها ذنوب الخاطئين ، ووعد الذين يموتون فى سبيل هـذه الحرب جنات النعيم ، فأجاب الجميع بصوت واحد "هكذا أراد الله Deus Vult" عند ذلك وضع البابا الصلبان على أذرع الذين تطوعوا ولذا سميت بالحروب الصليبية .

وسرت فى الناس روح دينية قوية تسربت الى أعماق نفوسهم فهرعوا من جميع غرب أوربا ومعهم عائلاتهم مدفوعين بهـذه الفكرة الجديدة . والحقيقة أن أوربا المتنازعة المتنافرة ، المنقسمة الى دوقيات واقطاعات عدة ، قد اتحدت لأول مرة بعد سقوط الدولة الرومانية الغربية وأصبحت يدا واحدة وتمسكت بفكرة عامة . ومما يزيد فى أهمية هذه الحركة أنه لم يظهر فى الشرق مثل هـذا الشعور أمام خطر هجوم الصليبيين ، بل ظل الأمراء المسلمون متنازعين حتى ظهر صلاح الدين بعد قرن من الزمان .

حملة بطرس الناسك :

وعلى إثر انتشار الدعوة اجتمعت الطبقات المنحطة من رقيق ومساجين وأشقياء ، وساروا من غير نظام ولا استعداد يريدون تخليص بيت المقدس غير عالمين بطول المسافة بين بلادهم وبين هذه الجهة واقترفوا فى طريقهم جرائم وفظائع أدّت الى قيام المجريين والبيزنطيين ضدهم وأخيرا وصلوا إلى القسطنطينية ورأى الأمبراطور أن يتخلص منهم فساعدهم على العبور ، فوصلوا الى " نيقية " وكان عددهم ثلاثمائة ألف فقابلهم هناك السلاجقة وأفنوهم عن آخرهم سنة ١٠٩٦ ، والمسئول عن هذه الحملة الحمقاء "بطرس الناسك" الذى جعل يطوف فى أوربا بعد مجلس كليرمنت يحث الناس على محاربة المسلمين .

الحملة الصليبية الأولى
(١٠٩٧—١٠٩٩)

زعماء الحملة :

فى هذه الأثناء كان الاستعداد للحملة الأولى قائما على قدم وساق وكثر المتطوعون من الفرنسيس والبرغنديين والنرمنديين . ورؤساء هذه الحملة من طبقة الأشراف والأمراء التى تلى طبقة الملوك. وأهمهم "جدفرى Godfrey " البرغندى دوق اللورين السفلى ثم " ريموند Raymond " دوق تولوز فى جنوب فرنسا و " بوهمند Bohemond " بن روبرت النرمندى ملك جنوب ايطاليا .

ويعد " جدفرى " أصلح الصليبيين وأحبهم الى الناس ، أما ريموند فكان أرفعهم منزلة ، وأما " بوهمند " فكان أقواهم وأشدهم مراسا . واتخذ كل زعيم طريقا خاصا مع أتباعه واتفقوا على أن يجتمعوا فى القسطنطينية جميعا سنة ١٠٩٧ لأن ذهابهم مجتمعين يجعل المؤونة صعبة فلما اجتمعوا فى القسطنطينية بلغوا مائة ألف فارس وستمائة ألف من المشاة من حجاج وقساوسة وغير ذلك خلا النساء والأطفال .

خوف الكسيوس منهم :

ولم يكن الامبراطور مستعدا لقبول هذا العدد العظيم فى عاصمة ملكه وخاف أن يدبر الصليبيون خلعه ، وكل ما كان يرمى اليه من الاستعانة بأوربا هو أن ترسل اليه نجدة تساعده على السلاجقة وعلى استرجاع اراضيه منهم .

فكان لا يكاد زعيم يصل الى العاصمة حتى يقنعه الامبراطور أن يرد الى الدولة ما عسى أن يستولى عليه من مدن وأقاليم نظير امداد الصليبيين بالمؤن والذخائر أثناء سيرهم الى بيت المقدس .



قتال بين الصليبيين والمصريين (الصليبيون الى اليسار)

موقعة دوريليم :

ولما انتظم عقدهم، عبروا إلى الأناضول فى صيف سنة ١٠٩٧ وحاصروا " نيقية " فنقل " قليج أرسلان " السلجوقى صاحب سلطنة الروم عاصمته الى قونية. و بعد الاستيلاء على نيقية تقدم الصليبيون الى دوريليم (اسكى شهر) حيث هزموا جيوش السلاجقة فلم يعد يعترض سبيلهم أحد .

وذهب بعضهم للاستيلاء على كيليكيا، وانتزعوا "الرها أو أرفا Edessa" بين الدجلة والفرات من يد أميرها الأرمنى وكونوا فيها أول إمارة لاتينية سنة ١٠٩٨

فتح انطاكية :

أما بقية الصليبيين فزحفوا إلى انطاكية وحاصروها فى أكتوبر سنة ١٠٩٧ فقاومت تسعة أشهر ذاق فيها الغربيون ويلات الجوع والبرد والطاعون حتى كاد يستولى عليهم اليأس . ولو اتحد أمراء المسلمين فى سوريا لقضوا على الحملة إذ ذاك ولكن انقسامهم مكن الصليبيين من الانتصار فأذاقوا أهل المدينة سوء العذاب وقتلوا منهم عشرات الألوف وانتخبوا "بوهمند" أميرا على انطاكية وما يليها .

فتح بيت المقدس :

و بعد أن استراحت الجنود تقدّم كثير منهم الى " أورشليم " فى يونيه سنة ١٠٩٩ وكانت فى يد حامية صغيرة . فحاصروها خمسة أسابيع ثم وعدوا بالمحافظة على رجال الحامية ، ولكنهم ما كادوا يدخلونها حتى حدثت مذبحة عظيمة قتل فيها أكثر من سبعين ألفا ، وكتبوا إلى البابا يهنئونه بقولهم " إذا أردت أن تعلم بما جرى لأعدائنا فثق أنه فى إيوان سليمان ومعبده ، كانت خيلنا تخوض فى بحر من دماء الشرقيين إلى ركبتيها " .

و بعد الفتح انتخبوا " جدفرى " ملكا على بيت المقدس يوم عيد الميلاد لسنة ١١٠٠ ولكنه اكتفى بلقب حامى قبر المسيح ، وشرع الغربيون يخضعون المدن الباقية فى فلسطين ، وسهل عليهم هذه المهمة المساعدات التى كانت تقدّمها لهم أساطيل المدن الايطالية فأخذوا عكا سنة ١١٠٤ ، وطرابلس سنة ١١٠٩ وصور سنة ١١٢٤ وأنشأوا إمارة طرابلس وولوا عليها ريموند دوق تولوز .

نتائج الحرب الصليبية الأولى

(١) تأسيس الامارات اللاتينية :

تكونت أربع إمارات لاتينية فى الشام وهى بيت المقدس وطرابلس وانطاكية والرها . ولم يحاول الصليبيون اخضاع بلاد الشام كلها ، بل اقتصروا على احتلال السواحل وتركوا المدن الهامة التى فى الداخل مثل دمشق وحلب .

(٢) ضمت الدولة البيزنطية جزءا عظيما من آسيا الصغرى بعد أن فتحه الصليبيون .

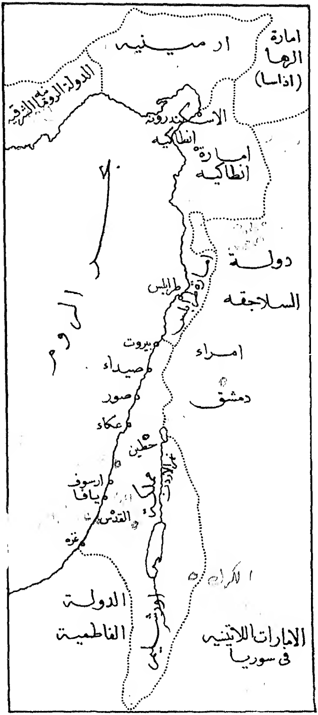
(٣) بدأت جمهوريات جنوه والبندقية و بيزة تؤسس علاقاتها التجارية مع الشرق بفضل مساعدة الصليبيين ، وجاء إلى بلاد فلسطين كثير من الأوربيين .

(٤) قامت العلاقات بين أمراء الصليبيين وأشرافهم وفق نظام الاقطاع المتبع فى أوربا ، فكانت كل امارة مستقلة تماما عن الأخرى رغم أنهم اعتبروا ملك بيت المقدس سيدا لهم .

(٥) لما كان العنصر الفرنسى متغلبا على غيره أصبحت اللغة الفرنسية هى السائدة وأطلق العرب عليهم جميعا لقب " الفرنجة " .

(٦) الفرسان الرهبان :

ظهرت طوائف جمعت بين مبادئ الرهبنة ومبادئ الفروسية مهمتها حماية المسيحيين والعناية بالمرضى والجرحى أثناء الحروب ، وكانوا يأخذون على أنفسهم العهود المتبعة وهى الفقر والطهارة والطاعة . وأهم هذه الطوائف " فرسان المعبد Knights of the Temple " وأعضاء هذا العهد يسمون " Templars " ويسميهم مؤرخو العرب الداوية ثم


ارمينيه
امارة
الرها
(اداسا)
الدولة الرومانية الشرقية
الاسكندرونة
انطاكيه
امارة
انطاكيه
دولة
السلاجقه
طرابلس
بيروت
صيداء
صور
عكاء
حطين
ارسوف
يافا
القدس
غزه
امراء
دمشق
الروم
الدولة
الفاطمية
الامارات اللاتينيه
فى سوريا

" فرسان القديس يوحنا Knights of St. John " ويلقبون باسم "Hospitalers" ويعرفون عند العرب باسم الاسبتارية ، وما لبث أن انضم الأشراف والفرسان بكثرة الى هذه الطوائف وانهالت عليهم المنح والأراضى والأموال حتى أصبحوا من أغنى الطوائف .

(٧) امتزاج الصليبيين بالأهالى :

لم يمض جيل على وجود الصليبيين بالأراضى المقدسة حتى اندمجوا فى الأهالى وتصاهروا معهم وتأثروا بالبيئة الجغرافية . وقد كان المسيحيون الشرقيون ضد الصليبيين ، والدليل على ذلك أنه فى الحروب المقبلة لم يستنجد الصليبيون بمسيحى الشرق من أهل الشام أو غيرهم .

الحرب الصليبية الثانية
(١١٤٧ — ١١٤٩)

تمهيد :

من أهم العوامل التى ساعدت الصليبيين على نجاحهم فى الحرب الأولى ، انقسام دولة السلاجقة وعدم ظهور زعيم يجمع شتات القوات الاسلامية و يقودها ضد الصليبيين .

عماد الدين :

ولكن فى سنة ١١٢٧ ظهر أول زعيم كبير من أمراء السلاجقة عمل على توحيد قوى المسلمين وايجاد وحدة قوية فى الشرق تناوئ الصليبيين وتطردهم من ديارها ، وهذا هو عماد الدين زنكى الذى عين فى تلك السنة أتابك على الموصل والعراق . ولما كانت أملاكه مهددة بوجود امارة الرها فى يد الصليبيين توفرت أسباب النزاع بينه و بينهم . ثم ما لبث أن استنجد به بعض مدن الشام مثل حلب وحماه ودمشق ضد الصليبيين فسار الى الشام واحتل حلب و بعض مدن أخرى .

وفى سنة ١١٤٤ تمكن من فتح مدينة " الرها " وكانت من أمنع وأهم ممتلكات الصليبيين . وأثناء ما كان يواصل فتوحاته مات مقتولا سنة ١١٤٦ وكان أميرا مصلحا شهما مشجعا للتجارة والعلوم ، أعاد الأمن فى البلاد والثقة فى نفوس القوم وترك من أولاده " سيف الدين " الذى خلف أباه فى الموصل و " نور الدين محمود " الذى خلفه فى الشام واتخذ حلب مقرا له .

نور الدين :

نشأ نور الدين فى معسكر أبيه أميرا شجاعا مشرِّعا عادلا مستنيرا . وواصل سياسة أبيه فى مكافحة الصليبيين وتوحيد القوات الاسلامية ضدهم .

وفى سنة ١١٤٧ دمر مدينة الرها على أثر فتنة قام بها الأرمن ، فأثارت هذه الحادثة الشعور الدينى فى أوربا من جديد وقامت الحرب الصليبية المعروفة بالثانية خوفا من تقدم المسلمين بزعامة نور الدين .

انزعج الناس فى أوربا وخافوا نتيجة انتصارات نور الدين فقامت حركة دينية شبيهة بالحركة التى سبقت الحرب الأولى . ويرجع الفضل فى تحريك همم المحاربين هذه المرة الى الراهب الفرنسى " سان برنارد " ، وكان ذا نفوذ عظيم فى جميع غرب أوربا . ذكيا فصيحا ، أمكنه بهذا التأثير أن يضم الى صفوف المحاربين الملوك والأمراء .

زعماء الحملة :

وفعلا انضم ملك فرنسا لويس السابع وامبراطور ألمانيا كنراد الثالث . وكان العنصر الألمانى فى هذه الحرب يفوق كل العناصر الأخرى . وسار كل فريق فى طريقة متحملين خسائر جمة وأخيرا اجتمع الفريقان فى سوريا بعد أن باد ثلاثة أرباع قواتهم الأصلية وقصدوا دمشق .

فشل الحملة :

واجتمعت قوات سيف الدين وقوات نور الدين للدفاع عنها ، فلما لم يقو الصليبيون على أخذها عاد الامبراطور ثم ملك فرنسا الى أوربا . وفشلت الحرب الصليبية الثانية فشلا كانت نتيجته تقوية الوحدة بين المسلمين و إظهار ضعف الصليبيين فى الشام ، فقل عدد الحجاج وانقضت أربعون سنة دون قيام حملة كبيرة .

أما دمشق فقد استولى عليها نور الدين سنة ١١٥٤ على أثر استنجاد أهلها به ضد الصليبيين وتعد هذه خطوة هامة فى سبيل توحيد القوات الاسلامية.

الصليبيون ومصر

لمن تكون مصر ؟

بقيت أمام نور الدين مسألة مصر ومنع الصليبيين من تقوية نفوذهم فيها وكانت الخلافة الفاطمية فى مصر فى آخر أيامها وفى منتهى الضعف ، والقوة كلها فى أيدى وزراء لا هم لهم إلا استبقاء السلطة فى أيديهم . لذلك طمع كل من السلاجقة والصليبيين فى الاستيلاء عليها وتسابق الى امتلاكها الفريقان ، أما الصليبيون فكانوا يريدون مصر لعدة أسباب منها مركزها الحربى والايراد الذى يمكن الحصول عليه منها ، ولأهميتها من جهة المواصلات البحرية بين الصليبيين و بين أوربا . أما أهميتها لنور الدين فهى أنها تضيق على الصليبيين الخناق من جهة الجنوب فتحصرهم بين نارين .

و يلخص النزاع من أجل مصر بين نور الدين والصليبيين فيما يأتى :

واقعة البابين سنة ١١٦٧ :

تقدم أنه فى أيام "العاضد" آخر الخلفاء الفاطميين بمصر حدث نزاع بين شاور وضرغام كل منهما يريد أن يكون الوزير المطلق التصرف فى البلاد ، وأن شاور استنجد "بنور الدين محمود" وتعهد بالقيام بجميع نفقات الحملة ، وأن يدفع ثلث إيراد مصر جزية سنوية لنور الدين .

وعلى هذا الأساس أرسل نور الدين حملة بقيادة " أسد الدين شيركوه " هزمت ضرغام وحلفاءه من الصليبيين، ثم قتل ضرغام وانفرد شاور بالوزارة . ولكنه لم يوف لنور الدين بالعهود التى قطعها على نفسه ، بل على العكس عقد اتفاقا سريا مع الصليبيين . فلما علم بذلك نور الدين لم يجد بدا من غزو مصر .

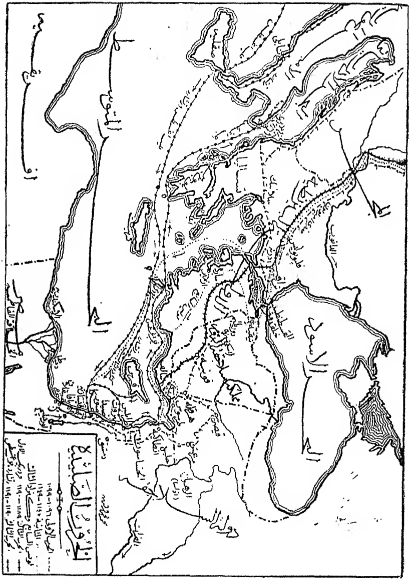
وفى سنة ١١٦٧ جرد نور الدين حملة بقيادة أسد الدين شيركوه الذى مافتئ ينصح لسيده بضرورة فتح مصر فسارت الحملة واخترقت الصحراء وعبرت نهر النيل الى الجيزة ، وما لبث أن جاء الصليبيون من بيت المقدس حسب اتفاق سرى بينهم وبين شاور وزير الخليفة العاضد وعسكروا بالفسطاط وتقابل الجيشان فى واقعة " البابين " جنوبى المنيا بعشرة أميال وانهزم الصليبيون ودخل شيركوه الاسكندرية وعين ابن أخيه يوسف الذى لقب فيما بعد بصلاح الدين حاكما عليها . ولكن حاصره الصليبيون بمساعدة البيزنطيين من جهة البحر . ولما لم يتمكن من رد المحاصرين اتفق الفريقان على الهدنة ثم غادر شيركوه مصر وكذلك غادرها الصليبيون بعد أن تركوا بها حامية منهم .

دخول الصليبيين مصر سنة ١١٦٨ :

اعترض بعض الصليبيين على الخطة التى اتبعها ملكهم فى الحرب السابقة وأظهروا له ضرورة الاستيلاء على مصر، لأنها المنفذ الوحيد للصليبيين بعد أن اشتد الضغط عليهم من الشمال فدخل الصليبيون مصر فاتحين هذه المرة وقتلوا أهل بلبيس واقترفوا فظائع شتى لكى يرهبوا البلاد وعسكروا قرب الفسطاط .

احراق الفسطاط :

عند ذلك خشى الوزير شاور نجاح الصليبيين فقر رأيه على احراق الفسطاط منعا لتقدمهم ، فاستمرت النيران بها أربعة وخمسين يوما ، ولا تزال آثار هذه الحرائق موجودة بالفسطاط بالجهة الجنوبية الغربية من القاهرة .



وعند ذلك استنجد الخليفة العاضد بنور الدين فجاء شيركوه يقود حملته فاستقبله المصريون كمخلص ولما كانت مملكة بيت المقدس مهددة من الشمال بقوات نور الدين غادر الصليبيون البلاد بعد أن فشلوا فى الاستيلاء على مصر ، وحاول شاور أن يتودد إلى شيركوه فلم يفلح وقتل شاور سنة ١١٦٩ وأصبح شيركوه وزيرا على مصر ولم يبق فى الحكم إلا شهرين ثم مات وخلفه ابن أخيه صلاح الدين .

ظهور صلاح الدين وتأسيس الدولة الأيوبية

تولى صلاح الدين حكم مصر بعد شيركوه سنة ١١٦٩ فهو الذى انتفع بكل جهود عمه ولقب صلاح الدين بالملك الناصر وكان عمره إذ ذاك إحدى وثلاثين سنة وكان رجلا تقيا هادئ الأخلاق بسيطا فى معيشته، عاهد نفسه منذ أن تولى أمر مصر أن يهب حياته لطرد الصليبيين من الشرق .

موقفه :

وكان مركز صلاح الدين السياسى فى أول الأمر فى منتهى الدقة ، وذلك لأنه كان رئيس وزارة الخليفة الفاطمى الشيعى ، وفى الوقت نفسه قائدا من قواد السلطان نور الدين السنى المعين من قبل الخليفة العباسى، وزيادة على ذلك لم يكن صلاح الدين أكبر قواد نور الدين الموجودين فى مصر فى ذلك الوقت ، ولذا كان يخشى كثيرا أن يدعوه نور الدين الى الشام ويعين قائدا بدله فى مصر .

حذقه السياسى :

غير أن صلاح الدين بمهارته وحذقه السياسى أمكنه أن يوفق بين التناقض الظاهر فى وظيفته وأملت عليه سياسته أن يتريث فى تحويل المذهب الشيعى فى مصر فبدأ بذكر اسم السلطان نور الدين بعد اسم الخليفة الفاطمى فى خطبة الجمعة. ثم أخذ يحبب للناس التعاليم السنية ففتح المدارس وأحضر العلماء وأخذ يهيئ الجو للتغيير الدينى المنتظر ، ثم عمل على أن يقوى مركزه

فى مصر من غير إثارة شكوك نور الدين فدعا إليها أهله وأقاربه وصاروا من أخلص المؤيدين لسلطته ، ثم تحبب الى المصريين وأحسن معاملتهم وأجرى العدل بينهم .

فتنة السودانيين :

ولما شعر صلاح الدين بأن أعوان الخليفة الفاطمى يدبرون خطة ضده أخذ يضعف من قوتهم وقتل رئيس حرس الخليفة وكان من السودانيين وعلى أثر ذلك قامت فتنة السودانيين فى الصعيد سنة ١١٦٩ واستمرت مدة ثم وصل إلى علمه ميل الخليفة العباسى والسلطان نور الدين الى اقامة الشعائر السنية فى مصر بدل مذهب الشيعة فقرر أن تكون خطبة الجمعة باسم الخليفة العباسى وكان ذلك سنة ١١٧١

مصر لصلاح الدين :

و بعدها بأيام مات "العاضد" آخر خلفاء الفاطميين فى مصر دون أن يعلم بما حصل و بموته انقضت الخلافة الفاطمية وتحولت مصر الى المذهب السنى نهائيا وأصبح صلاح الدين الحاكم المطلق فى مصر وقد حاول الصليبيون الذين فى بيت المقدس أن يحولوا دون امتلاكه اياها ، فحاصروا دمياط بحرا بالاشتراك مع البيزنطيين ولكنهم ارتدوا عنها وتكبدوا خسائر فادحة ، وكانت هذه آخر حرب هجومية قامت بها مملكة بيت المقدس ضد مصر .

العلاقات بين صلاح الدين ونور الدين :

لما قوى مركز صلاح الدين فى مصر ورأى نور الدين أن الزعامة فى الشرق قد تنتقل اليه توترت العلاقات بين الاثنين ، ولكن ما فتئ صلاح الدين للنهاية يظهر خضوعه وولاءه لنور الدين و ينفذ أوامره . و بهذه السياسة تمكن صلاح الدين من توسيع نفوذه ففتح بلاد النوبة واليمن ، غير أن كل هذا كان يزيد فى شكوك نور الدين ، وقد فكر فعلا فى الحضور بجيش الى مصر الا أنه مات بغتة سنة ١١٧٤ وخلا الجو لصلاح الدين .

و يعتبر نور الدين من خير السلاطين الذين حكموا فى الشرق باتفاق آراء المؤرخين المسلمين والصليبيين فى ذلك الوقت، فهو الذى أحيا دولة السلطان ملك شاه وحقق أمانى عماد الدين زنكى، فوحد القوات الاسلامية فى الشام وحال دون انقسام كلمة المسلمين ازاء الصليبيين و بموته أصبح صلاح الدين أقوى أمير مسلم فى الشرق .

صلاح الدين والملك الصالح :

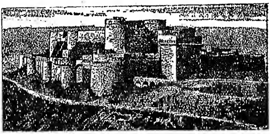
أما ابن نور الدين الذى خلفه وهو "الملك الصالح" فلم يكن له من العمر الاحدى عشرة سنة فوقع تحت نفوذ بعض وزرائه، وحاول صلاح الدين أن يتفق مع الملك الصالح فيكون تابعا له كما كان تابعا لأبيه فلم يفلح وقامت الحرب بينهما وكان طبيعيا أن يحارب صلاح الدين حتى تبقى وحدة المسلمين و إلا ضاعت المجهودات التى صرفت وانقسم المسلمون فى الشرق كما حصل على أثر موت عماد الدين زنكى ،وانتهت الحرب بهزيمة الملك الصالح وأخذ صلاح الدين دمشق وأصبح سلطان مصر والشام بموافقة الخليفة العباسى سنة ١١٧٥

ثم مات الملك الصالح سنة ١١٨١ فلم يجد صلاح الدين صعوبة فى أخذ حلب ثم الموصل وصار السيد الوحيد فى غرب آسيا بما فى ذلك سلطنة سلاجقة الروم . وعلى ذلك تحققت سياسة نور الدين وأصبح الصليبيون فى بيت المقدس محصورين بين قوات اسلامية متحدة من الشمال والجنوب والشرق .

حروب صلاح الدين مع الصليبيين :

ان الحرب التى قامت زمن صلاح الدين قبل سنة ١١٨٦ بين المسلمين والصليبيين فى الشام لم تكن فى الحقيقة الا مناوشات بسيطة انتهت بهدنة بينهم و بين صلاح الدين سنة ١١٨٠، غير أن الصليبيين انتهكوا هذه الهدنة سنة ١١٨٦ بسبب ما كان يفعله أحد فرسان الصليبيين المسمى "ريجينولد"

صاحب حصن الكرك من قطع طريق الحجاج والمسافرين الى مصر وسلب القوافل . وقد حدث أنه سلب قافلة فى تلك السنة يقال إنه كانت فيها أخت صلاح الدين فصمم هذا على الانتقام وأقسم أن يقتل صاحب الكرك إن وقع فى يده ، فقامت الحرب العامة بين المسلمين والصليبيين بقيادة صلاح الدين وسقط حصن الكرك .



قلعة الكرك

واقعة حطين :

ثم تقابل الفريقان فى واقعة "حطين" فى يوليه ١١٨٧ فانهزم الصليبيون انهزاما حاسما وقتل منهم عشرة آلاف ووقع رؤساؤهم أسرى فى أيدى صلاح الدين . ومن هؤلاء الأسرى صاحب الكرك نفسه ، وملك بيت المقدس. ثم سقطت عكا ونابلس والرملة وقيسارية و يافا و بيروت. وكلها كانت حصونا هامة فتحت أبوابها للمسلمين من غير مقاومة .

فتح بيت المقدس :

ثم فتح بيت المقدس فى أكتوبر سنة ١١٨٧ ، وأظهر صلاح الدين تسامحا ولينا مقرونين بالشفقة والرحمة نحو فقراء الصليبيين والنساء والأطفال ، فقد ترك لهم فرصة أربعين يوما لإخلاء البلد ، وفرض دية شخصية كان يدفع بعضها من جيبه الخاص ، وقد سمح بفك أسر " ملك بيت المقدس " بعد أن أقسم ألا يحاربه على أنه قتل "ريجينولد" برا بيمينه ولم يبق للصليبيين من إماراتهم وممتلكاتهم سوى صور .


الدولة البيزنطية
سلاجقة الروم
اذربيجان
الموصل
دولة السلاجقة
حلب
بحر الروم
دمشق
عكا
بغداد
الدولة العباسية
القاهرة
المدينة
مكة
اليمن
دولة
صلاح الدين

الحرب الصليبية الثالثة

لما ذاع خبر انهزام الصليبيين فى "حطين" وفتح المسلمين بيت المقدس وانكماش دولة الصليبيين فى الشام ، تهيأت أوربا لحرب صليبية جديدة ، وكانت الحالة فى أوربا قد تغيرت فى القرن الثانى عشر عما كانت عليه فى القرن الحادى عشر، إذ بدأ الملوك فى أوربا يتغلبون على النظم الإقطاعية تدريجا وأصبح سلطانهم قويا فى البلاد، وعلى ذلك لم يكن البابا هو المحرك الوحيد للحرب الثالثة كما حصل فى الحرب الأولى .

زعماء الحملة :

وقد كانت هذه الحملة مكونة من جيوش قوية منظمة لا من طوائف همجية مدفوعة بعامل الحماسة الدينية من غير نظام ولا استعداد . وزعماء هذه الحملة هم الامبراطور فردريك بربروس وفيليب أغسطس ملك فرنسا ورتشارد قلب الأسد ملك انجلترا .

بربروس :

وكان الامبراطور " فردريك بربروس " أول من تحرك للحرب إذ اجتمع الألمان فى "راتسبون "Ratisbon" سنة ١١٨٩ واتخذوا الطريق البرى الى آسيا الصغرى مخترقين بلاد المجر والبلقان . ثم ذهبوا الى آسيا واخترقوا جبال طوروس ودخلوا جبال الأرمن فى كيليكيا سنة ١١٩٠ وهناك غرق الامبراطور فى نهر " سالف " أثناء عبوره . وكان لموت فردريك بربروس أثر سيىء فى نفوس أتباعه فتشتت شملهم وبدأوا يتخذلون بعد أن كانوا منتصرين ، وعاد جزء من الجيش الى ألمانيا وسار الباقون بقيادة ابن الأمبراطور بربروس، ولكنه هو أيضا مات فى الطريق فتبدد الباقون ولم يصل منهم الى عكا الا النزر اليسير .

فيليب أغسطس وقلب الأسد :

وفى أثناء ذلك كان " فيليب أغسطس " ملك فرنسا قد اجتمع مع " رتشارد " ملك انجلترا وقاما من مرسيليا ومعهما جيوشهما وكثير من الأشراف سنة ١١٩٠ فوصلوا الى صقلية ولبثوا فيها مدة سنة ، ثم قاموا قاصدين عكا فوصلها الفرنسيون، ولكن ريتشارد عرج على قبرص فاحتلها عنوة وبقى هناك الى أن استنجد به الصليبيون فى الشام حينما نزلوا فى عكا، فجاء صلاح الدين بقواته وحاصرهم وضيق عليهم الخناق مدة طويلة .

ويلاحظ أن صلاح الدين اكتفى بتفوقه البرى ولم يحاول حصار الصليبيين من جهة البحر ، فأصبح هؤلاء متصلين بأوربا برا وبحرا فكانت تأتى اليهم المؤن والرجال والذخائر واستمر الحصار حتى جاء فيليب أغسطس ملك فرنسا ورتشارد قلب الأسد ملك انجلترا وسقطت عكا فى أيديهما سنة ١١٩١

واقعة أرسوف :

عند ذلك دب النزاع بين الصليبيين، وخاصة بين رتشارد وفيليب، فغادر فيليب الشام وأصبح رتشارد بمفرده ، وأراد أن يواصل انتصاراته فأظهر فى حروبه ضد المسلمين فروسية أكسبته شهرة عظيمة وانتصر على صلاح الدين فى واقعة "أرسوف" ولكن هذه الانتصارات لم تكن حاسمة.

صلح الرملة سنة ١١٩٢ :

وعلى ذلك بدأت مفاوضات الصلح بين رتشارد وصلاح الدين واتفقا نهائيا سنة ١١٩٢ على صلح الرملة ، وهو عبارة عن هدنة تستمر ثلاث سنوات وثمانية أشهر ويقضى بما يأتى :

(١) يترك بيت المقدس تحت حكم المسلمين بشرط أن يسمح للمسيحيين بالزيارة والحج .

(٢) أن يحمى الصليبيون ساحل الشام من صور الى يافا .

(٣) أن يرد المسلمون المخلفات الدينية .

وغادر رتشارد الشرق سنة ١١٩٢ وفى أثناء الطريق وقع أسيرا فى يد " ليو بلد دوق النمسا " الذى سلمه الى الامبراطور هنرى السادس ، ولم يفك هذا أسره إلا بعد أن دفع دية كبيرة . وما لبث صلاح الدين أن مات سنة ١١٩٣

سياسة صلاح الدين فى مصر :

كان طبيعيا أن يوجه صلاح الدين همته أولا إلى تحصين مصر عامة وعاصمتها خاصة ، فحصن الثغور الشمالية اوقايتها شر غارات الفرنجة وحلفائهم ، وأنشأ أسطولا لهذا الغرض . وكذلك فعل فى البحر الأحمر حيث كانت " أيلة " مركزا بحريا مهما .

وأما العاصمة فقد رأى أن يحيطها بسور عظيم تدخل فيه الفسطاط والعسكر والقطائع والقاهرة . وقد تم جزء كبير من هذا السور وما تزال بقاياه قائمة فى جهات شتى أظهرها فى الفسطاط .

وفى موضع منيع من العاصمة شرع فى بناء القلعة لتكون مقرا لحكمه ، وليحتمى بها إذا حاصره عدو . واستعدادا للحصار حفر البئر الحلزونية التى ما برحت تسمى بئر يوسف نسبة اليه ، لا إلى يوسف الصديق كما يزعم العامة . وأكثر العمال الذين اشتغلوا فى بناء القلعة وحفر البئر كانوا من أسرى الفرنجة و يقال أن عددهم كان يناهز الألف. وقد تم فى عصر صلاح الدين الجزء الأكبر من القلعة .

ومما عنى به صلاح الدين تقليل نفوذ أمراء الأقطاع ، والعمل على استتباب الأمن ليتفرغ السكان للأعمال المنتجة ، وأولها الزراعة وكانت لصلاح الدين عناية كبيرة بها فكان يطهر الترع ، ويقوى الجسور ، وينظم الضرائب ، ومن أكبر أعوانه فى هذا الصدد وزيره القاضى الفاضل والعماد الكاتب .

ومن اصلاحاته الاجتماعية إنشاء المستشفيات وانهاض التعليم ، فهو أول من فتح المدارس بالمجان وكان أهمها بالقرب من الامام الشافعى وجامع عمرو وبالاسكندرية . ومن عهده بدأت المدارس تنشأ لتعليم المذاهب السنية

الأربعة ، وأدى ذلك إلى ظهور الايوانات الأربعة فى المساجد فيما بعد . وأشهر نموذج لذلك جامع السلطان حسن بالقاهرة .

ومن هـذا العهد أيضا زادت أهمية الجامع الأزهر كجامعة للعلوم عامة بعد ان كان القصد منه نشر الدعوة الشيعية . وفى الأزهر نبغ علماء كانوا يتصدون لمقاومة الظالمين، ويعلمون الناس حقوقهم المدنية . وبذلك بقى المستوى الخلقى فى عامة الشعب أرفع من مثله فى أوربا فى ذلك العصر حيث انحط العامة إلى حضيض الأقنان .

وبالجملة كانت مصر أيام صلاح الدين رأس دولته الشاسعة ، وعماد جيشه الجرار ، تمده بالرجال والمال كلما دعت الحال . ولحسن الحظ أن الحملات الحربية كانت تجرد فى الصيف أيام فيضان النيل — وكان الرى كله بالحياض إذ ذاك — وهو موسم فراغ الفلاح المصرى ، فاذا أقبل الشتاء وحالت الأمطار فى فلسطين وسوريا دون استمرار القتال ، عادت جنود مصر إلى وطنها فى وقت الحرث والزراعة .

فشل الحروب الصليبية :

وكانت نتيجة الحرب الصليبية الثالثة أن أصبحت عكا مركزا سياسيا للصليبيين بدل بيت المقدس وامتد أجل بقائهم فى الشام مائة سنة أخرى . أما أملهم فى الاستيلاء على بيت المقدس فقد تبدد نهائيا.

أما الحروب الصليبية التى تلت ذلك فهى حملات ثانوية ليس لها من الأهمية ما لسابقتها . وآخر مظهر من المظاهر الدينية التى استولت على الأوربيين الحملة



نسر على جدار القلعة يغلب أنه من القرن الثالث عشر

التى قام بها الأطفال ١٢١١ فى ألمـانيا وفى فرنسا . فقدقام هؤلاء الأطفال واجتمعوا وصمموا على الذهاب الى بيت المقدس بعد أن انتخبوا منهم رؤساء، أما الأطفال الذين جاؤا من ألمـانيا فأرجعهم البابا . وأما أطفال فرنسا فذهبوا الى مرسيليا ومنها أخذهم بعض التجار و باعهم فى الأسواق بيع السلع بعد أن مناهم بأنه سيحملهم الى بيت المقدس .

ولفشل الحروب الصليبية أسباب كثيرة بعضها متداخل فى البعض الآخر ومن أهمها :

١ — أن الصليبيين لم يحتفظوا بفتوحهم فى آسيا الصغرى ، بل سلموها الى الدولة البيزنطية . ولو بقيت فى أيديهم لكانت قوة لهم .

٢ — أنهم اقتصروا على احتلال الساحل ، وكان الواجب أن يمتلكوا سوريا كلها الى حدودها الصحراوية من الشرق حتى لايسهل على المسلمين اتخاذ المدن العظيمة كدمشق وحلب قواعد حربية يهاجمون منها الصليبيين . ويرتبط بذلك أن الصليبيين كان عددهم قليلا فيقوا شبه حامية تعتمد على ماعسى أن يرد اليها من المدد من أوربا . ولو كان عددهم كبيرا يكفى لاستعمار الجزء الذى فتحوه لصعب اخراجهم .

٣ — أن الصليبيين لم يكونوا دولة موحدة تستطيع تنمية ثروتها وتوجيه همتها الى غرض واحد ، بل أنشأوا امارات اقطاعية كل منها مستقلة عن غيرها ، وقلما كانت تتعاون ، بل كانت أسباب النفور والعداء متوافرة بينها .

٤ — ان الصليبيين لم يكونوا من جنس واحد ، بل كان بينهم الفرنسى والانجليزى والألمـانى وغيرهم فلم يكن من السهل الاحتفاظ بحسن التفـاهم بين أجناس كثيرا ما كانت تقوم بينها الحروب فى موطنها الأصلى ، أوربا . وزاد التحاسد لمـا ضعف الاقطاع ونشأت القوميات الجـديدة وتضاربت مصالحها وقامت الحروب بينها . ومن أظهر الأمثلة فى هذا الصدد ماحدث فى الحرب الصليبية الثالثـة بين رتشارد قلب الأسـد ملك انجلترا وفيليب

اغسطس ملك فرنسا اذ أدى الخلاف بينهما الى عودة ملك فرنسا الى بلاده فى حين كان رتشارد يحارب صلاح الدين . وزاد الطين بلة أن فيليب أغسطس استعان ببعض ملوك أوربا على دس الدسائس ضد رتشارد حتى اضطر هذا الى عقد صلح الرملة ، وغادر فلسطين والحسرة ملء قلبه يدل على ذلك أنه رفض — وعيناه مغرورقتان بالدموع — أن ينظر من أعلى التل الى أورشليم تلك المدينة التى عجز عن استردادها .

ولما كانت الروح القومية آخذة فى الازدياد ، صار من الصعب التعاون لإنجاز عمل مشترك .

٥ — ان الحروب الصليبية قامت فى عهد بلغت فيه الحمية الدينية أشدها اذ كان الرجال والنساء يعتقدون أن المساهمة فى الحروب الصليبية تخلق من المذنبين قديسين ، وتهدم الحصون ، وتفنى الأعداء بضرب من المعجزات فلما تبين لهم أن الشهوات الانسانية تترعرع فى فلسطين ترعرعها فى أوربا ، وأن السبيل الى الخلاص فى الحالين انما هى مجاهدة النفس وكبح جماحها ، لم يعد العامة يتهادون بالذهاب الى الأرض المقدسة . أما الأمراء فحاولوا توجيه الحروب الصليبية الى مشروعات سياسية ترعاها إحدى الدول تارة وتنتزعها غيرها تارة أخرى ولم يعد الجنود مدفوعين بالحمية الدينية ، بل أصبح جلهم من المخاطرين وطلاب المغانم . ودليل ذلك ظاهر فى الحرب الصليبية الرابعة التى قضت على الدولة البيزنطية قضاء مؤقتا ، وفى الحروب الصليبية التى وجهت الى مصر حتى إن "جان دى برين" يرفض ماعرضه عليه الملك الكامل من ترك مصر وأخذ مملكة بيت المقدس كما كانت قبل سنة ١١٨٧

٦ — ان البابا « اربان الثانى » اختار للحملة الصليبية الأولى أنسب الظروف ، اذ أن دولة السلاجقة كانت قد انقسمت بعدموت الملك شاه بين أبنائه وأقاربه . ولم يكن أحد من هؤلاء الأتابكة يستطيع أن يقف فى وجه الصليبيين ، ولاهم أدركوا اذ ذاك ضرورة التعاون لصد غارات الفرنجة . فلما اجتمع شمل المسلمين أيام «عمادالدين زنكى» ثم ابنه « نورالدين محمود»

وتم توحيد قوات الاسلام فى الشرق بزعامة « صلاح الدين » ومن خلفه من سلاطين الأيوبيين ، لم يعد فى طاقة الصليبيين الاحتفاظ بما كان فى أيديهم بعد أن انحصروا بين القوات الاسلامية والبحر .

نتائج الحروب الصليبية

كان للحروب الصليبية نتائج ظاهرة أهمها ما يأتى :

(١) صانت دولة البيزنطيين وحالت دون مهاجمة السلاجقة لأوربا . ولو ترك السلاجقة لابتلعوا جزءا كبيرا منها .

(٢) ظهور المدن فى أوربا وخصوصا المدن التجارية وشراء حريتها من الأشراف والتقليل من نفوذ الأشراف وظهور الطبقات الوسطى وتقوية مركز الملوك فى أوربا ، ومعنى هذا ، القضاء على نظام الإقطاع وإزالة بعض الفوارق التى كانت تفرق بين الطبقات فى أوربا . ومن أهم المدن التى نشأت فى ذلك الوقت مدن ايطاليا المستقلة ، وكانت هذه المدن واسطة الاتصال بين الشرق والغرب فأدخلت الى أوربا كثيرا من نفائس المصنوعات والمحصولات الشرقية .

(٣) اختلط الغربيون بمدنية أرقى من مدنيتهم ، فتعلموا منها أشياء كثيرة لطفت من خشونتهم وهذبت أخلاقهم . وقد أدى اتصال المسيحيين بالمسلمين الى تخفيف حدة التعصب الدينى الذى ينشأ عادة من جهل الناس بأحوال الشعوب الأخرى . وقد أدى هذا الاتصال أيضا الى تسرب علوم المسلمين الى أوربا وانتشارها هنالك بالتدريج ، حتى نشطت أفكار الأوربيين من عقالها ونفضت عنها غبار العصور الوسطى . وما زالت هذه الحركة الفكرية تنمو حتى أخذت شكلها النهائى فى النهضة الأوربية .

(٤) نشطت التجارة بين الشرق والغرب وصارت مصر وسوريا سوقا تجارية بين الغرب والشرق ، فزادت ثروة الحكومة والأهالى زيادة عظيمة ظهر أثرها فيما شيده سلاطين المماليك من الآثار . وبقى الأمر كذلك إلى أن كشف طريق رأس الرجاء الصالح وتحولت التجارة والنهضة من الشرق إلى الغرب .

(٥) بدأ اهتمام الناس بأخبار الرحلات والاكتشافات وذلك على أثر ما حمله الصليبيون إلى بلادهم من حوادث وأخبار البلاد التى زاروها . وكانت نتيجة ذلك أن ظهر المستكشفون الذين مهدوا الطريق لحركة الاستكشافات فى عصر النهضة .

أحوال مصر بعد صلاح الدين :

لما مات صلاح الدين سنة ١١٩٣ ، قسمت دولته بين أولاده الثلاثة وبين إخوته وقامت الحروب بين أفراد العائلة ، ولكن لحسن الحظ مالبثت الحال إلا قليلا حتى نهض سيف الدين — أخو صلاح الدين وساعده الأيمن فى حروبه — فحال دون انقسام الدولة ، وكان سيف الدين يلقب بالملك العادل وكان من أكفأ القواد وأمهر السياسيين ورجال الدين ، فاتفق مع أحد ابناء صلاح الدين وهو « العزيز » سلطان مصر واحتفظ بوحدة المسلمين فى غرب آسيا بالاستيلاء على دمشق وأرض الجزيرة وأصبح لمصر المكانة الأولى بين تلك الأمارات وكان « القاضى الفاضل » المشهور بأدبه وعلمه يساعد سيف الدين فى شؤون البلاد . وبعد موت « العزيز » سنة ١١٩٨ صار أمر مصر بيد « العادل سيف الدين » مباشرة .

ولما أيقن الأوربيون أنه لافائدة من استرداد بيت المقدس مادام السلطان الأيوبى قويا فى مصر — زعيمة الشرق — وجهوا حملاتهم ضد مصر . وأول هذه الحملات حملة «جان دى برين Jean de Brienne» سنة ١٢١٨ وفيها هاجم الصليبيون دمياط وعلى الرغم من مناعة المدينة وكبر حاميتها سقطت وأتوا فيها بفظائع كثيرة ، واستعد الصليبيون بعد انتصارهم فى دمياط للزحف على القاهرة . وفى هذه الأثناء مات الملك العادل حزينا ، وألقى مسئولية طرد الصليبيين من مصر على عاتق ابنه الملك الكامل ١٢١٩ — ١٢٣٨

الذى ورث جميع الصفات الحسنة التى كانت لأبيه وعمه . فأقام الملك الكامل الاستحكامات للدفاع عن الجهة التى سماها فيما بعد المنصورة . ولما خشى من اطراد نجاح الصليبيين تقدم لهم — حرصا على سلامة البلاد — بشروط مدهشة وهى ترك مصر وأخذ مملكة بيت المقدس كما كانت قبل سنة ١١٨٧ ولكنهم لم يقبلوا لأنهم كانوا منتصرين ولأن مأربهم كان القضاء على مصر لأنها موطن المقاومة وأهم من بيت المقدس ، ولأن الروح الدينية كانت قد ضعفت وحلت محلها المصلحة المادية ، ولأن بيت المقدس محاط بامارات اسلامية فلا يسهل الاحتفاظ به .

وقد أخطأ الصليبيون فى أتخاذ الطريق إلى القاهرة فساروا فى وسط الدلتا حيث الترع منتشرة وتركوا الطريق الذى يخترق الصحراء الشرقية .وقد وقف لهم الملك الكامل فى المنصورة مع النجدات التى جاءت إليه من جميع الامارات الأيوبية بين اليمن وحلب وكان الوقت أثناء الفيضان ، فقطع المصريون الجسور وأحاطت المياه بالصليبيين فلم يروا بدا من طلب الصلح وعادو سنة ١٢٢١

حملة فردريك الثانى امبراطور ألمانيا وملك جنوب ايطاليا :

كان الأمبراطور فردريك قد وعد البابا بالقيام بحروب صليبية ولكنه ظل ينتحل الأعذار حتى قام سنة ١٢٢٨ وكان قد تزوج بابنة «جان دى برين» واتخذ لقب ملك بيت المقدس شرفا ولما قام بحملته كان محروما من الكنيسة ولم يأخذ معه إلا خمسمائة فارس فكانت حملته غريبة من كل الوجوه .

اتفاق الكامل وفردريك :

ومع ذلك فانه بسياسته ولما اشتهر عنه من عطفه على المسلمين ، صادفت حملته نجاحا لم تصادفه الحملات السابقة إذا اتفق مع السلطان الكامل — وكان

متخوفا من ضياع دمياط وتهديد القاهرة مرة أخرى ـ فسارع لعقد اتفاق مع فردريك الثانى بمقتضاه :

(١) أعطى فردريك بيت المقدس بشرط أن يحتفظ المسلمون بالأماكن الاسلامية المقدسة. ومقابل ذلك يتعهد فردريك بمساعدة الملك الكامل ضد اعدائه سواءا كانوا مسلمين أم مسيحيين .

(٢) يتعهد فردريك بعدم إرسال النجدة للامارات الصليبية الموجودة فى شمال الشام مثل طرابلس وأنطاكية .

ولما ذاع خبر هذا الاتفاق أنكره المسلمون والصليبيون فى وقت واحد ، والحقيقة أنه من الصعب الحكم على مزايا الاتفاق وهل هو فى مصلحة المسلمين أو من مصلحة الصليبيين. ولكن أهميته للمسلمين هى أن احتفاظ الملك الكامل بمصر أهم بكثير من بيت المقدس ، لأن مصر بلد خصب ورخاء فى حين أن بيت المقدس بلد جدب .

أما الصليبيون فقد كان الاتفاق ضررا عليهم لأنه نص على ألا تأتيهم النجدات من أوربا وهذا إضعاف لهم ، ولا يغنى عنهم حكمهم بيت المقدس وحوله الامارات الاسلامية ، لأن المسلمين لابد أن يستولوا عليه يوما ما .

عودة فردريك :

ومع ذلك فان فردريك الثانى والملك الكامل قد قبلا هذه الشروط . ودخل فردريك الثانى بيت المقدس وتوج نفسه ملكا هناك ، ولكنه لما كان محروما من الكنيسة انفض عنه الصليبيون فغادر بلاد الشام وعاد الى أوربا واصطلح مع البابا مؤقتا فخفف البابا من حدته .

ثم إلى جانب صد هذه الحملات عنى « الكامل » بإنهاض مصر اقتصاديا فبذل جهده فى تحسين وسائل الرى ، وكان يشرف على المهندسين بنفسه فزاد عدد الترع وعظم الانتفاع بها ، كما زادت الجسور والسدود على النيل وأمن

السبل تشجيعا للتجارة ، وأتم قلعة صلاح الدين ، وشجع العلماء . وبلغت مصر فى عهده شوأ بعيدا فى اليسر والرخاء .

وأهم سلاطين الأيوبيين بعده ابنه "الملك الصالح أيوب" وأعظم أعماله استرجاع بيت المقدس سنة ١٢٤٤ واخذ عسقلان ودمشق . الا أن هذه الحروب أنهكت قواه فمرض . وعلم أثناء مرضه بحملة لويس التاسع على مصر فحمل إلى المنصورة .

حملة لويس التاسع (St. Louis) ملك فرنسا سنة ١٢٤٨ :

لم تكن هذه الحملة حملة صليبية عامة ، بل كانت قاصرة على الفرنسيين ، وكان لويس التاسع ملكا تقيا صالحا مدفوعا بالعامل الدينى وهو يشبه جدفرى ، أول ملوك بيت المقدس من الصليبيين .

سقوط دمياط :

قصد الفرنسيون مصر واستولوا على دمياط سنة ١٢٤٩ وارتد المصريون إلى المنصورة وحصنوا موقفهم هناك ، ولكن لويس التاسع ارتكب الغلطة التى ارتكبها " جان دى برين " من قبل وهى السير إلى القاهرة عن طريق الدلتا حيث تكثر الترع ، إذ عبر الصليبيون النهر وأقاموا استحكامات أمام المنصورة عند البحر الصغير وكان إذ ذاك يبدأ شمال المنصورة بنحو أربعة أميال وبنوا قنطرة على هذه الترعة .

شجرة الدر :

وفى هذه الأثناء مات الملك الصالح أيوب ولكن زوجته " شجرة الدر " اتفقت مع باقى الأمراء على مواصلة الدفاع ضد الصليبيين من غير أن يعلم الناس خبر موت السلطان وأخذت تباشر الحكم إلى أن جاء " تورانشاه " ابن الملك الصالح من ديار بكر بعد نحو ثلاثة أشهر وتركت له مهمة الدفاع .

توران شاه :

لم يكد توران شاه يتسلم الأمر حتى نظم قوات الدفاع فنقل أجزاء السفن على ظهور الجمال إلى نقطة شمالى دمياط وعندها ركبت السفن ونزلت بالبحر

وهاجمت الصليبيين فى دمياط وقطعت عنهم المدد . وفى ثناء ذلك أن كا لويس قد أعياه الوقوف أمام المنصورة وفشا المرض بين جنوده وحاول الهجوم على المسلمين فلم يفلح .

واقعة فارسكور :

وعلى ذلك قرر التقهقر نحو دمياط وأحرق كل العدد والاستحكامات التى كانت مع الصليبيين ما عدا القنطرة التى كانت على البحر الصغير وتعقبهم المسلمون ولحقوا بهم عند فارسكور وانسد أمامهم الطريق بسبب وقوع دمياط فى أيدى المسلمين فانهزم الصليبيون انهزاما حاسما . وقتل منهم نحو الثلاثين ألفا وأسر الملك لويس التاسع ومن معه من الطبقات الشريفة ، ولم يفك أسره إلا بعد دفع دية عظيمة من المال .

أما توران شاه فقتله المماليك لشدته . وكان المماليك من أقوى العناصر التى ساعدت على هزيمة الصليبيين فقوى مركزهم وعملوا على أخذ الملك من أيدى الأيوبيين .

خدمات الأيوبيين :

وبموت توران شاه انتهى عهد الأيوبيين فى مصر وبدأ عهد سلاطين المماليك البحرية . وقد أدى الأيوبيون لمصر خدمات جليلة إذ حموها من هجمات الصليبيين وكان أكثر ملوكهم ذوى مقدرة وكفاية وكذلك كان الوزراء . وقد كانت سياستهم التجارية حازمة فاتفقوا مع البنادقة وعقدوا معاهدات تجارية كان من شأنها أن زادت فى ثروة مصر، وقد اهتموا بالعلوم والأدبيات اهتماما عظيما فظهر فى عهدهم الكتاب والمؤرخون مثل القاضى الفاضل وابن خلكان وابن الأثير وبهاء الدين زهير وكثر المتعلمون وانتشرت المدارس وظهرت نهضة أدبية عظيمة . وكان لسلاطينهم عناية كبيرة بالزراعة وإقامة العدل وتوطيد الأمن . وكان أكثرهم متسامحا فى الدين وامتازت مصر فى عهدهم بحسن حالها الداخلية وعظم سلطانها ، ودفاعها المجيد عن نفسها خاصة وعن المسلمين عامة .

الفصل الخامس

عصر المماليك

(١٢٥٠ — ١٥١٧ م)

منشأ المماليك واستئثارهم بالسلطة :

يطلق اسم المماليك بالغلبة على الأرقاء البيض الذين كانوا يؤسرون فى الحروب أو يشترون من أسواق النخاسة . وأول من استخدم المماليك الأتراك فى مصر الخلفاء الفاطميون الذين أرادوا التشبه بالعباسيين فى بغداد . ثم جاء الأيوبيون فاستكثر صلاح الدين من هؤلاء المماليك وجندهم فى جيشه واشترى الملك الصالح أيوب عددا يزيد على الألف من رقيق شمالى وغربى آسيا . وكان المغول فى ذلك الوقت قد جعلوا يخربون تلك الجهات ويدمرون قراها و يغيرون عليها بين آن وآخر ، فهاجر أهل البلاد ومعهم أولادهم وبناتهم وانتهز تجار الرقيق الفرصة فملأوا الأسواق بالفتيان والفتيات من قفقاسيا وجورجيا والجركس .

ولما كثر المماليك فى عهد الملك الصالح أسكنهم جزيرة الروضة قرب مقياس النيل فسموا بذلك " المماليك البحرية " . و بينما كان تعليم الشعب مهملا اذا بالمماليك يلقنون أرقى تعليم فى عصرهم و بخاصة فى السياسة والحرب و يخصهم ملوكهم بالوظائف العليا حربية كانت أو سياسية أو إدارية .

وعظمت شوكة المماليك البحرية بعد واقعة المنصورة حتى عز عليهم أن يستكينوا للشدة التى عاملهم بها توران شاه فقتلوه ولم تمض مدة طويلة حتى أصبح الملك فى أيديهم .

لما قتل المماليك توران شاه ارتضوا شجرة الدر زوج الملك الصالح ملكة على مصر ، وتزوج منها رئيس قواد المماليك " أتابك العساكر " عز الدين أيبك التركماني وصار ملكا على مصر باسم الملك المعز ، فتغلب على منافسيه من بقايا الأيوبيين واستتب له الأمر فى مصر وأكثر الشام .

وفى ذلك الوقت كان سيل التتار ينحدر من أواسط آسيا بقيادة هولاكو فاكتسح بغداد وقتل المستعصم آخر خلفاء العباسيين بها فى فبراير سنة ١٢٥٨ واستولى على كل الشام وأرسل الى مصر رسالة يهددها فيها بالغزو ويطلب اليها الخضوع لسلطانه . وكان قد ولى السلطنة "قطز" فرأى أن مفاوضة "هولاكو" قد تؤثر فى بعض المماليك وتثبط عزائمهم فقتل الرسل واستحث المماليك على القتال وتقدم بهم الى حدود فلسطين وهزم المغول فى موقعة " عين جالوت " سنة ١٢٦٠ وقتل قائدهم فنجت مصر من غارة المغول ومد "قطز" نفوذه الى نهر الفرات .

الظاهر بيبرس البندقدارى :

وقد حقد عليه أكبر قواده فتآمر على قتله فى الطريق وهو عائد الى الى مصر فاختاره المماليك سلطانا فلقب نفسه " السلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين بيبرس البندقدارى الصالحى " وهو المؤسس الحقيق لدولة المماليك البحرية وأصله مملوك دخل خدمة الملك الصالح فظهرت مقدرته فى موقعة المنصورة وغيرها .

ولما ولى مصر نظم جيش المماليك وأعاد إنشاء البحرية المصرية ، وعنى باصلاح الثغور والحصون وأنشأ البريد بين العاصمة وسائر أنحاء الدولة فكانت خيله المتتابعة تسير من القاهرة الى دمشق فى ستين ساعة . وأهم من ذلك بريد الحمام ، وكانت المسافات بين أبراجه أطول من مثيلاتها بين محطات خيل البريد ، وكان للسلطان حمائم خاصة يتناول هو بنفسه الخطابات من أجنحتها حتى لا يطلع على ما فيها من أسرار الدولة أحد سواه .

ومن محاسن أعماله العناية بكرى الترع و بناء القناطر وتحسين الجسور وتخفيف الضرائب وسن القوانين العادلة، فأحبه الأهلون . واسترضى أهل الشام باعترافه بحكامهم المحليين ، وجد فى إقامة المعاهد والمساجد وأهمها مدرسته بشارع بين القصرين ومسجده الكبير بميدان الظاهر بالقاهرة وكان إذ ذاك خارج المدينة .

إحياء الخلافة العباسية :

ولما أراد تثبيت مركزه من الوجهة الشرعية استدعى أحد أبناء العباسيين وأقامه خليفة فى مصر بلقب "المستنصر بالله" و بقيت الخلافة طول حكم المماليك و إن لم يكن للخليفة فى الغالب أكثر من الاسم والاعتراف بلقب السلطان، على أن ذلك جعل لمصر مركزا ممتازا إذ كان أمراء الهنود وغيرهم يطلبون من الخليفة تقليدا يجعل مركزهم مشروعا ، ثم زادت أهمية الخلافة فى أواخر دولة المماليك وعند دخول العثمانيين مصر .

وأهم ما كان يشغل بيبرس حماية البلاد من المغول، وتوصلا لهذا الغرض صادق كثيرا من الملوك منهم أمبراطور الدولة الرومانية الشرقية وسلاجقة الروم وأمراء صقلية وأرجونة . ولما كان الصليبيون اذ ذاك يوالون المغول أراد بيبرس أن يتشبه بصلاح الدين بطرد الباقين منهم فحارب إمارتهم نحو عشر سنين واستولى فى غضونها على صفد ويافا سنة ١٢٦٨ ثم أنطاكية وغيرها من حصونهم المهمة . ثم عزم على مهاجمة المغول رأسا فسار الى نهر الفرات بجيش عظيم وعبره على ظهور الخيل وأوقع الهزيمة بالمغول وطردهم من تلك الأصقاع كى يأمن شرهم ، ثم انتصر على حلفائهم فى أرمينيا وغنم غنائم كبيرة . ولم يبق للصليبيين غير "عكا" وهذه استولى عليها السلطان "خليل بن قلاوون" سنة ١٢٩١ و بذلك جلا آخر الصليبيين عن الشرق .

ولما عاد الى مصر جرد حملة الى بلاد النوبة — وكانت لاتزال مسيحية — وهزم النوبيين عند دنقلة وأخضعهم لحكم المسلمين لأول مرة وفرض

عليهم الجزية . وبذلك أصبح ملك مصر يمتد من أعالى الفرات والأناضول الى حدود السودان .

ومن أعظم من جاءوا بعده السلطان قلاوون (١٢٧٧ — ١٢٩٠) الذى هزم المغول عند حمص هزيمة لا تقل فى أهميتها عن هزيمة " عين جالوت " سيما أن المغول كانوا فى ذلك الوقت يراسلون البابا وملوك أوربا يطلبون اليهم التعجيل بإرسال حملة صليبية تقضى على سلطنة مصر . ولتفادى هذا الخطر أبرم قلاوون اتفاقا دفاعيا مع أمراء قشتالة وصقلية وعقد معاهدة تجارية مع جنوة ووطد الروابط الاقتصادية بينه وبين بعض ملوك أوربا واليمن وسيلان .

وكان فى خدمته أكثر من اثنى عشر ألفا من المماليك الجراكسة والمغول ، ومن بينهم نحو أربعة آلاف يسكنون أبراج القلعة ويسمون من أجل ذلك المماليك البرجية تمييزا لهم عن المماليك البحرية ، وكان قلاوون معروفا بالحلم والعدل والجود وحب الخير ومن أعماله الباقية البيمرستان (المستشفى) الذى أعده للمرضى ، وبخاصة النساء ، وجهزه بمعمل كيميائى وعين فيه المحاضرين ، والقبة التى بها قبره وكان بها مكتبة عمومية بها كتب كثيرة فى جميع الفنون ، ثم المدرسة التى عين بها علماء من المذاهب الأربعة لتدريس الدين وأضاف اليها مكتبا للأطفال ومدرسة للصبيان وملجأ للأيتام . وكل هذه الآثار بالنحاسين بالقاهرة .

وخلف قلاوون ابنه خليل (١٢٩٠ — ١٢٩٣) وكان على عكس والده متغطرسا قاسيا تدفعه الوساوس والأوهام إلى الفتك بكل من يشك فى اخلاصهم له . ومن ذلك أنه قتل وزير أبيه وأقصى عن الحكم أكثر من كانوا فى خدمته وأحل محلهم أناسا ممن يثق هو بهم .

ولعل وجه الشبه الوحيد بين خليل بن قلاوون ووالده أنه عزم من أول توليته على قطع دابر الصليبيين من المشرق . ومهد لذلك باسترضاء القضاة والفقهاء بمصر ثم باستنهاض ولاة سوريا لمعاونته . ولما استوثق من كفاية استعداده تقدم إلى حصار " عكا " وأقام حولها أكثر من تسعين منجنيقا

فاستمات جنود حاميتها فى الدفاع عنها ، وساعدتهم نجدة جاءتهم من جزيرة قبرس. وكان فى قدرة الحامية والنجدة أن تقاوما طويلا لولا ما دب بينهم من تنافس ونزاع كان من نتائجه أن عاد اكثر جنود قبرس إلى جزيرتهم وتركوا إخوانهم فى أشد المواقف حرجا .

وبفضل هذا التخاذل بين الفرنجة فى ساعة الخطر استطاع السلطان خليل ان يخضع " عكا " بعد حصار لم يزد كثيرا على أربعين يوما .

ولم ينج من جنود حامية عكا أحد ، بل وقعوا جميعا بين قتيل وأسير ثم أحرقت مدينتهم ودمرت فدب الخور فى قلوب بقية الصليبيين فخلوا عما كان بأيديهم من القلاع . وبهذا انتهى النزاع الذى عرف بالحروب الصليبية بعد أن أقلق الشرق الأدنى قرابة قرنين من الزمان .

وقد حاول السلطان خليل بن قلاوون أن يهزم المغول الذين كانوا يهددون سوريا فى ذلك الوقت ولكنه لم يوفق فى ذلك على الرغم من أخذ بعض القلاع التى كانت بأيديهم .

ولما عاد خليل إلى القاهرة استقبله أهلها بأعظم مظاهر الحفاوة والاجلال ، فدخلها دخول الظافر يتقدمه أسرى الفرنجة مكبلين بالأغلال تليهم أعلامهم منكسة ورءوس قتلاهم على أسنة الرماح .

ولم يطل حكم السلطان خليل بن قلاوون لأن غطرستة وقسوته جلبا عليه سخط أكثر المماليك فكاد له جماعة منهم واغتالوه فى إحدى خرجاته إلى الصيد فى بر الجيزة ودفن بقبته.

ومن عظماء سلاطين المماليك البحرية الملك الناصر محمد بن قلاوون تولى الملك مرات لا يهمنا منها إلا ولايته الثالثة (١٣١٠ — ١٣٤١) .

وبلغ من حسن سمعته أن طلب اليه امبراطورالهند أن يساعده على المغول وخطب وده قيصر الروم ، وجاءت وفود البابا وملوك فرنسا ترجوه أن يحسن معاملة المسيحيين فى دولته مقابل معاملة المسلمين النازلين بأوربا بالمثل ، فكان الناصر يعمل جهده لإنصاف المسيحيين وإقامة العدل بينهم فى وقت ساد فيه الجهل والتعصب .

ولما نزل القحط بالبلاد جلب اليها الغلال من سوريا ، وألزم الأغنياء أن يبيعوا ما يزيد عن حاجتهم بسعر محدود . ومن أعماله الداخلية إبطال الضرائب المرهقة ، والقضاء على إقطاعات الأمراء التى كانت تنقص من من دخل الحكومة ، وحفر ترعة من فوه الى الاسكندرية (المحمودية الآن) ففتح بذلك طريقا مائيا للتجارة بين البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط ، فضلا عن إخصاب الأراضى التى تشقها تلك الترعة . وقد شيد الناصر قصورا شاهقة داخل القلعة وخارجها وأقام نحو ثلاثين مسجدا وكثيرا من الصهاريج العامة والحمامات والمدارس ، ولم يقتصر اهتمامه على القاهرة بل تعداها الى مكة وبعض مدن الشام ، وقد دفن الناصر فى قبة والده بالنحاسين .

المماليك البرجية أو الجراكسة :

ولما ضعف بيت قلاوون بتقليد الأطفال عرش السلطنة كثر الهياج وعمت الفوضى ، فوافق الخليفة والأمراء والمشايخ أن يكون السلطان رجلا لا طفلا واختاروا (سنة ١٣٨٢) أحد المماليك البرجية سلطانا ، وهو "الظاهر سيف الدين برقوق" . وبانتقال الحكم الى المماليك البرجية زاد النزاع الحزبى فكانت العاصمة مسرحا لتقاتل الفئات المختلفة وكثر حصار القلعة وخرجت سوريا عن طاعة مصر ،وتعددت حوادث القحط والوباء حتى كان السكان أحيانا ينقصون الى الثلث ، وثقلت الضرائب فبدأ الناس يثورون على ظالميهم ، وشاعت الخيانة والغدر وكثر التعذيب بطرق شتى .

ومن المماليك البرجية "المؤيد شيخ المحمودى" (١٤١٢ — ١٤٢١) الذى أعاد الأمن الى نصابه فى مصر واسترد الشام كلها الى طرسوس وتوغلت جيوشه الى أواسط آسيا الصغرى . وقد أحدث تغييرا مهما فى نظام الجيش فصار يتكون من جنود نظامية تنفق عليهم الحكومة ، ومماليك السلطان ويتناولون رواتبهم من الأملاك السلطانية الخاصة ، ومماليك الأمراء وكان كل أمير ينفق على مماليكه .

وكان "المؤيد" تقيا ورعا، وشاعرا موسيقيا يشجع طلاب العلم ويحسن الى الفقراء أيام القحط . ومن آثاره جامع المؤيد بجوار " باب زويلة " المعروف "ببوابة المتولى" .

وفى آخر عهد الأشرف بارسباى الذى خلف المؤيد استولت الجنود المصرية على النصف الشرقى من آسيا الصغرى، وبذلك باتت أملاك مصر تجاور الأتراك العثمانيين وكان فى يدهم الجزء الغربى من شبه الجزيرة .

نظام الحكم :

بقى المماليك البحرية نحو مائه وثلاثين سنة (١٢٥٠ — ١٣٨٢) يتعاقب على عرش مصر أعظمهم بأسا وأكثرهم أتباعا ، يكادون لا يعترفون بالوراثة ، ولم ينجح أحد منهم فى ذلك إلا قلاوون إذ استمر الحكم فى أسرته حوالى مائة سنة وإن لم تكن خالية من المنافسين . ثم جاء « المماليك الجراكسة » (١٣٨٢ — ١٥١٧) ولم يستطع أحد منهم أن يستقل بالسلطة عن زملائه تمام الاستقلال ، بل ظلوا يختلف أقوياؤهم على عرش مصر حتى انتهت دولتهم . وفى كلا العصرين كان يحدث أن يعظم نفوذ أحد الأمراء فلا يبقى للسلطان غير الاسم وسرعان ما يقتله هذا المنافس أو يخلعه . ولم يكن للسلطان عاصم إلا حرسه . فكان يمنحهم إقطاعات واسعة وينعم عليهم بالخلع النفيسة، ويغدق عليهم الاحسان وبذلك صار أكثر أرض مصر مقطعا لضباط الحرس والجند ، وكانوا ينتقلون من خدمة سلطان إلى خدمة خلفه ، وكانوا أحيانا يعزلون السلاطين ويولونهم بحسب ما تملى عليهم أغراضهم ولم يخفف من غلوائهم فى ذلك إلا شدة التنافس والانقسام فيما بينهم .

وكان لكل أمير من ضباط الحرس وموظفى القصر وغيرهم حرس من مماليكه خاصة يقومون على بابه ، ويصحبونه إذا ركب ، ويدافعون عنه إذا حاصر قصره أمير آخر ، ويتبعونه فى ميدان القتال يبيعون أنفسهم رخيصة

حول لوائه ، وهؤلاء الأمراء وأعوانهم كانوا خطرا على السلطان. فإذا تحالف جماعة منهم عليه سد أعوانهم منافذ القصر وعمد حليف من خدم السلطان إلى طعنه فاذا الأحلاف قد اختاروا واحدا منهم للعرش ، وقد يتم هذا فى هدوء وقد يقوم حزب معارض فاذا شوارع المدينة ميادين للقتال ، وإذا السكان قد أغلقوا حوانيتهم وهرعوا إلى منازلهم ، وأقفلوا أبواب الحارات التى كانت تعزل كل حى عن سواه ، وقد يستمر ذلك أياما يجوس فيها المتحاربون خلال الشوارع العامة تنهب كل طائفة بيوت أعدائها وتسبى نساءهم وأولادهم بينما تصوب الأخرى السهام وتسدد الرماح من نوافذ المنازل وسطوحها إلى أعدائها فى الطرقات .

على أن السلاطين كانوا مثقلين بالواجبات فيجلسون للقضاء والفصل فى كل مظلمة تقدم لهم من عامة الناس ، ويشرفون على مكاتبات الدولة داخلية كانت أو خارجية .

الأحوال الاجتماعية والاقتصادية :

كان تعلق المماليك بالحفلات الرسمية عظيما ويشبهه ولعهم بألرياضة البدنية كالصيد والرماية وركوب الخيل وألعاب السيف والرمح والسباحة .

أما حياتهم الخاصة فأفضل وصف لها ما ورد فى كتاب ألف ليلة وليلة لأن ما جاء فى هذه القصص أكثره مستمد من حياة المماليك فى القاهرة كما يؤيد ذلك ما بقى من آثار عصرهم من قصور فخمة منسقة تنسيقا بديعا تتجلى فيه آثار الصناعة العربية الدقيقة من نافورات ومصابيح ومباخر وأباريق وآنية مطعمة بالذهب والفضة وتحف وطرائف مما جعل عصر المماليك أزهى عصور الفن الاسلامى المصرى .

تلك عيشة المماليك إذن : جماعة أجنبية لم تربطهم بالبلاد روابط وطنية أو أسرية ، تسفك الدماء وتظلم الرعية ثم هى تستمتع بما يؤاتيها من منتجات الفن الجميل ، وتسخو بالأوقاف على المؤسسات الخيرية ،

وتشييد مساجد وقصورا تعد من آيات الفن ، وتبالغ فى العناية بالمسكن والملبس والأثاث وتشجع الآداب والفنون بقدر ما تسمح به أوقات فراغها من الحروب الحزبية .

أما عامة الأهالى فكانوا يزرعون الأرض ويدفعون الضرائب ليعيش منها المماليك، ويصنعون لهم ما يحتاجون اليه من مختلف الحاجات . وقليل منهم كان يعمل فى القضاء وما اليه من الوظائف الدينية ، وفيما عدا ذلك لا يتصلون بالهيئة الحاكمة ولا يدلهم البتة فى شؤون الحكم ، وإنما يحمدون الله إذا ولى عليهم سلطان معتدل .

أهمية التجارة :

ولما اتصل الشرق بالغرب فى أثناء الحروب الصليبية وتاق الغرب إلى الاستمتاع بنفائس ما كان ينتجه الشرق من مختلف الطرائف والحاجيات وجدت الصلات التجارية بينهما وكانت البضائع تنقل من الشرق إلى الغرب بالطرق الآتية :

(١) طريق السويس — من المحيط الهندى والبحر الأحمر إلى السويس ومنها تنقل البضائع بالقوافل إلى القاهرة حيث تشحن فى السفن وتسير فى فرع رشيد إلى قرب الرحمانية ومن ثم فى ترعة مكان ترعة المحمودية الحالية إلى الاسكندرية ومنها إلى إيطاليا فأسواق أوربا .

(٢) طريق اسكندرونه — من المحيط الهندى والخليج الفارسى ونهر الفرات ثم بطريق القوافل إلى حلب واسكندرونه ومنها إلى إيطاليا فأسواق أوربا .

(٣) الطريق البرى إلى قسطنطينية — بين شرق آسيا وغربها ويسير جنوبى جبال التاى ثم يحاذى بحيرات بلكاش وبيكال وبحر الخزر إلى جنوب روسيا وينتهى إلى القسطنطينية ومنها إلى أسواق أوربا .

من هذا يتضح أن معظم التجارة بين آسيا وأوربا سواء جاءت برا أو بحرا كانت تمر بمصر أو بالشام وهى فى تلك العصور تابعة لمصر ، وأن خلفاء مصر وسلاطينها كانوا يستطيعون أن يتحكموا فى تلك التجارة ما شاءوا .

وأهم السلع التى كانت تنقل من الشرق حرير الصين وبفتة الهند وشاش الموصل ، والجواهر الكريمة التى تزدان بها تيجان الملوك والأمراء من زمرد وزبرجد وياقوت وماس وما إلى ذلك مما يوجد بالشرق وبخاصة الهند ولم تكن أوربا تعرف سوى الطب العربى وعماده بالطبع العقاقير الشرقية كالتمرهندى والمر والراوند وزيت الخروع والنشادر وسنامكه والصمغ العربى والأفيون وهو المسكن الوحيد فى ذلك العصر والكافور والزعفران .

وما كانت الكنائس الكاثوليكية وهى لا تحصى عدا فى غرب أوربا ، لتستغنى فى طقوسها عن البخور ومصدره الشرق .

وفوق هذا كان الأوربيون يعوزهم غذاء الأغنام شتاء فيذبحون كثيراً من هذه الحيوانات ويجففون لحومها ، ويفعلون مثل ذلك فى السمك يقتاتونه أيام الصيام ، وفى تجفيف اللحوم والسمك لم يكن بد من التوابل كالفلفل والقرنفل وجوز الطيب والقرفة والزنجبيل ، ولا يقل عن هذه أهمية مواد الصباغة كالعظلم (النيله) وأدوات الزينة والتمر واللازورد .

هذا قليل من كثير من ثبت نفائس الشرق وهو يكفى للدلالة على أن قدراً غير قليل من الكماليات بل والضروريات المنزلية كان يستحضر من آسيا إلى أوربا فى العصور الوسطى ، وكل هذه الكنوز والطرف كان يمر أكثرها بين السويس والأسكندرية ، وبقيتها بالشام . وكان سلاطين المماليك يفرضون عليها فى الحالين ضرائب جمركية لا يسهل علينا تصديقها : فضرائب يتقاضونها عند نزول هذه السلع بالبلاد وضرائب يأخذونها عند خروجها منها والراجح أن هذه المكوس كانت تبلغ ثلث ما تساويه السلع فى مصر .

وبذلك جمع سلاطين مصر من هذه التجارة أموالا طائلة بنوا منها أكبر المساجد وأفخم المدارس والمستشفيات والسبل وما إليها مما يعد أبدع ما لدينا من الفن العربى وناهيك بجامع السلطان حسن عظمة وجامع قايتباى تنسيقاً ودقة صنع . وبهذه الأموال أيضا تمتعوا بما سبقت الاشارة إليه من نعيم

وترف صار مضرب الأمثال وكثر احسانهم فى أيام الأعياد والمواسم مما كان يخفف غائلة الفقر بين الأهالى واحتفظوا بجلال الملك وأبهة الدولة ما بقيت مصر والشام ملتقى البائع الشرقى والمشترى الغربى وكانت الاسكندرية أكبر مركز لتلك التجارة فأقام أكثر الدول الأوربية بهـا وكالات تشرف على مصالح تجارتها .

ولمـا كان الطليـان أقرب الأوربيين إلى الاسكندرية لم ينتـه القرن الثالث عشر حتى كان نقل التجارة من مصر والشام إلى أوربا وقفا عليهم . وكان أسبق مدن إيطاليـا « بيزا » و « املفى » غير أن موقعهما الطبيعى جعلهما دون « جنوه » و « البندقية » . وتنافست هاتان طويلا تريد كل منهما أن تنفرد بتلك الغنيمة الهائلة ، وما لبثت البندقيـة أن فاقت بفضل قربها ، واكتفت جنوة بتجارة القسطنطينية . ومن البندقية كانت التوابل وبقية سلع الشرق تنقل إلى أنفرس وبروج ومدن الهنسا وتدر على البنادقة ذهب أوربا حتى أثرى أهلهـا حكومة وشعبا ، فامتـد ملكهم فى وادى نهر البو ودلمـاشيا وجزر اليونان وكريت وقبرص . وصارت هذه محطات بينها وبين حلب واسكندرية ، فلا عجب أن سبقت البندقيـة غيرها فى الطباعة والتصوير فى أواخر العصور الوسطى .

وقد استمرأ الممـاليك والطليان هـذه المكاسب الكبيرة واشتط الأولون فى فرض المكوس ، ورفع الآخرون الأثمان طلبـا لزيادة الأرباح حتى صارت تحف الشرق تباع بأثمان باهظة ، فضاق المشـترون ذرعا ودب الحسد فى قلوب بعض الأمم الأوربية ، وأعملوا الفكر فى نيل شطر من تلك الأموال التى ما تبرح تتدفق فى جيوب المصريين والبنادقة ، سيما بعد أن سمعوا ما قصه « ماركو بولو » عن ثروة الشرق وترفه وعظمته ، وإذ لم يكن غنى عن تحف الشرق وتوابله لم يعد لمعـالجة الموقف أحسن من البحث عن طريق جديد يحول التجارة عن مصر والبندقية . وهـذا أدى إلى الاستكشافات الجغرافية كما سيجئ بعد .

الفصل السادس

مصر العثمانية

الدولة العثمانية :

الأتراك العثمانيون — كأسلافهم الأتراك السلجوقيين — من الجنس التورانى ، ومهدهم الأصلى وسط آسيا وشمالها . وينتسب الى هذا الجنس أيضا قبائل البلغار الذين زحفوا على شرق أوربا واستوطنوه أثناء القرنين السابع والتاسع .

أول ظهورهم فى التاريخ :

بدأ تاريخ العثمانيين بحادثة روائية جليلة الشأن،وتدل على ما فى أخلاقهم من الشهامة والبطولة . ففى منتصف القرن الثالث عشر كانت قبيلة صغيرة من قبائل وسط آسيا — التى اكتسحها المغول — تجول بقيادة رئيسها "أرطغرل" فى آسيا الصغرى قرب أنقرة، إذ رأت جيشين يقتتلان فى معركة قدحمى وطيسها، فما كان من رجال هذه القبيلة الصغيرة الا أن اقتحموا ميدان القتال، مدفوعين بغريزتهم الحربية آخذين جانب الضعيف من المتحاربين، فدارت الدائرة على الأقوياء وانتصر "أرطغرل" وحلفاؤه الضعاف .

جزاء الشهامة :

ولشد ما دهش " أرطغرل " ورجاله عند ما علموا أنهم ما نزلوا إلا لمساعدة بنى قرابتهم — الأتراك السلاجقة — ضد جموع المغول المغيرين على سلطنة " قونية " ومليكها إذ ذاك " السلطان علاء الدين " .

وقد كافأ علاء الدين تلك القبيلة الصغيرة على صنيعها الجميل بأن أقطعها جزءا من مملكته قرب " بروسة " .

عثمان :

ولما مات "أرطغرل" ١٢٨٨ ، خلفه ابنه الأكبر عثمان وأبدى شجاعة عظيمة فى التغلب على القبائل والقلاع المجاورة له والتى كانت بأيدى الروم . وكان جزاؤه أن رقاه السلطان " علاء الدين " إلى رتبة الأمراء وجعله حاكما مستقلا فى جميع الأراضى التى فتحها .

استقلاله :

وفى عام ١٣٠٠ أغار المغول على دولة السلاجقة بآسيا الصغرى فقضوا عليها ، وتوفى السلطان علاء الدين ، واستقل كل أمير بمقاطعته وأصبح عثمان مستقلا تمام الاستقلال فى إمارته بجعل يوسع أملاكه رويدا رويدا حتى سمع بفتح " بروسه " وهو على فراش الموت .

وقد اهتم عثمان بتنظيم جيشه وحكومته ، فكبر اسمه وعظم شأن دولته وطار صيت آل عثمان بين الأمراء . لذلك كله اعتبر عثمان المؤسس الأول لدولة آل عثمان ولهذا أيضا انتسبت اليه الدولة والأمة .

أورخان :

وفى سنة ١٣٢٦ مات عثمان وخلفه ابنه " أورخان " الذى تدرب على أعمال الحرب والحكم فى عهد أبيه . وكان "أورخان" عالى الهمة شجاعا ، فواصل الحرب حتى استولى على بروسة واتخذها مقرا للدولة الحديثة وبذلك اقترب آل عثمان من القسطنطينية مقر الدولة البيزنطية ولم يكن بد من استمرار الحرب بين حكومتين احداهما فتية قوية تريد أن توسع سلطانها والأخرى هرمة آخذة فى الاضمحلال ولكن قبل أن يتمكن العثمانيون من الوصول إلى القسطنطينية رأى أورخان ضرورة القيام بعدة إصلاحات كان لها أثر مباشر فى الانتصارات التى كسبها العثمانيون بآسيا الصغرى أولا ثم فى أوربا .

بدء الانكشارية :

وأهم الاصلاحات فى عهد أورخان تنظيمه للجيش و إنشاء فرقة الانكشارية ومعناها الجيش الجديد وقد كان الجيش فى أول الأمر عبارة عن عدد من الفرسان يجتمعون وقت الحرب من غير نظام أو معرفة ثم ينصرفون بعد الموقعة ، فعزم أورخان على أن يكون جيشه ثابتا ووضع نظاما خاصا لتدريب الجند وأشار عليه أحد وزرائه بتكوين فرقة من الشبان



جندى انكشارى

الأسرى من أبناء المسيحيين يجمعونهم و يفصلونهم عن كل ما يذكرهم بوسطهم الأول فينشأون على حب الدين الاسلامى والوطنية العثمانية ، لايعرفون سوى السلطان أبا والحروب والجهاد دينا. ولما كانوا مقطوعين عن الأهالى صار لا يخشى من عصبيتهم أو تحزبهم فأعجب السلطان بهذا المشروع وأمر بتنفيذه . و بذلك نشأت طائفة من أقوى الطوائف العسكرية

التى ظهرت فى التاريخ و يعد ظهورها من أهم العوامل التى ساعدت الدولة على فتوحاتها العظيمة فى أوربا والشرق. ولما كان مجال الرقى مفتوحا أمام أفراد هذه الطائفة استبسل الجميع فى الحروب وخاضوا غمارها مضحين بكل شىء الا الشرف. وكان السلطان يجمع لهذه الفرقة ألفا من أبناء المسيحيين كل سنة. ولما وقفت الفتوح فرضتها الحكومة جزية على المسيحيين من رعاياها واستمرت هذه الطائفة عونا للسلطان والحكومة مدة ثلاثة قرون وصل فيها أفرادها الى أرقى الدرجات ولم يمض زمن طويل حتى فتح العثمانيون "أدرنة" واتخذوها عاصمة لهم لحصانة موقعها، وسرعان ما أحاطوا بالقسطنطينية وحالوا دون اتصالها بالممالك المسيحية الاخرى فى البلقان.

بدء الاسطول :

ولما عظم اتصال أملاك الترك بالساحل الأوربى رأى السلطان مراد ضرورة العناية ببناء بعض السفن الصغيرة فى بحر مرمرة وبذا تكونت نواة القوة البحرية العثمانية.

حلف أوربا :

ولما رأى المسيحيون ازدياد قوة العثمانيين فى أوربا هالهم الأمر وخشوا أن يكتسح الترك شرق أوربا فأجمعوا أمرهم وتكون حلف من ملوك الصرب والبلغار والمجر وكاتبوا البابا وطلبوا اليه أن تساعدهم أوربا ضد تقدم الأتراك وسار جيش الحلفاء قاصدا "أدرنة" فارتدوا عنها خاسرين.

معركة قوصوه :

وتقدم الأتراك غربا يضمون أراضى البلغار ثم الصرب وتقابل الجيشان فى سهول قوصوه سنة ١٣٨٩ حيث قامت معركة هائلة من أشهر معارك التاريخ دافع فيها الصربيون ومن تطوع لمساعدتهم من أهل أوربا دفاع الأبطال واستمرت الحرب سجالا بين الجانبين مدة من الزمن الى أن ضعفت

مقاومة الحلفاء أمام هجمات الأتراك فانهزم الصرب وقتل ملكهم وكانت نتيجة هــذه الموقعة أن فقدت الصرب والبلغار استقلالها ومات كثير من أمراء وأعيان أوربا .

وبينما كان السلطان مراد يتفقد ميدان الحرب بعد الموقعة قام جندى من بين القتلى وطعنه بخنجره فخر صريعا ومات لوقته ، بعــد أن وصلت حدود دولته فى أوربا إلى شواطئ نهر الطونة .

الصاعقة :

وخلفه السلطان " بايزيد الأول " الملقب "بالصاعقة" وكان كأسلافه على جانب عظيم من الشجاعة والإقدام والمهارة الحربية ، بدأ أعماله بأن أمن جانب الصرب الذين أظهروا فى حروبهم وفى سبيل صيانة استقلالهم استبسالا واستماتة خليقين بالاعجاب فعين " اسطفان " بن (لازار) الملك المقتول ملكا مستقلا على صربيا يحكم البلاد حسب قوانينها وعاداتها بشرط دفع جزية وتقديم عدد معين من الجنود يشــترك مع العثمانيين فى حروبهم وتأييدا لهذا الاتفاق قبل السلطان أن يتزوج بأخت الملك اسطفان .

هجوم المغول :

وبينما هو يسـتعد لفتح القسطنطينية إذ وصل اليـه خبر هجوم المغول أو التتار على آسيا الصغرى بقيادة الطاغية (تيمورلنك) أى تيمور الأعرج ، فجمع جيوشه وتقابل الجيشان فى سهل أنقرة سنة ١٤٠٢

هزيمة أنقرة :

ولمـا بدأت المعركة انحاز عدد كبير من جنود بايزيد الاسيوية الى أمرائهم الأصليين الذين انضموا الى تيمور بعد أن اسـتولى العثمانيون على

بلادهم . لذلك ضعف جانب العثمانيين فى الموقعة ودارت الدائرة على بايزيد فوقع أسيرا هو وابنه وانكسر العثمانيون شر انكسار. أما بايزيد فمات فى الاسر كمدا سنة ١٤٠٣، وسمح تيمور بنقل رفاته الى بروسة ليدفن بجانب أجداده . وهذا يدل على أن تيمور كان يكرم بايزيد .

وقد كادت هزيمة أنقرة تفضى الى زوال دولة العثمانيين لولا تجزؤ دولة المغول على أثر موت تيمورلنك سنة ١٤٠٥ وهو فى طريقه الى الصين .

الانقسام :

وقد تجزأت الدولة بعد بايزيد وعاد أمراء آل سلجوق الى إماراتهم كما استقل الصرب والبلغار والأفلاق . وقد زاد حرج الحالة أن أبناء بايزيد تنازعوا فيما بينهم على العرش .

لمّ الشعث :

واستمرت الحروب بينهم الى أن تغلب " محمد الأول " (سنة ١٤١٣ — ١٤٢١) فوحد الدولة من جديد وقمع الفتن وقضى على الفوضى والثورات واسترد جميع ما كان للدولة قبل واقعة أنقرة، وعقد المعاهدات مع امبراطور القسطنطينية والأمراء المسيحيين ، ليتفرغ الى توطيد دعائم الدولة فى الداخل . و بينما هو محمد فى ذلك فاجأته المنية فى عام ١٤٢١ فى الثالثة والثلاثين من عمره وخلفه ابنه " مراد الثانى " (١٤٢١ — ١٤٥١) فسار وفق الخطة التى ورثها عن أجداده وهى العمل على توسيع رقعة الدولة ومواصلة الفتوح فى أوربا .

فقام المجر بجمع جيش أوربى عظيم بقيادة القائد المجرى " هنياد " فسار الجيش مخترقا بلاد البلقان حتى وصل الى "ورنة" على ساحل البحر الأسود سنة ١٤٤٤ فانتصر العثمانيون انتصارا باهرا . وخلفه ابنه محمد الثانى أو الفاتح (١٤٥١ — ١٤٨١) وكان جل همه فتح القسطنطينية .

أسباب ضعف الدولة البيزنطية :

أما أسباب ضعف الدولة البيزنطية فتتلخص فيما يأتى :

(١) ظهور دول شرقية فتية قوية كالفرس والعرب أخذت من الدولة معظم أملاكها فى الشرق وجعلت سلطانها قاصرا على شبه جزيرة البلقان وبذلك قلت موارد ثروتها .

(٢) ظهور الشعوب الصقلبية فى البلقان وتكوينهم ممالك كثيرا ما شنت الغارة على الدولة وحاولت الاستيلاء على القسطنطينية نفسها .

(٣) كان استيلاء الصليبيين على أملاك الدولة كما بينا فى الحرب الصليبية الرابعة سببا لتجزئة أملاك الدولة وإيجاد الشحناء والاضطرابات الداخلية .

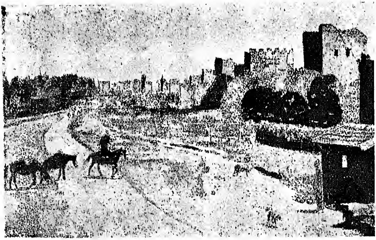
(٤) انقسام الآراء الدينية داخل البلاد وخاصة فى القسطنطينية فقسم الأشراف كان يرى ضم الكنيسة الى بابا روما حتى تنتفع البلاد بمساعدة البابا وملوك أوربا ضد غارة الأتراك ، وقسم الشعب يرى وجوب استقلال الكنيسة الأرثوذكسية . أضف الى هذه الأسباب التنازع على الملك وانتشار الوباء المعروف " بالموت الاسود " الذى ظهر فى شرق أوربا سنة ١٣٤٧ وفتك بالناس فتكا ذريعا مما أثر فى تجنيد الجيوش وجمعها .

فتح القسطنطينية :

غير أن من أهم العوامل التى أدت الى سقوط الدولة البيزنطية ظهور الترك وتضييقهم الخناق على الدولة من كل جهة حتى صارت فى آخر أمرها قاصرة على مدينة القسطنطينية وما حولها .

الحصار :

ولما استعد السلطان محمد الثانى للحرب الحاسمة بينه و بين البيزنطيين حاصر القسطنطينية برا و بحرا فكان جيشه يبلغ ٢٥٠٠٠٠ وأما السفن فعددها ٨٠ سفينة وأقام حول أسوار المدينة عددا من المدافع الضخمة التى كانت تقذف كرات عظيمة من الحجر الى مسافات بعيدة وكانت القسطنطينية فى غاية المنعة من الأسوار والبروج .



أسوار القسطنطينية

تسيير السفن على اليابس :

وكان امبراطور القسطنطينية " قسطنطين باليولوغس " آخر الأباطرة رجلا شجاعا وطد عزمه على أن يموت فى سبيل الدفاع عن عاصمته ، فاستنجد بأوربا فلم يلب الدعوة سوى جمهورية جنوة إذ أرسلت عددا من السفن عليها بضعة آلاف من الجنود ، ولما رأى السلطان دخول الميناء متعذرا لوجود سلاسل ضخمة على باب الميناء المعروف " بالقرن الذهبى " تحول دون دخول السفن ، فكر فى طريقة تغنيه عن اقتحام الميناء من جهة

السلسلة وذلك بأن يصنع طريقا من الخشب تنزلق عليـه السفن على البر حتى تصل إلى القرن الذهبي وفعلا وجد المحصورون أنفسهم فى صبيحة ذات يوم أمام سـبعين سـفينة كانت قد انزلقت إلى الميناء تحت جنح الظلام واستمر الحصـار أكثر من خمسين يوما أظهر فيها الجانبان بسالة نادرة .

وقد قتل قسطنطين بينما كان يدافع بنفسه على أسوار المدينة وفى ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣ هجم الأتراك هجومهم الأخير فتسلقوا الأسوار ودخلوا المدينـة وأعملوا السيف فيمن اعترض طريقهم واحتلوا سراى الامبراطور ودخلوا كنيسة " القديسة صوفيا " وكان جمهور المسيحيين واقفا فى الميدان ينتظر نزول ملاك من السماء ينقذ المدينـة فى الساعة الأخيرة ، فقتل العثمانيون منهم وأسروا .

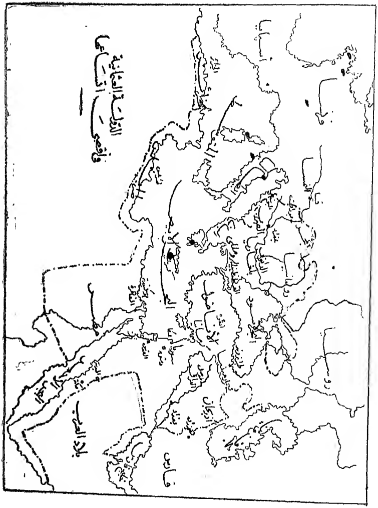
تأمين السكان ، إقامة البطريق :

ولما دخل السلطان المدينة أبطل النهب والسلب ودخل كنيسة القديسة صوفيا وحولها إلى مسجد جامع للسلمين كما حول بعض كنائس أخرى بالمدينة ، وترك الكنائس الباقية للمسيحيين وأعلن الأهالى أنه لا يعارضهم فى إقامة شعائرهم الدينية وأنه يضمن لهم حرية دينهم وأملاكهم ودعاهم إلى انتخاب بطريق لهم تكون له ولأساقفتـه السلطة القانونيـة التامة فى جميع قضايا المسيحيين المدنيـة والجنائية وهـذه المنح تدل على مقدار ما أظهره الأتراك من التسامح مع رعاياهم من المسيحيين .

نتائج سقوط القسطنطينية

أثره فى أوربا :

وكان لسقوط القسطنطينية نتائج بعيدة المدى : إذ بقيت زمنا طويلا بمثابة درع يقى أوربا هجمات الآسيويين من فرس وعرب وسلاجقة وغيرهم . ويمر بها أكثر الأوربيين فى طريقهم إلى بيت المقدس فيجدون بهـا



ما يريدون من مؤن ومتاجر ويشاهدون فيها حضارة راقية يقتبسون بعض مظاهرها . ولا عجب فان القسطنطينية إن ورثت روما من الناحية السياسية ، فانها من الوجهة العقلية كانت أولى مراكز الثقافة الاغريقية تخضع لها أثينا والاسكندرية وانطاكية . فبينما اللغة الاغريقية أجنبية فى أوربا الغربية ، إذا بها اللغة القومية فى مدينة قسطنطين ، ولذلك سهل على أكثر سكان الامبراطورية البيزنطية تذوق أدب القدماء ، فعنوا به ونسجوا على منواله ، واكتظت مكتباتهم بذخائر الاغريق فى كل فن طرقوه .

أثر فتح قسطنطينية فى الترك :

أما الترك أنفسهم فقد نالوا بفتحها فخرا طالما تطلع إليه عظماء الإسلام من قبلهم ، فابتهج المسلمون فى أقطار الأرض وتقدم سلطان مصر بالتهنئة الحارة وأقيمت الزينات فى القاهرة أياما . وأصبح للترك مركز ممتاز فى الشرق . واقتبسوا كثيرا من نظم الدولة البيزنطية من سياسية وادارية وأخذوا مراسم البلاط بكل تفاصيلها حتى صح القول " بأن السلطان إنما هو قيصر مسلم " وما لبث السلاطين أن اختاروا من سكان عاصمتهم الجديدة عددا عديدا من الموظفين كترجمان الباب العالى — أو وزير الخارجية الفعلى — وترجمان الأسطول وحكام بعض الأقاليم . وهؤلاء احتفظوا بالنظم والمراسم التى شبوا عليها .

أثره فى الكنيسة الأرثوذكسية :

وإلى جانب هذا أتاح فتح القسطنطينية فرصة نادرة المثال للكنيسة الأرثوذكسية والقومية اليونانية إذ كان الترك قبل فتحها يحكمون رعاياهم المسيحيين مباشرة ولو استمر ذلك لكان من الممكن اندماجهم فى العثمانيين . فلما فتحت تلك المدينة أراد محمد الفاتح أن يتخذ من مركز البطريق ونفوذه وسيلة لضمان خضوع المسيحيين فولاه أمرهم وسرعان ما صارت له محاكم تفصل فى قضاياهم ومدارس تعلم بقية من علوم الاغريق فى بلادهم و بلغتهم.

وهذه المدارس وتلك المحاكم أكدت الانفصال بين الحاكم والرعية وما زالت الروح القومية تنمو بين الشعوب الأرثوذكسية حتى طالبت بالاستقلال ونالته فى القرن التاسع عشر .

سليم الأوّل وفتح مصر

بعد أن فتح محمد الثانى القسطنطينية سنة ١٤٥٣وجه نظره إلى غزو أوربا ففتح جزءا كبيرا من شبهجزيرة الموره فى بلاداليونان وتقدم لاسترجاع ألبانيا وكان زعيمها اسكندربك يحاول نزع السيادة العثمانية عنها ومكنته جبال بلاده من المقاومة فلم يقدر عليه العثمانيون إلا بعد حرب دامت عشرين عاما وكان من أغراض محمد الفاتح غزو المجر والمانيا إلا أن البطل المجرى « هنياد » كان قد عول على التزام خطة الدفاع فقوى حصون بلغراد — وكانت فى حوزة المجر — وزاد فى حاميتها وبث فيهم روح الاستبسال فانتصر هنياد سنة ١٤٥٦ ، وكف محمد عن هذه الناحية وتحول إلى آسيا الصغرى فاستولى على طرابزون على البحر الأسود وكانت إذ ذاك فى يد الروم وأخضع إمارة القرمان لحكمه ثم صار إلى بلاد القرم فدخلت فى طاعته .

وخلفه ابنه « بايزيد الثانى » (١٤٨١ — ١٥١٢) وكان ضعيفا فخرج عليه أخوه «جم» فلما هزمه بايزيد فر إلى مصر واستجار بسلطانها الأشرف قايتباى فأكرمه وجهزه إلى الحج بما يليق بالأمراء ، فاستاء لذلك بايزيد فأرسل بايزيد جيشا إلى الشام وكانت تابعة لمصر فانتصرت عليه الجيوش المصرية قرب حلب وتغلبت كذلك على الجيش الثانى الذى أرسله .ثم تقدم المصريون يريدون غزو آسيا الصغرى وانتصروا على العثمانيين قرب "اطنه" وأخذوا كثيرا من الأسرى .

ثم حدث خلاف بين الأسرة الحاكمة فى ولاية ذى الغادر من ولايات آسيا الصغرى وكانت خاضعة لمصر فعاضد قايتباى صاحب الأمر فيها وساعد

بايزيد أخاه الخارج عليه . وفى هذا الخلاف انتصرت مصر انتصارا باهرا عند قيسارية فنوافرت أسباب العداء بين العثمانيين والمصريين وتطلع كل فريق إلى نيل الزعامة فى العالم الاسلامى .

ولم يرق ميل بايزيد إلى السلم فى أعين الانكشارية فاضطروه إلى التنازل عن العرش لابنه سليم الأول (١٥١٢ — ١٥٢٠) وكان قائدا بارعا وسياسيا خبيرا ومحبا للأدب إلا أنه كان قاسيا يقتل كثيرا من أقاربه ورجال دولته .

و يظهر أن مالقيه العثمانيون من طول مقاومة اسكندر بك الألبانى وهنياد المجرى صرفهم عن أوربا مؤقتا فالتفتوا للقضاء على أعدائهم فى الشرق حيث كان الشاه اسماعيل الصفوى قد عظم سلطانه فى فارس ، و بعد صيته فى الشرق وانتصر بذلك المذهب الشيعى واعتنقه بعض رعايا العثمانيين وخشى السلطان سليم أن يغدر به هؤلاء الدعاة من الشيعة فقتل زعماءهم وسار فى جيشه إلى فارس فانتصر على الشاه اسماعيل قرب تبريز ، وكانت العاصمة فى ذلك الوقت . ولولا عصيان الانكشارية لأتم فتح فارس ، ولكن تمردهم اضطره إلى الاكتفاء بضم ديار بكر و كردستان ، وأخذ نحو ألف من صناع الفرس الحاذقين لانهاض الصناعات فى القسطنطينية مما يدل على عناية سليم بالفنون وحبه لنشر الصناعات الدقيقة فى بلاده وسنرى من ذلك مثلا آخر فيما بعد .

و فى ذلك الوقت كان البرتغال قد طافوا حول إفريقية واستولوا على التجارة الهندية وهزموا الأسطول الذى أرسله السلطان الغورى للقضاء عليهم سنة ١٥٠٩ و بتحويل التجارة الشرقية من مصر حرم الأهالى والحكومة من مورد كبير من موارد الثروة ، وأصبحت خزانة الدولة خاوية ، ولم يجد الغورى بدا من فرض ضريبة تعادل دخل سبعة أشهر — فرضها على الحوانيت وما اليها مما جرت العادة بفرض الضرائب عليه ، وأضاف إلى ذلك ضرائب على الطواحين والسواقى ودواب الحمل وخدم القصور ، بل وعلى الأوقاف الخيرية أيضا — لذلك قامت الثورات فى القاهرة بسبب هذا العسف .

ولسوء الحظ أن جزءا كبيرا من هـذه الضرائب أنفقه الغورى على مظاهر البذخ والترف فى بلاطه وفى إقامة المبـانى بالقلعة وتجميل مكة فى حين كان الواجب عليه النظر فى تحسين الزراعة وما يرتبط بها حتى يعوض على الأهالى والخزانة مافاتهم من تجارة الشرق ، وحتى يستطيع تقوية جيشـه وزيادة ذخائره وتحسين أسلحته استعدادا لوقف تقدم الأتراك العثمانيين بعد أن تجلى عداؤهم لمصر ، وكثر الخلاف بين الطرفين للأسباب التى ذكرناها ، ولأن مصر قبلت أخا لسليم كان خارجا عليه ، ولأن أمراء آسيا الصغرى التابعين لمصر أخروا ورود المدد للجيوش العثمانية أثناء محاربتها الفرس ، وبسبب الاتفـاق السرى الذى كان بين الغورى واسماعيل الصفوى . وينضم إلى هذه الأسباب ما يقال من تفكير سليم الأول فى الاتصال بالهند عن طريق مصر والبحر الأحمر بعد أن أخفق فى الاتصال بها عن طريق فارس ، ثم رغبته فى نيل الخلافة بالاستحواذ على شخص الخليفة العباسى وكان إذ ذاك بمصر ، ولو كان الغورى بعيد النظر لحالف اسماعيل وساعده على الترك ، وقضيا على قوتهم قبل استفحالهـا وإذن لبقيت مصر مستقلة ومعافاة من الويلات التى حاقت بها مدة ثلاثة قرون من الحكم العثمانى الغشوم .

وفى ربيع سنة١٥١٦ أعد سليم الثانى جيشا عظيما منظما وتظاهر بأنه يريد الاجهاز على الفرس ولم يفطن قنصوه الغورى لغرضه الحقيقى إلا بعد لأى وإذ ذاك أعد جيشا كبيرا خرج به فى شدة القيظ سنة ١٥١٦ رافقه الخليفة العباسى والوزراء وكثير من أمراء المماليك تتقدمهم جميعا الموسيقى والأغانى والأفراح وفى أثناء المسير انضم اليهم كثير من البـدو والسوريين ودخل الغورى دمشق فى أبهة فائقة ثم سار إلى حمص وحماة فاستقبل بالترحاب وهناك جاءته وفود سليم بالهدايا زيادة فى التغرير به فأرسل الغورى هدايا تقابلها وكان سليم قد قرر الحرب فأساء استقبال الوزير المصرى ومن كانوا معه فتقدم الجيش المصرى وعسكر فى "مرج دابق" على مسيرة يوم شمـالى حلب وهناك التقى الجيشان وانتصر المصريون أول الأمر وفكر سليم فى التقهقر رغم تفوقه فى المدفعية وعدد الجنود إلا أنه فى تلك الساعة ظهر ما كان خير بك حاكم حلب يبطنه من الخيانة لسلطانه ووطنه إذ انسحب بجيشه من

،المعركة فظن بعض الجنود المصرية أن الهزيمة قد حلت بهم وفروا إلى حلب ولما رأوا أبوابها مغلقة استأنفوا الفرار إلى دمشق . وثبت الغورى ومن حوله فى القتال ، ولكن الخليفة وبعض كبار الأمراء انحازوا إلى العدو فتم النصر للعثمانيين وقتل السلطان قانصوه الغورى فى المعركة ولم يعثر له على أثر .

ودخل سليم حلب دون معارضة واستولى على نفائس عظيمة كان الغورى وأمراؤه قد تركوها فى القلعة خوفا عليها وانضم إليه خير بك وغيره من خونة المماليك ثم سار جنوبا إلى دمشق فأخذها لتنازع أمرائها .

وسمعت القاهرة بموت الغورى فى سبتمبر سنة ١٥١٦ وأراد طومان باى نائب السلطنة استنهاض المماليك للدفاع عن البلاد ولكنهم تلكئوا معتذرين بضرورة انتظار حضور الأمراء الآخرين من سوريا وبذلك أضاعوا شهرا دون جدوى بينما كان العثمانيون يستولون على حصون سوريا وفلسطين مثل طرابلس وصفد وينظمون أمور البلاد على طريقتهم الخاصة . ولما عاد المماليك المنهزمون إلى مصر كان من بينهم " جان بردى الغزالى " نائب حماة من قبل مصر ، وكان السلطان العثمانى قد استماله إلى جانبه ووعده بولاية الشام متى استولى عليها وقد ساعد وجود هذا الخائن على إضعاف المقاومة لأنه سار فى حملة لتخليص غزة فشتت رجالها فى جهات مختلفة بدلا من مهاجمة العثمانيين بهم جميعا .

وكان طومان باى يريد مقابلة الأعداء عند الصالحية . وقد أنهكهم طول السير فى الصحراء ، ولكن المماليك تخاذلوا عنه وطلبوا إليه زيادة النفقات كأنهم أصبحوا جنودا مرتزقة لا أمراء يذودون عن بلاد لا وطن لهم سواها . ولم يخرج الجيش من القاهرة إلا فى ديسمبر بعد سقوط غزة واضطر طومان باى أن يعسكر بالريدانية وهى صحراء العباسية إلى عين شمس حيث حفر الخنادق ونصب المدافع على عجل وكان سليم قد وصل إلى الصالحية وسار إلى بلبيس فالخانقاه دون أن يلقى معارضة . ثم نشب القتال وفيه أظهر طومان باى ومن حوله غاية الاستبسال واقتحموا الصفوف العثمانية إلى

خيمة السلطان، ولكن سليم كان قد أرسل فرقتين لتطويق أعدائه إحداهما إلى الجبل الأحمر والأخرى إلى بولاق ، فلما أوقعت هاتان الفرقتان بجناحى المصريين ومؤخرتهم فر المماليك جنوبا بازاء النهر نحو ميلين ودخل العثمانيون القاهرة وذبحوا الحامية الجركسية التى كانت بالقلعة عن آخرها وأعملوا النهب فى المدينة .

وكان طومان باى قد جمع بعض المماليك حوله وهاجم بهم معسكر سليم وحدث قتال شديد بين الطرفين وملك طومان باى أكثر المدينة وساعده أهلها على العثمانيين فقتلوا منهم عددا كبيرا إلا أن سليم استرد العاصمة بعد حرب استمرت أربعة أيام. وعاد طومان باى إلى الفرار إلى الصعيد وحصن سليم القلعة واتخذها مسكنا له ثم ظهر طومان باى وأعوانه من المماليك والعرب فى برالجيزة وبعث إلى سليم يعرض عليه أن تكون مصر للمماليك على أن يعترفوا بالسيادة العثمانية فى الخطبة والسكة والخراج وقبل سليم ذلك ولكن المماليك ثارت ثائرتهم على طومان باى فعول على ملاقاة العثمانيين فى موقعة حاسمة وأنشأ سليم قنطرة من السفن عبرت عليها جنوده والتقى الجمعان قرب وردان حيث انتصر المصريون أولا غير أن المدافع والبنادق العثمانية فتكت بهم فتكا ذريعا . وبعد يومين كاملين فر طومان باى إلى «حسن بن مرعى» وهو شيخ من البدو كان قد أنقذه طومان باى من الموت ولكن البدوى سلمه إلى الترك وكوفىء على خيانته إلا أنه لم يلبث أن قتل وشرب الجراكسة من دمه .

أما طومان باى فإنه لما حضر بين يدى سليم تكلم بشجاعة عن حقه فى القتال لأن الواجب يحتم عليه الاحتفاظ بشرف أهل البلاد واستقلالهم فرأى سليم أولا أن يستبقيه ويستصحبه إلى القسطنطينية ، ولكن الخائنين : خير بك وجان بردى ألحا بضرورة قتله فزج فى السجن ثم علق على باب زويلة ودفنت جثته بعد ثلاثة أيام فى مسجد الغورى وبكاه الناس بكاء مرا وأراد أعوانه ذبح سليم فحال دون قصدهم يقظة حرسه . وكان طومان باى شجاعا كريما عادلا وهو أحسن أسرة الجراكسة وإن كان آخرهم .

ولما استقر الحكم للعثمانيين كافئوا الخائن " خير بك " بتعيينه واليا على مصر كما منحوا شريكه فى الخيانة " جان بردى الغزالى " ولاية سورية ثم أمر سليم بجمع شيوخ الصناعات والبارعين فيها وأرسل منهم نحو الألف إلى عاصمته فبطل بذلك ما يقرب من خمسين من الصناعات الدقيقة التى اشتهرت بها مصر أيام ربيع الفن العربى ، وسلب البلاد كذلك ما كانت تحويه القلعة وقصور السلاطين والأمراء ، وما كان بالمساجد والزوايا والأربطة من تحف فنية ونفائس وجواهر ولم يستثن أعمدة الرخام ومركباته — كل ذلك أرسله إلى القسطنطينية ليكون منه نماذج متقنة يحتذيها الفنانون ومهرة الصناع .

نظام الحكم العثمانى :

ولما عزم سليم الأول على مغادرة مصر احتاط لاستتباب الأمر فيها بأن أخذ معه إلى القسطنطينية كل من يخشى منهم أن يستحثوا البلاد على الثورة فى وجه العثمانيين ، فاستصحب كثيرا من أبناء السلاطين والعلماء والأمراء و " المتوكل " آخر الخلفاء العباسيين فى مصر . وقد عامل سليم الخليفة معاملة حسنة فى أول الأمر ثم قلب له ظهر المجن وسجنه إلى أن تولى " سليمان القانونى " فأطلق سراحه . ولما تنازل " المتوكل " عن لقبه ووظيفته إلى العثمانيين أذنوا له فى العودة إلى القاهرة فمات بها سنة ١٥٣٨ .

وبعد ، فقد رأى السلطان سليم أنه ما يزال لمصر من كثرة سكانها وعظيم مواردها وبعدها عن مقر الحكم العثمانى ما يساعد على استقلالها إذا انفردت بها يد واحدة فعول منذ الفتح على توزيع السلطة فيها بين هيئات متباينة يحول تنافرها وتشاحنها دون استقلال إحداها بالأمر . وجاء بعده ابنه السلطان سليمان القانونى وبنى على هذا الأساس فاذا حكم البلاد يتقاسمه الوالى أو الباشا ومقره القلعة وأهم عمل له تلقى الأوامر من السلطان وتبليغها والسعى فى تنفيذها ، وإرسال الجزية ، وقيادة الجيوش فى الحرب ، ويشارك الباشا فى الادارة العامة قواد الحامية ورؤساء (أغوات) فرقها وهذا المجلس ينظر فى المسائل العادية فإذا عرض أمر هام انضم إليه أعضاء من علماء البلاد وأعيانها

وكان للمجلس فى الحالين أن يوافق على مقترحات الباشا أو يرفضها ، بل صار له حق عزل الباشا والاتصال بالسلطان رأسا الى أن يعين وال آخر .

والى جانب هاتين الهيئتين المتنافستين استبقى العثمانيون المماليك ووكلوا إليهم الادارة المحلية لعلمهم بأهل البلاد وأحوالها فعينوا منهم مديرا (سنجقا) لكل من الأربع والعشرين مديرية . واختاروا منهم كذلك صغار الموظفين الاداريين وكان كبير المماليك يقيم بالقاهرة و يسمى "شيخ البلد" و بلغ من شأنه أن كان — حتى فى صدر الحكم العثمانى — ينوب عن الباشا اذا مات أو عزل إلى أن يصل الوالى الجديد .

أما تسجيل الأملاك ونقلها وتقرير الضرائب وتسلمها وحصر حساب الحكومة فأنشىء له ديوان خاص كان يعرف بديوان الأفندية .

وقد مسح سليم الأرض وأعلن أنها ملك له وفرض عليها خراجا قدره ٤٨,٠٠٠ من الجنيهات المصرية ، يرسلها الوالى سنويا إلى خزانة الدولة بالقسطنطينية . وفيما عدا ذلك لم يغير شيئا من نظام ملكية الأرض فبقيت الأوقاف معفاة كما كانت من الضرائب و يزرع الناس بعضها بالتسخير واستبقى كذلك نظام الالتزام وهو أن يتعهد من يشاء من الترك أو المماليك أو التجار بتحصيل الضرائب عن قرية أو أكثر فيدفع معجلا ضريبة سنة عن دائرة التزامه و يقوم هو بتحصيلها بعد ذلك نظير قيام الفلاحين بزرع أرضه الخاصة أو "الوسية" دون مقابل وكان ما يجمعه الملتزم يرسل جزء منه الى ديوان الأفندية أو بيت المال و يسمى "الميرى" أو المال الأميرى ، وجزء يرسل للسنجق أو الكاشف و يسمى الكشوفية و يصرف فى الأعمال الادارية المحلية ، والباقى يحتفظ به الملتزم لنفسه و يسمى "الفائض" ولما ضعفت الدولة العثمانية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر عظم نفوذ الملتزمين وصارت مناصبهم وراثية . ولهم أن يبيعوها بشرط إخطار بيت المال وشيخ البلد . و بنمو الالتزام صارت ملكية الأرض مشتركة بين السلطان الذى يملكها نظريا و بين الملتزم الذى أصبح له حق تعيين مشايخ البلاد والمباشرين (الصيارف) لمعاونته فى جمع الضرائب و بين الفلاح الذى له حق الانتفاع بالجزء الذى يزرعه .

الفصل السابع

عصر النهضة الأوربية

بينما كان المسلمون أيام الدولة العباسية يترجمون علوم الأقدمين من إغريق وفرس وهنود ، ويبتكرون نظريات وعمليات وعلوما جديدة كما رأيت — بينما العالم الاسلامى يموج بنهضته التى شملت كل مناحى الحياة من زراعة وصناعة وتجارة وعلم وفن وأدب — بينما المسلمون كذلك كان غرب أوربا يغط فى الجهل الذى اشتهر به عصره الوسيط ، ذلك الجهل الذى لمحت طرفا منه فى حاشية شرلمان الذين ظنوا الساعة المائية التى أهداه إياها الرشيد ضربا من السحر ، ونوعا من عمل الشياطين .

وإليك نظرة عجلى عن حال أوربا فى العصر الوسيط من الناحية العلمية تمهد لك الطريق لمعرفة النهضة الأوربية التى سمعت بها عرضا حين الكلام على تسرب علوم العرب إلى أوربا وفى غضون شرح نتائج الحروب الصليبية وما إلى ذلك .

الحالة العلمية فى القرون الوسطى :

على الرغم من فناء الدولة الرومانية الغربية بقيت اللغة اللاتينية مستعملة طول العصر الوسيط فكانت تستعمل فى الكنائس وفى الجامعات وكتابة المعاهدات والتقاضى والتأليف فلا عجب إذا أصبحت معرفتها معيارا لما يبلغه كل شخص من التربية والتعليم . وبفضل استعمال اللغة اللاتينية فى غرب أوربا ، بقيت شعوبها مرتبطة وسهل على البابا الاتصال بجميع رجال الدين واستطاع الرهبان والتجار وطلاب العلم أن ينتقلوا من جهة إلى أخرى غير حاسبين حسابا لاختلاف اللغات المحلية مادام فى قدرتهم أن يتفاهموا باللغة اللاتينية .

ظهور اللغات الحديثة :

على أنه لا يصح أن يتبادر الى الذهن أن اللاتينية المستعملة إذ ذاك كانت اللاتينية التى كان يتكلمها الرومان أيام عظمتهم لأن هذه لها قواعد وأصول يصعب على المتبربرين فى العصر الوسيط أن يفقهوها ، فجعلت لغة الكلام تبعد تدريجا عن اللغة اللاتينية الصحيحة وتتفرع الى لهجات عدة فى كل جهة لهجة خاصة . وما زالت هذه اللهجات تنمو وتبعد عن اللاتينية حتى أصبحت كل لهجة لغة قائمة بنفسها رغم أنها جميعا مشتقة ومؤسسة على اللغة اللاتينية وأهم هذه اللغات الطليانية والفرنسية والأسبانية والبرتغالية .

أما الأقاليم التى لم تتأثر كثيرا بحضارة الرومان أو لم تدخل فى حدود الدولة يوما من الأيام ، فبقيت على لهجاتها الجرمانية الأصلية وقويت هذه اللهجات المتفرقة حتى نشأت منها اللغات الألمانية والدانمرقية والهولندية والانجليزية وغيرها .

وكل هذه اللهجات سواء منها المؤسسة على الجرمانية والمؤسسة على اللاتينية بقيت مستعملة فى الكلام من غير أن تكتب مدة طويلة وتغنى بها الشعراء والرواة وتناقل الشعب قصائدهم وقصصهم بطرق السماع والحفظ ولم يكتب بها شيء قبل عهد شرلمان .

جهل العصر الوسيط :

وعلى الرغم من التقدم اللغوى الذى سبق ذكره كان الجهل متفشيا فى العصر الوسيط لأن علوم القدماء وآدابهم كانت مدوّنة بإحدى اللغتين الاغريقية واللاتينية ولم يكن لها تراجم باللغات الحديثة . ولما كانت معرفة هاتين اللغتين قاصرة على القليل النادر من الناس بقيت العلوم والآداب كنوزا مغلقة لا تعرف قيمتها بل لا يحس لها وجود ، فكان مبلغ علمهم بالتاريخ عبارة عن تصورات ابتدعها الوهم وجسمها الخيال تدور حول أشخاص من العظماء السابقين كالاسكندر وقيصر وشرلمان .

وأما من حيث العلوم الطبيعية فكانت أدمغتهم محشوة بالخرافات إذ كانوا يعتقدون بوجود حيوانات كالغول والعنقاء ووحيد القرن .

الفنون :

كانت الفنون ناطقة بأفكار العصر وعاداته وأولها ظهورا التصوير إذ كان الرهبان ينسخون الكتب بأيديهم ويحلون صدورها وبعض صفحاتها بصور صغيرة تمثل موضوعا دينيا على الأكثر ، وكانوا يستعملون فى تصويرها الألوان البهجة ويسرفون فى اللون الذهبى ، وأهم ما عنى الرهبان بتحليته صدور الكتب الدينية التى يتناولها كبار القساوسة ، وتدرجوا من ذلك الى تصوير الرسل والقديسين والأسرة المقدسة وبعض المناظر المذكورة فى الانجيل كالجنة والجحيم والشيطان ، حثا على الفضيلة وتنفيرا من الرذيلة .

بدء البحث العلمى :

بقيت أوربا فى هذا الجهل وهذه الفوضى إلى أن سطعت شمس العلوم الاسلاميه كما تقدم لك ، ووصل شعاعها إلى أوربا من مراكز إذاعة الثقافة العربية التى عرفتها وهى الأندلس وأخصها طليطلة ، وجنوب إيطاليا منضمة إليها جزيرة صقليه ، ثم بحر المشرق حيث اختلط الغربيون بالشرقيين بسبب الحج إلى بيت المقدس والحروب الصليبية .

ولذلك لم يكد ينتصف القرن الثالث عشر حتى ظهر فى أوربا علماء يخالفون مواطنيهم فى الاعتماد كل الاعتماد على ارسططاليس ، إذ ظهر راهب انجليزى من الاخوان الفرنسسكان اسمه " روجر بيكون Roger Bacon " المتوفى سنة ١٢٩٠ درس علوم العرب وتشبع بطريقتهم العلمية بجاهر بلزوم ترك كتابات ارسططاليس ونبذ الجدل جانبا ، ودعا الناس الى دراسة طبيعة الأشياء من نبات وحيوان ، وملاحظة تركيبها وغرائزها وخطأ الفكرة القائلة بأن ارسططاليس بلغ غاية ما يمكن أن تصل اليه الفطنة البشرية ، لأن العلم

لا نهاية له ولأن الانسان لو عاش الى الأبد ما أحاط علما بكل شيء ، وأبان أن الطريقة المثلى للوصول الى الحقائق العلمية انما هي طريقة العرب وأساسها اختبار الأشياء كما هي في حالتها الطبيعية واجراء التجارب الكثيرة عليها ، وأن هذه الطريقة أفضل ألف مرة من الانكباب على التراجم المحرفة لكتب ارسطاليس . وبالتدريج شاعت طريقة البحث العلمى الجديدة وقضى على طريقة علماء العصر الوسيط وبدأت النهضة الأوربية الحديثة .

وليس من السهل تعريف « النهضة الأوربية » فانها ليست حادثا معينا وإنما هي حركة أو ظاهرة طبيعية تجلت في تفكير الناس وأعمالهم ومعيشتهم وجعلتهم يتحررون تدريجيا من قيود ما ألفوه في العصور الوسطى . ويزدرون ما كان في تلك العصور من تقشف وتقييد . ومن أهم مظاهر النهضة ، الحرية في التفكير والصراحة في التعبير ، ومن مظاهرها إحياء العلوم وانتعاش الفن واتساع أفكار الناس باتساع العالم الذى يعيشون فيه بعد كشف أمريكا والوصول إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح ، ومن مظاهرها أيضا استمتاع الناس بمحاسن الطبيعة وملاذ الحياة وعدم المبالاة بما تتطلبه الكنيسة والحياة الآخرة .

كل هذه المظاهر تحدثنا عن قوة روحية جديدة جاشت في نفس الانسان وجعلته يشعر بشخصية مستقلة وعقلية تأبى قبول المعلومات دون تمحيص واختبار سواء في ذلك الدين والسياسة والفن والعلم .

وليس من السهل أيضا تحديد الزمن الذى شاعت فيه آثار النهضة لأن السير فى اتجاه الرقى أو الانحطاط يحدث عادة بتدرج بطيء لا يتبين الانسان أثناءه الوقت الذى فيه ينقطع أثر عوامل قديمة وتبدأ عوامل حديثة . وإنما نعرف التغيير بعد أن يستكمل أكثر مظاهره وحينئذ نمسك بكل مظهر ونتتبعه فى غضون الماضى بتدقيق وإمعان ونحاول فى كل خطوة تمييزه عما يحيط به ، إلى أن نصل إلى النقطة التى بدأ منها . على أنه قد يتصادف أن تحدث فى وقت تغيرات عديدة ومهمة ينشأ عنها انقلاب واضح كما حصل ذلك فى الفترة التى فيها تقوضت الحضارة الرومانية بهجمات المتبربرين ،

وأظلت أوربا سحب العصور المظلمة . ومثل ذلك يقال عن أوربا فى نهاية القرن الخامس عشر وأكثر السادس عشر — تلك هى الحقبة التى سميت النهضة الحديثة أو « الميلاد الجديد Renaissance » إذ فطن الناس إذ ذاك إلى تلاشى أفكار العصور الوسطى ونظمها وقيام آراء وطرائق تألفها طباعهم وتقبلها عقولهم وترتاح اليها نفوسهم ، فأحسوا أنهم انتقلوا من عالم بال إلى آخر جديد .

ويرجع المبدأ الحقيقى للنهضة إلى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ولكن القوم اعتبروا مبدأها فى القرن الخامس عشر اعترافا بفضل ما انبعث فيه من الادبيات القديمة اليونانية والرومانية لما لها من المزايا التى غضت من شأن كل عهد قبله لم يعن بها .

وقد بدأت حركة النهضة فى إيطاليا وذلك لأنها كانت فى العصور الوسطى مركزا مهما للتجارة بين الشرق والغرب ولا سيما بعد ابتداء الحروب الصليبية حين زاد طلب أوربا لنفائس الشرق ، فكانت هذه تحمل إلى الموانى الايطالية ومنها تنقل إلى الأسواق الأوربية الأخرى ، فزادت بذلك ثروة الايطاليين واستنارت أفكارهم بما اقتبسوه من حضارة أمم الشرق التى كانت أرقى منهم مدنية .

وقام على أثر ذلك حكومات مستنيرة قوية فى المدن الايطالية المختلفة وكانت أنظمة هذه الحكومات تشبه بوجه عام نظم الحكومات التى قامت أيام عظمة الحضارة الاغريقية القديمة . وكان من مميزات هذه الحكومات إشراك الشعب فى سياستها وتعضيد أمرائها للاداب والفنون ، فكان ذلك باعثا للأدباء وأهل الفنون على النبوغ والابداع . ثم أخذت كل مدينة تنافس غيرها فى عمل واقتناء أنفس الكتب وأبدع الصور وتشييد أفخر المبانى والمعاهد ، وما لبثت أفكار الناس أن تنبهت إلى ما حولها من آثار أجدادهم الأول الذين خلفوا من الآثار ، والمبانى والتماثيل والأدبيات أفضل وأجمل ما يمكن أن تنتجه عقول البشر فاعتقدوا أنه لا كمال لفرد أو لشعب لم يدرس ويستوعب ويحاك هذه الآيات القديمة . ومما مهد لهم

سبيل التغلغل فى تفهم روح هذه الأدبيات تقارب الطليانية الحديثة واللاتينية القديمة وإحساسهم بأن ما بين ظهرانيهم من الآثار إنما هو رمز لسالف مجدهم وعظمتهم .

لذلك كان الغرض الأول من الحركة الجديدة هو التنقيب عن الأدبيات القديمة والتشبع بروحها والنسج على منوالها ، فبدءوا يدرسون الأغريقية القديمة على أساتذة يونانيين جاءوا إلى إيطاليا من قبل الدولة البيزنطية يستنجدون بالبابا وبقية الأمراء وأشهر هؤلاء العلماء " كرسلوراس " الذى دعته فلورنسة ليحاضر فى اللغة اليونانية فى جامعتها .

وكان كلما ضيق العثمانيون الخناق على البيزنطيين رحل بعضهم إلى إيطاليا لما أحسوا به من الرابطة الأدبيـة بين الشعبين . وأخذوا إليها نفائس مقتنياتهم الاغريقية . وسرعان ما فشا تعلم الاغريقية وأصبحت آداب الاغريق متداولة بين العلماء الذين انكبوا على دراستها بشغف زائد ، فكانت المنهل العذب الذى اغترف الناس منه معلوماتهم فى الفلسفة والعلوم والسياسة فطالعوا أشعار " هوميروس " ودرسوا فلسفة سقراط وسياسة أفلاطون وارسطاليس ، كما درسوا القوانين الرومانية . وعلى العموم يمكن القول بأن دراسـة أدبيـات الاغريق وعلومهم كانت من أقوى العوامل التى هدمت نظريات العصور الوسطى ووضعت أساس النهضة الأوربيـة الحديثة .

وقد ساعد على توسيع نطاق النهضة وإيصالها إلى عامة الشعب فى الممالك المختلفة اختراع آلة الطباعة ذات الحروف المنفصـلة ، اخترعها " يوحنا جوتنبرج " بمدينة مايتز بألمانيا فى منتصف القرن الخامس عشر ، وكان الإنجيل أول كتاب طبع بهذه الطريقة سنة ١٤٥٥ فأحدث هذا الاختراع الذى يعتبر أكبر اختراع فى العصور الحديثـة إنقلابا عظيما فى عالم الكتابة والأدب ، ومن أكبر رسل النهضة فى إيطاليا :

دانتى (١٢٦٥ — ١٣٢١) :

أول كاتب ظهر من غير رجال الكنيسة وأول من كتب بالطليانية الحديثة لا باللاتينية ، فكان من هذه الوجهة مبشرا بالنهضة الحديثة وأول رسلها ، وإن لم يستطع الخروج عن أفكار العصور الوسطى يدلنا على ذلك ما جاء فى كتابه الشهير « الكوميديا الالهية » من الخرافات الدينية التى كانت مألوفة فى هذه العصور . وموضوع روايته " الكوميديا " عبارة عن زيارة للجنة والجحيم وما بينهما حادث فى أثنائها سكان تلك الأقاليم من رجال الأدب والعلم القدماء ، وذكر كثيرا من شعراء الرومان والأغريق الوثنيين بالاعجاب والتبجيل وإن لم تسمح له أفكاره الدينية بأن يكون مثواهم الجنة .

بترارك (١٣٠٤ — ١٣٧٤) :

أول من قدر الأدبيات الرومانية القديمة وأعجب بها أيما إعجاب ، وكان يحث تلاميذه وغيرهم على اقتناء المؤلفات القديمة ومطالعتها وقد جمع هو عددا عظيما منها . وكان يرى أن اللاتينية هى لغة الأدباء ويحتقر الطليانية ويعيب على دانتى استعماله إياها . ومن الصفات التى من أجلها عد " بترارك " من رسل النهضة الحديثة عنايته بالآثار القديمة وإكبارها ، وولعه بجمال الطبيعة وهو الأمر الذى حمله على السياحة وتسلق الجبال لمحض شغفه بالمناظر الطبيعية التى لم يأبه لها أهل العصور الوسطى إذ كانوا يعتقدون أن الغابات والجبال مأوى الشياطين .

وقد بلغ بترارك الخمسين من عمره دون أن يقرأ " الكوميديا الالهية " ولم يفعل ذلك إلا بعد أن ألح عليه تلميذه " بوكاشيو " وأعد له نسخة جلدها تجليدا متقنا ، وبعد قراءتها اعترف بترارك بأن موضوعها مجيد على الرغم من أنها كتبت بلسان العامة . على أن بترارك عاد فكتب بالطليانية أشعارا كان يستحى أن تنسب إليه فى حين أنها تعد اليوم أعظم قيمة من كل ما كتبه باللاتينية .

ويربط بترارك بالنهضة خطاباته التى يستطيع القارئ أن يتتبع فيها كل فكرة ، ويحس كل نبضة ، وهذا أول عهدنا بتحليل الأخلاق والعواطف تحليلا واضحا .

وإذا كانت النهضة عمت كل إيطاليا فان فلورنسة وروما قد برزتا فى هذا المضمار .

فلورنسة وآل مدتشى :

وكانت فلورنســة تحت حكم آل مدتشى وكانوا أمراء ديمقراطيين ذاع صيتهم فى المقدرة الإدارية وفى معاضدة العلوم والفنون فبرع تحت رعايتهم فى النحت دناتلو Donatello المتوفى سنة ١٤٦٦ والذى أبدع تمثيل حياة الناس وبخاصة الأطفال فى تماثيل من المرمر والبرنز تشف عن الحقيقة وعن المثل الأعلى فى آن واحد . ولم يلحقه أحد — منــذ الاغريق — فى تصوير الحركات المحزنة كالصلب ، والسارة كالرقص .

ومن مظاهر النهضة فى فلورنسة قيام مدارس على النمط الذى دعا إليه روسو فيما بعــد من بغض الترف وحب البساطة والجمع بين البنين والبنات فى مدرسة واحدة بقصد تخريج أناس متقفين تثقيفاً بدنياً وروحياً لا مجرد فلاسفة .

وكان لورنزو مدتشى أمير الفن والشعر وبفضله كمل إحياء اللغة الايطالية الذى بدأه دانتى وبترارك ، على أن أعظم رجــل فى عصره هو دافنشى Davinci إذ كان مثالا كبيرا وشاعرا وموسيقيا ومهندسا وعالما وكان من عباد الطبيعة ومن المولعين بالحرية . ومما يؤسف له أن أكثر تماثيله وصوره ضاعت .

وممن نشأوا تحت جناح لورنزو المصور جيوتو Ghiotto وكان فى صباه يرعى الغنم فأبصر به أحد الفنانين من أهل فلورنسة وقد أخذ حجرا وجعل

يخط على الصخر صورة للغنم المجتمعة حوله فحمله الفنان إلى المدينة واتخذه تلميذا وسرعان ما فاق التلميذ أستاذه وشاعت شهرته فى أنحاء إيطاليا . وقد



صورة الأسرة المقدسة من عمل المصور الطليانى دلسارتو

اتخذ جيوتو من الطبيعة مرشدا فدرس البيئة التى عاش فيها دراسة عميقة ثم أبدع تصويرها . ولما مات جيوتو أمر لورنزو أن يكتب على شاهد قبره "مهلا ، فأنا الذى نفخت فى الفن الميت روح الحياة ... وجعلت الفن والطبيعة شيئا واحدا " .

الـكنيسة وحركة النهضة :

ومع أنه كان المتوقع أن يتصـــدى البابوات للدفاع عن أفكار العصور الوسطى ومعارضة النهضة ، فانا نجدهم على العكس ، قد جرفهم سيلها فعاضدوها على أساس أن لغة الإغريق وعلومهم تمكن القسوس من معرفة أصول الدين وتفيدهم قوة الحجة والجدل . واجتذب أحد البابوات العلماء وكافأهم على ترجمة العلوم الاغريقية وجمع ٥٠٠٠ مخطوط كانت نواة لمكتبة الفاتيكان الشهيرة . ولما ظهر الفن نال تشجيع روما كذلك واستخدم للتعبير عن الأفكار الدينية و إنشاء الكنائس العظيمة ولهذا ترى البابا "يوليوس الثانى" يكلف ميخائيل انجلو وضع تصميم كنيسة تفوق كل ما سبقها فى النسب والجمال والتساط على خيال الانسان بجاءت كنيسة الرسول بطرس الجديدة مظهرا لعظمة الكنيسة العامة ووحدتها ، ودالة على سلطة رئيسها ، وقد جمع البابورات فى روما عددا من نوابغ الفنانين قل أن يجتمع مثله فى صعيد واحد .

ميخائيل أنجلو :

ومن هؤلاء ميخائيل أنجلو صاحب الابتكارات فى النحت والتصوير والهندسة الحربية ومن أكبر المهندسين المعاريين فى عصر النهضة . ومنهم روفائيل وكان مهندسا معماريا ومصورا من معاصرى أنجلو وهذان الفنانان يعدان أكبر مثل للنهضة الفنية لأن عملهما لم يكن مجرد تقليد للقدماء بل أكثره ناشىء من روحهما وصادر عن خيالهما ومصور لعواطفهما .

النهضة النسائية :

ومن خصائص النهضة أن أفسحت للنساء مجالا وزادت فى قيمتهن لأن أهم ظاهرة فى النهضة الايطالية عبادة الجمال واحلال الذوق محل التقشف وترك الأفكار المحزنة والعناية بصحة الجسم ونشاطـــه فكثرت مناقشات

السيدات فى هذه الموضوعات التى تناسبهن وتكاتبت نساء الأمم المختلفة فيها . وقد تنوع نشاط النساء حتى شمل الرقص والغناء ودراسة الفلسفة والآداب القديمة والعناية بالأسرة والملابس وحكم الأقاليم وفى كل هذا أظهرن مقدرة كبيرة . ونشأت حول بعضهن دوائر للعلم والأدب ، وفى هذه المجتمعات بدأت الفكرة الأوربية الحديثة من أن حرية الاختلاط تحوط الأخلاق بسياج أقوى من سور العزلة .

مكيافلى :

ومن أعلام النهضة نقولا مكيافلى (١٤٦٩ — ١٥٢٧) الذى تقلب فى وظائف عدة ، وندب لمهمات سياسية فى ايطاليا وفى الخارج وأحب إيطاليا أكثر من حبه نفسه ولذلك عز عليه ما رأى بها من الانقسام والشحناء وتبين له أن القوة وحدها هى التى تعيد اليها الوحدة فدوّن كتاب الأمير على نسق ما عرفه من معاصريه . وخلاصة كتاب الأمير أن القوانين الخلقية وضعت ليسير على مقتضاها الأفراد ، ولكنها لا تدخل فى سياسة الدول ، بل يجوز لمن يريد تكوين دولة قوية أن يلجأ الى الرذيلة والجريمة والقسوة والخداع . ويلاحظ أن "مكيافلى" لا يعبر عن أخلاقه الشخصية ولا عن مشاعره ، وإنما يقدم نصيحة لمن يريد النجاح فى السياسة . وكتاب الأمير أول كتاب فى النظريات السياسية الحديثة ، أطرح قواعد العصور الوسطى ، وأشار باتباع ما توحى به التجارب والفطنة وعلى نسقه سار ملوك أوربا فى القرنين السادس عشر والسابع عشر .

النهضة خارج ايطاليا :

ولما أشرقت شمس النهضة فى ايطاليا ارتحل اليها طلاب العلوم والفنون من أنحاء أوربا المختلفة فوردوا منهلها العذب وبهذا تعدت النهضة حدود ايطاليا الى بقية أوربا وظهرت فى كل مملكة بمظهر خاص بحسب استعداد الشعوب المختلفة : ففى ألمانيا رجع العلماء الى قديمهم فلم يجدوه

وثنياً كما وجد الطليان قديمهم وانما ألفَوْه المسيحية الأولى ، وراعهم فرق مابين رسلها السابقين وممثليها فى عصرهم ، ومن هنا نشأت كراهيتهم لرجال الدين فجردوا أقلامهم فى هجائهم ، ودعوا الى الرجوع الى مسيحية الانجيل فى بساطتها وتقواها و إخلاصها . وممن اشتهروا فى عصر النهضة حنا روخلن (١٤٥٥ — ١٥٢٢) الذى تعلم الاغريقية فى باريس وروما وصمم على اتقان العبرية باعتبارها مفتاح العهد القديم فما زال بها حتى حذقها ووضع لها نحوا ومعجما . ومن زملائه ملانكتون أستاذ اللغة الأغريقية فى جامعة وتنبرج وهو الذى حض مارتن لوثر على تعلم اللغة الاغريقية ، وكان ساعده الأيمن حين ثار لوثر على المذهب الكاثوليكى . فالحركة فى ألمانيا إذن كانت فلسفية دينية خالية من السرور تعوزها ملكات الذوق وحب الجمال ، ولم يشتهر فى التصوير غير « هلبين » .

ولم تختلف الحال كثيرا فى الشعوب الجرمانية الأخرى .

ارزمس :

كان "ارزمس" الهولندى يكره موسيقى الكنيسة ويخشى أن يرافق إحياء علوم الاغريق نشاط الوثنية وأهم عمل له ترجمة الانجيل من اللاتينية إلى الألمانية وكانت هذه الترجمة فاتحة عصر جديد إذ اجتذبت القراء الذين يعجبهم جمال الأسلوب ، والذين يقدرون تعليقاته المهمة فى الموازنة بين المثل الأعلى للمسيح عليه السلام وبين ما كانت تفعله الكنيسة إذ ذاك . وكان ارزمس أكبر ممثل للنهضة خارج إيطاليا تدعيه كل من انجلترا وفرنسا وألمانيا لأنه أقام فى كل منها مدة ، والتف حوله عدد عظيم من علماء تلك البلاد وكان هو وكثير من المفكرين فى عصره يشعرون بمعايب الكنيسة والأديرة ويرون ضرورة إصلاح تلك المعايب ولكنهم لم يفكروا فى الثورة على روما .

النهضة فى انجلترا :

ولما بلغ ارزمس الثلاثين دعاه أحد أشراف انجلترا فلبى الطلب وكثر أصدقاؤه فى لندن وأشهرهم " كولت " الذى يرجع اليه الفضل فى تعليم

الأغريقية فى جامعة أكسفورد ، والسير" توماس مور" . أما كولت فكان ميالا الى الهـدوء وكان هو وارزمس يريان التعليم أرفع المهن وأما " مور " فكان حسن الطلعة قديسا طروبا رحيما بالانسان والحيوان حاول البعد عن الوظائف ولكن الملك رقاه حتى صار وزيرا . وقد عمل هؤلاء الثلاثة على نشر الإنجيـل حتى يصل الى كل فلاح خلف محراثه وكل ناسج خلف منواله ، وحتى يكون سلوة كل مسافر .

والمعبر الأخير عن النهضة السـير فرنسيس بيكون (١٥٦١ — ١٦٢٦) ومن اتصاله بالحركة طلبه أن تعزف الموسيقى فى حجرة مجاورة له أثناء تفكيره ووضع الأزهار والأعشاب العطرة على المـائدة « لتنعش روحه وذاكرته » وقد برع فى البحث العلمى من الناحيتين النظرية والتجريبية .

وكانت النهضة فى انجلترا خالية من التصوير والحفر، غنية بالعظمة فى النثر والشعر والدرام بدرجة لم تسبق ولم تلحق حتى الآن . وبدأت النهضة الأدبية بتراجم جيدة لهوميروس وبلوتارك وفرجيل وأمثالهم مما جعل الأدب القديم فى متناول المتعلمين . ومن خصائص النهضـة فى انجلترا التوفيق بين الفن والعقيدة وبين الجمال والدين وأكبر مظاهر هذه الحركة بلوغ فن الدرام حد كماله فى روايات شكسبير وربما كان من مشجعات هذا الفن روح المخاطرة والتجديد التى ظهرت فى رحلات دريك Drake وأمثاله ولم تنقطع النهضة فى انجلترا بل امترجت بالمسألة الدينية وقادت إلى الصراع السياسى فى طلب الحرية .

النهضة فى فرنسا :

ومن إيطاليا أيضا سرت النهضة إلى فرنسا فوجد العلماء والشعراء والفنانون أرحب صـدر فى ملوك فرنسا وأمرائها من لويس الحادى عشر إلى فرانسوا الأول ، على أن روح النهضة تمثل فى مرجريت أخت فرانسوا وملكة نفارة إذ كانت مرجريت شاعرة فنانة واسـعة الاطلاع لا تنقطع الرسائل بينها وبين ارزمس حتى إنها لتعد تلميذته . ومن أدباء فرنسا "بودس Budœus" الذى اشتهر بمعرفة اللغة الاغريقية وهو الذى ساعد فرانسوا الأول وأخته

مرجريت على إنشاء " كلية فرنسا Collège de France " ومن أساطين النهضة الفرنسية فرانسوا رابليه Francois Rabelais وكان أول أمره راهبا ثم صار طبيبا وداعيا إلى البحث العلمى ، وهو أول فرنسى خالف أمر البابا وشرح جثة إنسان ، وكان ربليه متعطشا لتحصيل العلم والفضيلة والتجربة وبعبارة أخرى متعطشا لمعرفة الحقيقة،وكانت طريقته نشر الحقائق فى صيغة قصص خيالية ممتعة يتسلى بها العامة ، ويتعظ بها الخاصة ومنهم متين Montaigne (١٥٣٣ — ١٥٩٢) وهو أول فرنسى حبر المقالات التى اتخذها وسيلة للحث على دراسة الطبيعة والتزام الفضيلة من غير تقشف ولا عبوس ،وعلى الصراحة فى القول واتباع الطريقة الطبيعية فى التعليم . وتعد مقالاته خطوة جديدة فى الأدب إذ وصف فيها أدق عاداته وأذواقه وخياله وبذلك كتب لنفسه سيرة مفصلة فآذن بالوقت الذى يظهر فيه علم النفس الحديث . وكانت أفكاره السياسية تشبه أفكار مكيافلى .

أما الفن فساهمت فيه فرنسا بصفتها الخاصة و نعنى بذلك عبقريتها فى نقد الفن والحياة وحسن ابتكارها فى إنشاء الحدائق وتشييد القصور وقد بلغ الفن أوجه أيام فرنسوا الأول وكان مولعا بالعمارة وما زالت آثاره قائمة فى " فنتنبلو Fontainebleau " وغيرها واقتدى به الأمراء فشدوا على نسقه قصورا منها عدد كبير على نهر لوار .

النهضة فى اسبانيا :

أما اسبانيا فقد رأيتم أثر العرب فى حضارتها وعلمتم أنه لما بدأت اللغة الاسبانية تتكون استعارت كلمات كثيرة من العربية والقوطية مع بقائها على الأساس اللاتينى . وكان أول ظهور الاسبانية الحديثة فى الأناشيد وأشهرها أنشودة السيد التى شاعت فى فجر القرن الثالث عشر، ثم كثرت الترجمة من العربية وشاع التأليف على طريقة العرب فارتقى النثر الاسبانى وبدأت أوزان الشعر وقوافيه .

ولما قويت الأمارات الاسبانية ولم تعد تخشى بأس العرب تطلع الناس إلى الترف والبذخ وانصرف بعضهم إلى الأدب والعلم وصار بلاط بعض الملوك ملتقى العلماء والشعراء والفلاسفة .

على أن النهضة الأسبانية لم تبلغ أوجها إلا بعد ذلك بقرن من الزمان وفاق كتابها جميعا سرفنتس Cervantes الذى كتب كثيرا من الشعر والروايات ولكن كل ما كتبه هو ومعاصروه تضاءل أمام كتابه الذائع الصيت "دون كيشوت Don Quichote " فان هذا الكتاب وصف حال أسبانيا وعبر عما يشعر به الجمهور بدرجة لم تكن مستطاعة بلغة أجنبية كاللاتينية ، ولم تخل اسبانيا من فنانين بل ظهر المصور "فلاسكويز" وكاديبذ مصورى إيطاليا .

أثر النهضة :

هذا قليل من كثير مما يمكن كتابته عن حركة النهضة التى يميل بعض المؤرخين أن يرمز لها بسنة ١٤٩٤ لأنه فى تلك السنة كانت القسطنطينية فى يد العثمانيين ، وكان كلمبس قد كشف أمريكا ، وكان جوتنبرج اخترع الطباعة الحديثة ، وفاسكودى جاما يفكر فى رحلته إلى الهند ، وكان شارل الثامن ملك فرنسا كشف عن ضعف إيطاليا ونبه أذهان بقية الدول الأوربية إلى التنافس على امتلاكها وادى ذلك إلى فكرة التوازن الدولى وكل هذه الأشياء ماهى إلا مظاهر " الميلاد الجديد " الذى عد بحق ختام عالم العصور الوسطى ومبدأ العالم الحديث . ولا غرو فقد قضى هذا الميلاد على الماضى قضاء لا مرد له . وصار الناس فى عالم جديد فى أفكارهم وأحوالهم : فأصبحوا يرغبون فى التمتع بالحياة ، واستقصاء ما فيها من ظواهر طبيعية وملاذ ، واعتقدوا بأنه لا يلزم تضحيتها أملا فى حياة خالدة فى عالم آخر ، واستطاعوا أن يسلطوا أشعة العقل على ما حولهم من أنظمة وأفكار ومعتقدات فبحثوا ونقبوا وانتقدوا بلا وجل ولا خوف على عقائدهم ، وبدأوا يمزجون الأفكار الوثنية التى أخذوها عن الاغريق والرومان القدماء بالمسيحية . ونشأ من ذلك الاجتهاد فى التوفيق بين الدين المسيحى والعلوم الحديثة .

ومن أهم مظاهر النهضة تطور الأفكار السياسية : فبعد أن كان الناس يعتقدون أن البابا والأمبراطور أو الملك كليهما ظل الله فى أرضه لا يصح محاسبتهما على أفعالهما تشبعت عقول المفكرين بآراء الاغريق ومباحثهم فى أنظمة الحكومات فأدركوا أن خير حكومة هى ما كانت فى صالح المحكومين وبدأوا يقولون بوجوب اشتراك الشعب فى الحكومة ، وأنه لا معنى لوجود نظام ثابت لا يقبل تحويلا ولا تبديلا ، وليس أدل على تطور الأفكار السياسية من كتاب " الأمير " الذى وضعه " مكيافلى " وكتاب " يوتوبيا " الذى وضعه " توماس مور " .

ومن مظاهرها أيضا التطور الاجتماعى : إذ بظهور شخصية الفرد أصبح كل مولعا بالرقى والسبق فى مضمار الحياة بعد أن كان الفرد فى العصور الوسطى لا يعمل إلا طوع إرادة القسوس . وقد أدى هذا إلى السعى فى اكتساب الشهرة فى المجتمع من غير كبير احترام للدين وتعاليمه وللتقاليد التى كانت مألوفة إلى ذلك الوقت ، فنجم عن ذلك استخفاف عظيم بالآداب العامة وأصبح التبذل والتهتك والانغماس فى الملذات من النتائج السيئة لحركة النهضة الحديثة فى بعض البلاد كايطاليا .

الاستكشافات الجغرافية :

كان أهل أوربا فى العصور الوسطى يحسون بأنهم محصورون من كل جانب يحدهم فى الشمال الضباب والثلج ، وفى الجنوب يطوقهم المسلمون من جبل طارق إلى البسفور ، ثم صحارى أفريقية المحرقة التى يسكنها أناس متوحشون والتى ترد البيض سودا إذا هم حاولوا عبورها ، بينما كانت تفصلهم عن آسيا جبال ومجاهل فإذا هم نظروا إلى الغرب فهنالك " بحر الظلمات " أو " المحيط الأخضر " الذى لا ينتهى ماؤه إلى ساحل غربى ، ولا يجرؤ ملاح على خوض عبابه ، وإذا جازف فهو لا محالة هالك .

وبينما أهل أوربا على تلك الحال كان العرب قد ترجموا علوم الأغريق وأضافوا إليها ، وما لبثت هذه العلوم أن سرت إلى أوربا عن طريق العرب

فى الأندلس ، وفى جنوب إيطاليا وبسبب اختلاط الغرب والشرق أيام الحروب الصليبية ، ولما كان الايطاليون من أهل جنوه والبندقية وغيرهما واسطة هذا الاختلاط فقد نقلوا عن العرب الاسطرلاب والبوصلة وحسنوا الأخيرة حتى استطاع الملاحون الاعتماد عليها وشرعوا يرسمون خرائط مطابقة للواقع إذ كان الغرض منها إرشاد الملاحين إلى الثغور وكان من نتائج ذلك أن تشجع الملاحون واستنارت أفكارهم . ومن الايطاليين الذين لهم فضل السبق فى تنوير عقول العالم الأوربى من الناحية الجغرافية " مركو بولو " أحد تجار البندقية الذى قام بسياحات طويلة فى آسيا ولا سيما فى الصين فلما عاد إلى بلاده فى نهاية القرن الثالث عشر (١٢٩٥) أثار دهشة القوم وحماستهم بما أذاع هو وصحبه من حكايات تكاد تكون خرافية عما شاهدوه من كنوز الثروة فى الشرق .

وكان المسيحيون إذ ذاك يطاردون المسلمين من الأندلس خطوة خطوة وامتد ذلك النضال قرونا مرن فيها البرتغال والاسبان على الحروب البرية واستمرؤا القتال ذودا عن بلادهم ونشرا لدينهم حتى إذا أصبحت لشبونه بيد البرتغال وأشبيلية فى حوزة قشتالة جعل قرصان المسلمين من أهل المغرب يهاجمون السفن أثناء غدوها ورواحها بين هاتين المدينتين فاضطرت قشتالة والبرتغال إلى مطاردة هؤلاء القرصان وتأمين البحر فى تلك الجهة . ومن ثم نشأت الأعمال البحرية غرب أعمدة هرقل (مضيق جبل طارق) وأدى ذلك إلى النزاع بين قشتالة والبرتغال على امتلاك جزائر قناريا وقرر البابا سنة ١٣٤٤ أن تكون السيادة عليها لقشتالة .

ولما تخلص البرتغال من حكم العرب وأمنوا إغارة جيرانهم المسيحيين واصلوا تلك الحروب الصليبية التى ألفوها ، واشرأبت أعناقهم للقضاء على المسلمين قضاء مبرما . وأول امتداد لهم وراء البحر حملة صليبية كان من زعمائها الأمير هنرى ثالث أبناء ملك البرتغال انتهت بالاستيلاء على "سبته" وكانت معقل قرصان المغرب وكان هنرى قد صاغ نفسه على مثال لويس التاسع فى حروبه الصليبية . وأول غرض كان يرمى إليه تسيير السفن حول

شاطئ أفريقية الغربى حتى يمكن الاتصال بملك الحبشة الذى استفاضت الأخبار عن عظمته وتقواه ، وذلك بقصد التعاون معه على تطويق بلاد الإسلام .

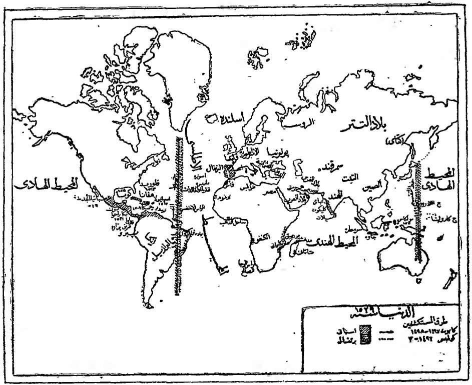
ولما عين الأمير حاكما على سبته رأى القوافل تأتى من الجنوب ، وتحدث عن زنوج يسكنون أرضا خصبة كثيرة التبر والعاج فعول على الوصول إليها واستعمال ثروتها فى إعداد فرسان لحملة صليبية تحول إليه مغانم التجارة الشرقية التى كانت إلى ذلك الوقت بيد المسلمين . ومن تلك اللحظة كرس هنرى حياته لكشف بلاد غينا ومصب النيل الغربى الذى كان يظن أنه يبدأ من مصر ويصب فى المحيط الأطلسى عند غينا . وبهذا كان " هنرى " آخر صليبى وأول من أوحى بالكشوف الحديثة وأسبق سياسى أدرك أن البحر لايحد جهود الانسان، وإنما هو طريق معبد للتجارة فلا غرو أن لقب " هنرى الملاح " .

وأخذ هنرى يعد القوة البحرية التى لاسبيل إلى امتلاك البحار بدونها فاستحضر الفلكيين وراسمى الخرائط من ميورقة وصقلية لتعليم ملاحيه آخر ماوصل إليه العلم ، واستقدم صناعا من شرم بسكى لتحسين السفن وجعلها قادرة على احتمال كل الاجواء واستخدم ملاحين من البرتغال والايطاليين وشجعهم على خوض بحر الظلمات .

وقد استولى الملاحون على جزائر ماديره ١٤١٩، ١٤٢٠ ورحلوا الى رأس بوجادور (١٤٣٥)

وكان ساحل إفريقية الغربى معروفا إلى ذلك الرأس. وكان الاعتقاد السائد أن الساحل يدور بعده فى شكل قوس عظيم حتى يصل إلى خليج عدن. وعلى هذا الاعتقاد يكون الوصول الى الهند بهذا الطريق أسهل منه بطريق مصر . غير أن الملاحين كانو يخشون عواقب تجاوز ذلك الرأس جنوبا زعما منهم أن ماء المحيط يصل إلى درجة الغليان ، وأنهم إذا جاوزوه جنوبا اسودت أجسامهم ، على أنه وجد من الملاحين من خاطر بتجاوزه فكشف الرأس الأبيض ١٤٤١ ثم الرأس الاخضر بعده بسنتين .

الاستكشافات الجغرافية



ولما بدأ الشاطىء يتجه جنوبا أدرك البرتغال اليأس فاستفتت العالم الفلورنسى تسكانلى "Toscanelli" فأفتى «بأن الهند ليست فى الشرق وإنما هى فى الغرب» يريدان الوصول إليها بالسير غربا أسهل منه بالسير إلى جهة الشرق . إلا أنه فى تلك الأثناء جاء إلى ملك البرتغال رسول من أحد ملوك بلاد الكنغو وأخبره بأنه يوجد شرق بلاده ملك مسيحى فعادت الأفكار إلى پرسترجون وتقرر البحث عن بلاده برا وبحرا .

وكان رئيس البحث البحرى « برثلميوودياز » وقد قذفت به العواصف جنوبا ثم شرقا إلى درجة أزعجت رجاله فلما أراد العـودة عثر على الطرف الجنوبى من قارة أفريقية سنة ١٤٨٧ وسماه رأس العواصف إلا أن ملك البرتغال سماه رأس الرجاء الصالح إيذانا بقرب الوصول إلى الهند .

وفى ذلك الوقت كان كلمبس قد قام برحلته الأولى بقصد الوصول إلى الهند بالسير غربا . فانتظر البرتغال النتيجة فلما عاد كلمبس من رحلته الثانية ظهر أن العقبات فى الطريق الغربى أكثر مما كان يظن فقرر ملك البرتغال معاودة الطريق الشرقى وبعث فاسكودى جاما — وكانت جرأة كلمبس قد شجعت غيره — فسار دى جاما من البرتغال إلى جزائر الرأس الأخضر ومنها فى عرض البحر إلى رأس الرجاء الصالح . ولم تمض ثلاثة وعشرون يوما حتى رست سفنه فى قاليقوط سنة ١٤٩٨ فقابله حاكمها الزامرين أو ملك البحار بفتور ولكن فاسكو أقنعه بأن يحالف ملك البرتغال وعاد دى جاما إلى بلاده بتجارة جاءت أرباحها بأضعاف نفقات رحلته التى استغرقت عامين . وقد أحسن الملك مقابلة دى جاما وعينه أميرا على بحر الهند .

وتابعت البرتغال البعوث ومنها بعث "كبرال Cabral" سـنة ١٥٠٠ بثلاث عشرة سفينة عليها ١٢٠٠ جندى لمقاتلة المسلمين فى المحيط الهندى وعدد من الرهبان لتنصيرهم وكان جاما قد نصح لكبرال بالابتعاد عن شاطئ أفريقيـة اتقاء للرهو الاستوائى فسار فى عرض المحيط حتى إذا بلغ خط العرض ١٧° جنوب خط الاستواء وجد أرضا استولى عليها باسم ملك البرتغال واتضح فيما بعد أن هذه الأرض ليست فى أفريقية ولا فى الهند وإنمـا هى البرازيل الحالية .

على أن رحلة كبرال لم تعتبر ناجحة فأرسل دى جاما سنة ١٥٠٢ بحملة تغلبت على الزامرين وعادت بغنائم كبيرة ولم يلبث ملاحو البرتغال أن كشفوا جزائر سنت هلانه واسنشن (الصعود) وسيشل وسقطره وملديف ومدغشقر .

وقد رأى ملك البرتغال أن يرسل حكاما من قبله يقيمون فى الشرق لانهاض التجارة وفى سنة ١٥٠٥ أرسل " الميدا Almeida " فأقام فى سيلان بقصد احتكار تجارة القرفة فى تلك الجهة .

وقام على أثر ذلك النزاع بين البرتغال من جانب ومصر والبندقية من جانب آخر وانتهى الأمر بفوز البرتغال وانتصارهم بقيادة «الميدا» فى موقعة ديو البحرية سنة ١٥٠٩ كما تقدم . والميدا هذا هو الذى أخذ من العرب موزنبيق وكلوة .

وجاء بعده " البوكيرك Albuquerque " وكان بصيرا باختيار المواقع الحربية والثغور التجارية فصمم على منع العرب من دخول المحيط الهندى وذلك باغلاق خليج فارس والبحر الأحمر فأخذ « جوا » وجعلها عاصمة لتلك الأرجاء الشاسعة — وهى ما تزال فى يد البرتغال إلى اليوم — وأخذ هرمز وكانت من أهم مراكز التجارة الشرقية واستولى على ملكس أو جزائر التوابل وكان من أطماعه أخذ مكة والمدينة وتحويل مجرى النيل إلى البحر الأحمر ولم يأت عام ١٥٢١ حتى كانت جزائر التوابل فى قبضة البرتغال ونتج عن تحكمهم فى الأسعار ارتفاع فاحش فى أثمان المتاجر الشرقية وبخاصة حين سقطت فى يد البرتغال أيضا تجارة الصين واليابان بعد أن فتح العثمانيون مصر فأصبحت أوربا عالة عليهم فى وسائل الترف .

وعظمت ثروة البرتغال بالمتاجر الخفيفة الحمل العظيمة القيمة من فلفل وزنجبيل وقرفة ولؤلؤ وبخور وعظلم (نيله) وأفيون — وهو المسكن الوحيد فى تلك الأيام — وكافور وقرنفل وجوز طيب . وكانت هذه الحاصلات الرخيصة فى مناطقها الطبيعية تباع فى أوربا بوزنها من الأحجار الكريمة فكانت الرحلة التى تتكلف ٤٠٠٠ جنيه بما فيها ثمن السفينة تباع الحمولة وحدها بمبلغ ١٥٠,٠٠٠ جنيه وكان البرتغال لا يرعون حرمة لأفريقى ولا لآسيوى ،

بل كان كبرال مكلفا استعمال السيف والنار فى كل مدينة تمتنع عن التجارة أو تأبى قبول المبشرين . وزاد الحال سوءا ظهور محاكم التفتيش فى البرتغال وقيام واحدة منها فى " جوا " نفرت الأهالى باغلاق معابدهم .

ولم يتمتع البرتغال بسلطانهم طويلا إذ دخلوا فى حكم إسبانيا سنة ١٥٨٠ أيام فيليب الثانى ، فلما انفصلوا عنها سنة ١٦٤٠ كانت هولندا أثناء محاولتها الاستقلال عن إسبانيا قد استولت على كثير من المستعمرات البرتغالية السابقة . وكانت انجلترا وفرنسا قد ظهرتا أيضا فى عالم الملاحة والاستعمار وجعلتا تنافسانها .

الكشوف الاسبانية

رأينا أن النهضة الأوربية أعادت إلى الأذهان ما كان يعرفه الأقدمون من أن الأرض كرة ، ومن إمكان الوصول إلى الهند بالسير غربا ، وممن اعتنقوا هذه العقيدة وتشبعوا بها فتى يسمى " كرستوفر كلمبس " ولد فى جنوة سنة ١٤٤٦ وتعلم شيئا من علوم الأقدمين كما عرفها أهل عصره ثم انصرف إلى الملاحة ، ولما كانت البرتغال موطن الجغرافيا وما يرتبط بها ارتحل كرستوفر وأخوه إلى لشبونة واستمر يعمل فى الملاحة بينما اشتغل أخوه بعمل الخرائط فى " ساجرس " .

وفى ذلك الوقت شاعت فتوى العالم الفلورنسى " تسكانلى " بأن الوصول إلى كثاى (الصين) إنما يكون بالسير غربا فطلب إليه كرستوفر كلمبس الايضاح فبعث إليه تسكانلى بصورة الخطاب الذى سبق أن أرسله إلى ملك البرتغال وأرفق به خريطة بين عليها بالساعات أو (الدرجات) المسافة بين اسبانيا وكثاى عن طريق الغرب ، وكان تسكانلى قد أضاف المعلومات التى برهنت عليها رحلة ماركو بولو إلى ما استفاده من بطليموس . وخرج من ذلك بأن المسافة بين جزائر آسورة وكثاى ٦٢ درجة أو ٣١٢٠ ميلا ، ومن ذلك الوقت كرس كلمبس حياته لتحقيق هذه الفكرة ، وكان من

قصده التبشير بالانجيل بين الملايين من الكفار فى كَتّاى . وعرض كلمبس فكرته على ملك البرتغال رجاء امداده بالسفن والمال والرجال ، ولكن البرتغال عزعليها أن تهمل عمل خمسين السنة السالفة وتأخذ بفكرة جديدة فعول كلمبس على إرسال أخيه إلى هنرى السابع ملك انجلترا .

وقبل أن يعرف النتيجة تقدم إلى إيزبلا ملكة قشتالة وفرديند ملك أرجونة يطلب معاونتهما ، وكانا إذ ذاك منهمكين فى الدور الأخير من مطاردة العرب ومشغولين عن التفكير فى مشروع جديد . غير أن إيزبلا رأت فى ذلك المشروع فتحا دينيا آخر لأن الملاحين يخطفون زنوجا بمقدار التكاليف وهؤلاء الزنوج يعتنقون المسيحية . ثم لا تمضى ثلاث سنين حتى يرد لها من الذهب ما يكفى لفتح بيت المقدس . وفضلا عن هذا فإن تسكانلى حين كان فى روما رأى بعينى رأسه مندو بين من التتار جاءوا من قبل ملكهم يطلبون إلى البابا أن يرسل معهم مبشرين لنشر المسيحية فى بلادهم . وإذن فالأسبان يخرجون إلى الشرق إجابة لدعوة ملك التتار (الخان الكبير) و ينصرون أهل تلك الأرجاء الشاسعة قبل قيام الساعة ، وكان مقدرا لها ١٥٥ سنة .

و بعد أخذ ورد بضع سنين أجيب طلب كلمبس إذ عين أميرا للبحر وواليا على كل ما يكشفه وفرض له عشر ما سيجبى من الجزية . ويلاحظ أن سقوط غرناطة وطرد اليهود من اسبانيا والتعاقد مع كلمبس حدثت كلها فى عام واحد هو ١٤٩٢ ، وأن الروح الصليبية ونشر المسيحية بالقوة واحدة فى ثلاث الحوادث . ولذلك كان رجال الدين وجهال الأشراف من بين المعاضدين لكلمبس بالرغم من أن العلماء أظهروا أن المسافة التى قدرها بين اسبانيا وكتّاى أقل من الواقع بكثير .

وفى ٣ أغسطس سنة ١٤٩٢ خرج فى ثلاث سفن جُمع ملاحوها بالاكراه قاصدا جزر قناريا ومنها يمّم الغرب . وكثيرا ما ثار الملاحون وكادوا يقتلونه كى يعود بهم إلى وطنهم ولكن تهديدهم لم يفل من عزمه ولم يقلل من ثقته بخريطة تسكانلى حتى وصل إلى أرض حسبها جزءا من آسيا وظهر فيما بعد أنها إحدى " جزر بهاما " فنزل اليها فى سلاحه ودرعه و بيده العلم

الأسبانى وصلى هو ورجاله صلاة الشكر . وكان ذلك بعد سياحة ٣٦ يوما ، ومن هنا سار غربا فكشف كيوبة ثم هيتى (سن دمنجو) حيث ترك بعض رجاله فى قلعة وعاد أدراجه فبلغ " بالوس " بعد سبعة أشهر و بعد أن يئس الجميع من عودته . و برجوعه خيف أن ينشأ الخلاف بين البرتغال والأسبان على تملك الكشوف الجديدة فعمد البابا "اسكندر السادس" إلى حسم النزاع فقرر سنة ١٤٩٣ تصور خط وهمى بين القطبين على بعد ١٠٠ فرسخ غربى أسورة يكون ما يقع شرقيه للبرتغال وما يقع غربيه لاسبانيا وعدل ذلك فى العام التالى بجعل ٣٧٠ فرسخا أو ١١١٠ من الأميال ، فلما كشفت البرازيل بعد ذلك كانت من نصيب البرتغال .

ولما رأى الأسبان ما حمله اليهم كلمبس من الهنود الحمر والببغاءات البهجة الألوان وسبائك الذهب والنباتات الغريبة طمعوا فى الثروة وأعد فردينند وايزبلا سبع سفن أبحر بها كلمبس من قادس فى ٢٥ سبتمبر سنة ١٤٩٣ واتخذ خط سير جنوبى خط الرحلة الأولى ولكنه مع ذلك وصل إلى جزر أخرى من الجزر التى سميت من ذلك الوقت جزر الهند الغربية ، ولما زار هيتى لم يجد أثرا لرجاله ولا للقلعة التى كانوا فيها ، ومن ذلك الوقت بدأ حماس الاسبان يفتر لقلة ما جاء به كلمبس من الذهب و بسبب ما شجر بين رجاله وبين الأهالى من الشغب ولأن بعض الاسبان حسده على ما وفق إليه من كشف فلما كشف ترنداد ورأى شاطئ أمريكا الجنوبية فى الرحلة الثالثة أرسل إلى اسبانيا مكبلا بالأغلال ، إلا أن إيزبلا طيبت خاطره وأرسلته فى رحلة رابعة كشف فيها جزءا من شاطئ أمريكا الوسطى قرب بنما .

غير أن إيزبلا ماتت وانصرف فردينند عن هذه الكشوف وأهمل كلمبس حتى مات فقيرا على الرغم من أنه كان أول ملاح خاطر بعبور المحيط بعد أن كان من سبقوه يلتزمون القرب من الساحل وقد رأينا أثر ذلك فى رحلات فاسكودى جاما وكبرال . و بينما صرف البرتغال قرنا من الزمان للوصول إلى رأس الرجاء الصالح لم يمض على رحلة كلمبس الأولى ثلاثون سنة حتى طاف الملاحون بالكرة الأرضية كلها . ولسوء حظه أنه أصر على أن ما كشفه

ليس عالما جديدا وإنما هو جزر الهند وصل إليها عن طريق الغرب ومن أجل هذا سمى ما كشفه " جزر الهند الغربية " .

ومن أجل هذا أيضا لم تنسب إليه القارة وإنما نسبت إلى إيطالى آخر هو " امريجو فسبوشى " أرسله ملك البرتغال سنة ١٥٠١ ليتعرف مقدار الأرض التى تقع شرقى خط التقسيم فرسا على شاطئ البرازيل وتتبع الساحل بالتدقيق إلى نهر لابلاته وأعلن أن ما كشف عن طريق الغرب ليس من آسيا وإنما هو عالم جديد وبدأ هذا العالم يسمى أمريكا نسبة إلى أمريجو هذا .

وتابع الاسبان الكشف حتى صار لهم أربع جزر كبرى وأربعون جزيرة صغيرة حاولوا حكمها باقطاع الأرض لمن يريدون الذهاب إليها وهنالك تجلى الاستبداد والاستعباد إذ أرغم الأهالى على الحفر بحثا عن الذهب فماتوا أفواجا وفضلت بعض القرى الانتحار جملة .

ولما مات فرديننده تولى ملك اسبانيا حفيده شارل الأول (وهو الذى عرف فيما بعد باسم شارل الخامس امبراطور ألمانيا) وفى عهده ظهر شريف برتغالى يسمى " مجلان " خدم مدة طويلة فى جزر الهند الشرقية تحت إمرة الميدا والبوكيرك . ولكنه لم يحز رضا ملك البرتغال فتقدم إلى شارل وأكد له أن جزائر التوابل الحقيقية تقع غربى خط التقسيم ، وأنها بذلك تكون فى دائرة اسبانيا ، وأنه — تفاديا لسوء التفاهم بين المملكتين — يستطيع أن يصل إليها عن طريق الغرب بالدوران حول أمريكا ، فجهزه شارل بخمس سفن أقلعت من إشبيلية فى سبتمبر سنة ١٥١٩ وعبرت المحيط الأطلسى وكشفت جنوبى أمريكا مضيقا عرف باسم مضيق مجلان نفذت منه إلى المحيط الهادى حتى وصلت إلى جزر سميت « الفلبين » نسبة إلى فليب الثانى ملك اسبانيا فيما بعد — وكان إذ ذاك ولى عهد شارل — وعاد نائبه "دلكانو" إلى اسبانيا فبلغ اشبيلية فى ٨ سبتمبر سنة ١٥٢٢ بعد غيبة ثلاث سنين ومعه سفينة واحدة من خمس و ١٨ رجلا من ٢٧٠ كانوا قد خرجوا معه .

وكان لهذه الرحلة أهمية كبرى من الناحية الجغرافيـة إذ برهنت بصفة قاطعة على موضع أمريكا وعلى وجود محيط واسع بينها وبين آسيا وعلمت الجغرافيين أن حجم الأرض أكبر بكثير مما خطر ببال الأقدمين . وقد نال دلكانو رضاء شارل الأول ملك اسبانيا .

ولم ينشأ نزاع يذكر بسبب رحلة مجلان لأن شارل صاهر ملك البرتغال وتنازل سنة ١٥٢٩ عن كل ما يعود عليه من تلك الرحلة .

ولما رأى الاسبان ما عليه القارة الجديدة من الثروة انصرفوا عن الشرق وبدأوا يستعمرون أمريكا فخرج كورتيز سنة ١٥١٩ بحملة من كيوبه لغزو أمبراطورية الأزاتقة Aztecs فى المكسيك وكان الأزاتقـة ذوى حضارة لا بأس بها تشبه حضارتنا القديمـة بعض الشىء ، ولكنهم كانوا فاتحين يكرههم السواد الأعظم من الأهالى . وقد فزعوا من الخيل — رغم شجاعتهم — لأنهم لم يكونوا رأوا شيئا يشبهها من قبل . وكذلك لم يكن لهم من السلاح ما يقرب من مدافع الاسبان ولم يمض عامان حتى تم فتح المكسيك وبدأت كنوزها من الفضة تتدفق إلى خزائن إسبانيا ، وقد نقل كورتيز إلى أمريكا ما لم يكن بها من الحيوان والنبات .

وفى سنة ١٥٣١ خرج بيزارو Pizarro لفتح بيرو وكان أهلها — الانكا — أهل سلم وهدوء يملكون من الذهب ما لم يخطر على بال أوربى حتى إن ملكهم لما أسر افتدى نفسه بملء الحجرة التى كان فيها ذهبا فأخذ بيزارو الذهب وغدر بخصمه .

وفاض ذهب بيرو إلى اسبانيا بجانب فضة المكسيك ثم فتح الاسبان بقية أمريكا الجنوبية تاركين البرازيل للبرتغال .

وكان من نتائج هـذه الكشوف أن قلت أهمية البحر الأبيض المتوسط وبالتالى أهمية مصر والبندقية وغيرهما ، وأصبح المحيط الأطلسى مركزا للتجارة بين أوربا وأمريكا وصارت البـلاد الواقعة عليه فى وسط العـالم التجارى بعد أن كانت على حافته القصوى وأحست انجلترا وفرنسا والأراضى

المنخفضة أنها لا تقل فى هذا الامتياز عن البرتغال واسبانيا فسعت إلى نيل نصيب من تلك المغانم فأرسل هنرى السابع ملك انجلترا سنة ١٤٩٦ «جون كابوت» وابنه للوصول إلى الهند عن طريق الشمال الغربى فكشف جزيرة « نيوفوندلند » وتتبع الشاطىء إلى قرب « فلوريدا » واستعمرت انجلترا بعد ذلك الجهات المعروفة الآن باسم الولايات المتحدة .

وأرسل فرانسوا الأول ملك فرنسا جاك "كارتييه" قصد الذهاب إلى الهند بالطريق الشمالى الغربى فكشف مصب سنت لورانس سنة ١٥٣٤ وتلا ذلك استعمار الفرنسيين كندا وحوض نهر مسيسبى .

ولما ضمت البرتغال إلى اسبانيا سنة ١٥٨٠ كانت الأراضى المنخفضة الاسبانية (هولندا الآن) قد اعتنقت مذهب كلفن، واضطرها اضطهاد فليب الثانى إياها إلى الخروج عن طاعته ، وفى أثناء النزاع بين الجانبين استولى الملاحون من أهل هولندا على بعض مستعمرات اسبانيا التى آلت اليها بضم البرتغال ، ومن هذه جزائر ملكس سنة ١٦١٤ وجاوه سنة ١٦١٩ وهناك اتخذوا "بتافية" مركزا لتجارتهم فى الشرق ، وشرعوا يسيطرون على تجارة التوابل وما زال أكثرها بأيديهم إلى الآن .

نتائج الكشوف وتأثيرها فى مركز مصر التجارى

ليس من المستطاع تفصيل نتائج هذه الكشوف ولذا نوجز أهمها فيما يلى :

١ — كانت الكشوف نقمة على أصحاب البلاد الأصليين الذين لم يكونوا فى حالة وحشية كما يتصور بعضهم ، فلم يلبثوا أن قضت عليهم الحروب والأمراض الأوربية سيما فى أمريكا الشمالية ، ومن بقى منهم أصبح منفردا عن المستعمرين من الانجليز وغيرهم وأخذوا فى الاضمحلال شيئا فشيئا وليس هناك الآن إلا عدد يسير منهم فى غرب الولايات المتحدة وكندا . أما فى أمريكا الجنوبية فانه بعد أن هدأت سورة الفاتحين الأوائل ارتبط الأهالى بالأسبان والبرتغال وخالطوهم وتعلموا لغتهم ودينهم ونشأ من ذلك الجيل الأمريكى الحاضر .

٢ — دعت الكشوف إلى تحسين بناء السفن و إلى إيجاد طرق جديدة لارشاد الملاحين ولتعيين خطوط الطول والعرض على وجه التحقيق وتطلبت النباتات والحيوانات الخاصة بأمريكا تفكيرا ودراسة ، وظهرت مجموعات من النجوم لم تكن معروفة من قبل لأنها لا ترى إلا من النصف الجنوبى من الكرة الأرضية . كل هـذه الأشياء وغيرها لفتت أذهان العلماء الأوربيين وأولهم الفيلسوف الانجليزى "فرنسيس بيكون" فاتسع أمامهم مجال البحث العلمى الذى بعثته النهضة .

٣ — كان الدافع الأول للكشوف نشر الدين المسيحى ، وقد نجح البرتغال والأسبان فى تنصير أهل المكسيك وأمريكا الجنوبية ونشروا بينهم المذهب الكاثوليكى .

٤ — وردت إلى أوربا حاصلات جديدة كالبطاطس والتبغ والشاى والبن صارت ضرورية بعد أن كانت كمالية وكثر الذهب والفضة فى أوربا وساعد ذلك على انهاض الحالة الاقتصادية وحل النقد محل المبادلة وزادت أهمية المصارف ، وصارت الرأسمالية عنصرا جديدا فى حياة اوربا . ومن الغريب أن البرتغال والأسبان لم يجنوا من ذلك فائدة دائمة إذ ترفعوا — وبخاصة الأسبان — عن الأعمال الزراعية والصناعية واشتبكوا فى حروب أثقلت كاهلهم فقل عدد السكان وشاع التسول . ومن سـوء حظهم أن تمكن أعداؤهم من الانتفاع بنتائج جهودهم فاستولى الهولنديون على مراكزهم التجارية وعظم شأن أمستردام أولا ثم لندن وتضاءلت أشبيلية ولشبونة .

٥ — أدت الكشوف إلى الاستعمار ودعا هذا إلى التطاحن البحرى وصار الغلب لأحسن الأساطيل وأعظمها بعد أن كان لأقوى الجنود وأدقها نظاما — فكأن الكشوف نقلت مركز التوازن الدولى من البر إلى البحر ، كما أفسحت مجال التاريخ ، فبعد أن كان ميدانه فى العصور القديمة والوسيطة مقصورا على أوربا وأجزاء من آسيا وأفريقيـة ، أصبح التاريخ الحديث مكلفا دراسـة العالم كله وفيه أمريكا وأكثر أفريقية وأجزاء كبيرة من آسيا ، وسرعان ما أضيفت إلى بحوثه استراليا وما إليها .

٦ — وأهم من هذا لبلادنا أن هذه الكشوف أدت إلى قيام حروب بيننا وبين البرتغال ، إذ طلب أمراء كوجارات واليمن النجدة من السلطان قانصوه الغورى ، فأرسل أسطولا من خمسين سفينة يقوده أمير البحر "حسين الكردى" فانتصر عليه البرتغاليون واستولوا على بعض سفنه فأعاد الغورى الكرة مستعينا بالبنادقة فانتصر المصريون والبنادقة فى أول الأمر سنة ١٥٠٨ إلا أن البرتغاليين عادوا بقيادة "الميدا" ودمروا أسطول مصر وحلفائها فى موقعة "ديو" البحرية عند الساحل الجنوبى لشبه جزيرة كاثياوار بالهند شمالى بمباى سنة ١٥٠٩ وبعد بضع سنين أخذ "البوكيرك" عدن وهزم الجيوش المصرية فى اليمن .

وإذ ذاك أعد "قانصوه الغورى" أسطولا جديدا لمعاقبة الأعداء ولحماية التجارة الهندية ، إلا أنه مع الأسف اشتبك فى ذلك الوقت مع السلطان سليم الأول كما تقدم ففقدت مصر استقلالها وموردا كبيرا من موارد ثروتها فى وقت واحد .

وبذا أقفرت أسواق القاهرة والاسكندرية من تلك الحركة التجارية الهائلة التى سمعت بها ، وحرمت حكومة مصر تلك الضرائب التى طالما استمتعت بها ، كما فقد الأهالى الفوائد الجمة التى كانوا يجنونها من نقل هذه المتاجر .

وناهيك دليلا على ما أصاب مصر بفقد تجارة الشرق وتحكم العثمانيين فيها اضمحلال الاسكندرية بانسداد الترعة التى كانت توصلها بفرع رشيد وبسبب عجز الحكومة عن تأديب قرصان البحر الأبيض المتوسط ، وعدم عنايتها باقامه الأرصفة والحواجز لوقاية السفن شر العواصف ، حتى انحطت تلك المدينة التى رأيت وصفها من قبل إلى قرية شاطئية لا يزيد سكانها على ٨٠٠٠ نفس ، ثم هى بعد ذلك منعزلة عن بقية القطر لا تجد من ماء النيل ما يروى ظمأ أهلها .

تم طبع هذا الكتاب بالمطبعة الاميرية ببولاق
فى يوم ٨ من ذى القعدة سنة ١٣٥٦ (١٠ من
يناير سنة ١٩٣٨) م

مدير المطبعة الأميرية
محمد أمين بهجت

المطبعة الاميرية ٥٠٤٥-١٩٣٧-٥٠٠٠